شعراء أعلام

أبو القاسم الشابّيّ

حياته وشعره

يوسف عطا الطريفي





أبو القاسم الشابّي

حياته وشعره

الأهلية للنشر والتوزيع
e-mail: alahlia @ nets.jo

الفرع الأول (التوزيع)
المملكة الأردنية الهاشمية، عمان، وسط البلد، شارع الملك حسين، بجانب مطعم القدس– بناية رقم ١٢
هاتف ٤٦٣٨٦٨٨ ٦ ٩٦٢ ٠٠ ، فاكس ٦ ٩٦٢ ٠٠ ٤٦٥٧٤٤٥

الفرع الثاني (المكتبة)
عمان ، وسط البلد ، شارع الملك حسين ، بجانب البنك المركزي ، مكتب المقاصة ، بناية رقم ٣٤.
مكتب بيروت
لبنان ، بيروت ، بئر حسن ، شارع السفارات .
هاتف : ٨٢٤٤٢٠٣ ١ ٩٦١ ٠٠ ، مقسم ١٩
♦
أبو القاسم الشابّي
حياه وشعره
إعداد : يوسف عطا الطريفي
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٩

♦
الغلاف : علي الحسيني ٩٩٧٨٢٢٧٠ ٧ ٩٦٢ ٠٠ ، عمان ، الأردن .
الصف الضوئي : إيمان زكريا – ٠٧٩/٥٣٤٩١٥٦

أبو القاسم الشابّي

حياته وشعره

يوسف عطا الطريفي

مقدمة

عندما شرعت بالكتابة عن أبي القاسم الشابي، كنت أعرف، أن عدداً من الكُتّاب والمؤلفين والباحثين كتبوا عنه، وبجدية عالية، ولكنني عندما راجعت هذه المؤلفات وتمعنت فيها وجدت أن كل واحد تخصص في جانب معين، فبحث فيه واستقصاه قدر استطاعته وإمكانياته، ورأيت حينها أن القارئ بحاجة إلى كتاب يجمع بين دفتيه جوانب متعددة من حياة أبي القاسم وبيئته وشعره والمجتمع الذي عاش فيه، والدراسات التي أجريت حوله والتعرف على آثاره.

لم يعش أبو القاسم الشابي طويلاً، لكنه ترك آثاراً عظيمة من النثر والشعر، فهو أحد الشعراء الثلاثة الذين قضوا قبل الثلاثين، فكان طرفة بن العبد أولهم ثم أبو فراس ثانيهم. وكان آخرهم أبا القاسم الشابي الذي مات عن خمس وعشرين سنة، وقد فاق غيره، حين أبدع وحلق في نزعته الرومانطيقية ربما بحكم سنّه أو بحكم شاعريته، أو بحكم عصره. وقد سار في إبداعه مع طبيعة الشباب المندفع فأصغى إلى قلبه ووجدانه، وعبر عن بيئته وعصره أجمل تعبير.

ورغم قصر مدة حياته، فقد حفل أدبه بألوان من التجارب لم تتح لغيره فأثار النفوس إلى أدبه، سواءً كانت هذه النفوس معه في فلسفته أو كانت ناقدة له، صور من خلال نظرته الأدبية مجتمعه فكان كالآسي يعالج ما أفسد الدهر عليه من حياته، بعد أن اجتمعت في شخصيته صفات الفنان الثائر المتمرد الذي عرف الداء، فقدم الدواء بما أمكنه في حياته القصيرة ووسط بيئة جميلة أخاذة.

فقريته «توزر» أو منطقة الجريد والنخيل، تلفت الأنظار وتستهوي الأفئدة وعاصمة بلاده تونس الخضراء، على ساحل البحر، والقطر التونسي بمجمله كان مقصد

الرحالة والأدباء ومضرب المثل، وصفه القزويني في كتابه «آثار البلاد وأخبار العباد»، وقد أفاض في وصف هوائها وطيب مائها وكثرة خيراتها، وعدد ثمارها، كما وصف شطئانها وأنواع الأسماك فيها ومنه سمك «البقونس» الذي يضرب فيه المثل بقولهم «لولا البقونس لم تخالف أهل تونس...» كما ركز على شجرة الزيتون فيها، ثم عدد واحات تونس وما فيها من خيرات عميمة وقال: «ومياهها ريَّة وفيرة، ترد من ينابيع سائغة يعمل بها فلاحون يسمون بـ «المخمسين» لأنهم حينذاك كانوا يأخذون خمس الإنتاج».

وتاريخ تونس مثله مثل غيره من البلاد العربية من المحيط إلى الخليج، قد أصابه ما أصاب الجسد الكبير من وقوعه تحت الاحتلال أو الاستعمار أو الانتداب من قِبَل العالم الغربي. فقد احتلت فرنسا تونس عام ١٨٨١، ورزحت تحت هذا الاحتلال ردحاً من الزمن، وتعاقب عليه «البايات» فزادوا الظلم على الشعب الذي كان يعاني من ظلم واضطهاد المحتل، حتى أعلن استقلال البلاد سنة ١٩٥٦، وأعلنت الجمهورية وطرد المحتل وخلع آخر «البايات» بعد تلك السيطرة على مقدرات تونس واقتصادها وثقافتها وعلى فكر أبنائها.

وفي هذا الجو المؤلم، ووسط الفساد المستشري، وبين أحضان تلك الطبيعة الخلابة، وتلك المقدرات الكبيرة، وُلد أبو القاسم الشابي حيث بدأت ملامح الشفق تظهر وبزوغ الفجر الجديد يسطع، بتوالد الأفكار الثورية والتحررية لتصنع تونس مستقبلاً زاهراً، يربط الناس بحياة عصرية بعيدة عن الجمود والبدع والخرافات التي سادت فترة الاحتلال. وكان لجامع الزيتونة أثره الكبير والعظيم في إحياء الفكر والتجديد والكفاح لتجسيد روح الحضارة ونفض غبار الظلمة والفساد. فظهرت جمعيات فكرية وأدبية، كان من أهمها «جمعية قدماء الصادقية» وهي جمعية تضم الشبان من خريجي الزيتونة، وكان الشابي واحداً من أعضائها الفاعلين، فألقى المحاضرات والندوات وأبدى رأيه بصراحة ليكون عاملاً قوياً مؤثراً ليوقظ شعبه ومجتمعه من غفلتهم. كما نظم الأشعار ليعبر عما في صدره من شكوى وألم وقدم الحكمة ووصف الطبيعة ووحد بينها وبين الإنسان ليصل بفلسفته إلى عقل مجتمعه ووجدانه.

ولعلني قصدت من هذا الكتاب توضيح جوانب حياة الشاعر أبي القاسم الشابي ودراسته وثقافته ونشأته ورحلاته مع والده في أرجاء تونس ثم مرضه إلى أن وصلت إلى

وفاته، وخلال ذلك بينت المؤثرات في حياته وشخصيته، كما عرجت على فنونه وأغراضه وإلى الصورة الفنية في شعره وفلسفته في حياته، ثم وضحت مذهبه الأدبي، وشاعريته وبينت خصائصه الفنية. ووضعت في الكتاب شرحاً لبعض قصائده لتكون نماذج على فكره وفلسفته.

ثم بينت علاقته مع غيره من أقرانه وأهل عصره من الشعراء والأدباء، ولزيادة الفائدة فقد أثبتت بعض الدراسات الأدبية والمجالات النقدية التي ألفت عنه، وفي نهاية الكتاب أثبت ما استطعت جمعه من أشعاره ورتبتها حسب الترتيب الزمني لنظمها.

وقد اعتمدت في كتابي هذا مراجع متنوعة ومتعددة، لكنني لم أتطرق إلى نثره، لأن عنوان الكتاب خاص بحياته وشعره، مع أنني أوضحت رأيه في مسامرته عن الخيال الشعري عند العرب وما دار حولها من آراء. راجياً أن أكون قد وفقت لما خططت له من إحياء شعر أبي القاسم الشابي، ومعتذراً إذا تبين فيه نقص، داعياً المولى عز وجل أن يكون في هذا الكتاب الفائدة المرجوة والمؤملة للدارسين والباحثين، وأن يكون الكتاب علماً نافعاً، والله ولي التوفيق.

يوسف عطا الطريفي

١١ رمضان ١٤٢٩هـ / ١١ أيلول ٢٠٠٨م

القسم الأول

حياة الشاعر

حياة الشاعر

في قرية الشابية، إحدى ضواحي توزر كبرى بلاد الجريد بالجنوب التونسي، حيث المناظر الخلابة والبلاد الجميلة، وبساتين البرتقال الفواحة ووسط الواحات الشاسعة والمياه الوفيرة والطبيعة الهادئة الحالمة بالآمال العريضة. ولد أبو القاسم بن محمد بن أبي القاسم بن إبراهيم الشابي في شهر آذار (مارس) سنة ١٩٠٩[(١)] من أسرة عريقة ذات مجد عرفت في التاريخ التونسي منذ القرنين العاشر والحادي عشر للهجرة.

وُلد هذا الشاعر بِكْر أبيه الشيخ محمد بن بلقاسم، والذي تخرج من الأزهر وأقام في مصر أوائل القرن العشرين سبع سنوات ثم عاد إلى تونس ليدرس في جامع الزيتونة حتى حاز على «التطويع»[(٢)] وهي شهادة نهاية تحصيله العلمي، ليسمى بعد ذلك قاضياً شرعياً بعد سنة من ولادة ابنه البكر أبي القاسم، حيث استوجبه عمله التنقل بين أماكن متعددة، مصطحباً معه ولده الذي أتيح له التعرف على طبيعة تونس الجميلة وعلى طبائع مختلفة للناس في تونس.

وهكذا بدأت رحلة أبي القاسم مع العلم والمعرفة منذ نعومة أظفاره، فلم ينشأ في مسقط رأسه، وإنما نشأ خارج الشابية، حين ألحقه والده بالمدارس التقليدية «الكُتّاب» وهو في الخامسة من عمره، وقد حرص على تحفيظه القرآن الكريم، ولعل حرصه هذا بأمل أن يكون ولده البكر رجل دين مثله، فأتم حفظ القرآن وهو ابن تسع سنين، وفي عام ١٩٢٠ حين كان في بداية الثانية عشرة من عمره أدخله والده إلى جامع الزيتونة بتونس ليكمل دراسة العلوم الدينية واللغوية فأمضى فيه ما يقارب تسع سنين ليتخرج عام ١٩٢٨ وقد حاز على شهادة «التطويع» مثل والده، وكانت هذه الشهادة من أرفع الشهادات في ذلك الحين. وربما كانت هذه الرحلة في تونس ودراسته في جامع الزيتونة

(١) هذه كانت أقرب الآراء للتاريخ المرجح لمولده. فقد ذهب الكاتب الجزائري ابن أبي شنب إلى أنه وُلد سنة ١٩١٠، وجاء في الأعلام للزركلي أنه وُلد عام ١٩٠٦ثم صحح في الحاشية أنه وُلد عام ١٩٠٩وذهب آخرون أنه وُلد عام ١٩٠٨ أما صديق الشاعر المحقق المشهور الأستاذ محمد الصالح المهيدي فقال أنه في ٣ صفر ١٣٢٧هـ/ ٢٥-٢-١٩٠٩أما أبو القاسم محمد كرّو فيقول إن أسرة الشابي أخبرته بأنه قد يكون حوالي عام ١٣٢٧هجري والموافق ٣/ ٤/ ١٩٠٩.

(٢) إجازة نهاية الدراسة بكلية الزيتونة في عصره.

من المحطات الهامة في حياة الشابي التي تعتبر نقطة تحول هامة في حياته، حيث تم له التعليم العصري ثم الانطلاق والحرية في الاطلاع على النشاطات الأدبية دون قيود أو رقابة. وجد الشابي في نفسه ميلاً إلى الأدب بما يتناسب مع ميوله وأحاسيسه وشعوره، فلم يتجه إلى العمل في القضاء، وإنما اتجه إلى كتب المهجريين كجبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وإيليا أبي ماضي، فتناولها بنهم شديد وتأثر بها كثيراً وهذا ما سوف نلمسه جلياً في شعره، ثم اطلع على ما وقع بين يديه من كتب قديمة مما يعتبر من أمهات الكتب كالأغاني، وصبح الأعشى، ونفح الطيب، والكامل، والأمالي، والعمدة، والمثل السائر، وكتاب الصناعتين وغيرها من النفائس القديمة، كما اطلع على ما طبع من الدواوين قديمها وحديثها.

ثم قرأ ما ترجم من اللغات الأجنبية لأنه كان يجهلها، وقد أعجب بكتب «لامارتين» و«جوتة» كإعجابه بالمعري وابن الفارض، إضافة إلى قراءاته لما كان يصدر من مجلات عربية كالهلال والمقتطف وغيرها.

ومن الجدير بالذكر أن أبا القاسم قد التحق بعد تخرجه من جامع الزيتونة عام ١٩٢٨ بمدرسة الحقوق التونسية، فتخرج سنة ١٩٣٠. وخلال السنوات الثلاث الأخيرة من دراسته أبدى نشاطاً أدبياً واجتماعياً كبيراً، تمثل في ترأسه حركة طلابية تهدف إلى إصلاح مناهج التعليم بما يتناسب وروحه الوطنية كما أسس جمعية «الشبان المسلمين» وساهم في تأسيس «النادي الأدبي» بتونس العاصمة و«نادي الطلاب» بتوزر، فكان عضواً فعالاً في أعمالها.

مؤثرات في حياته

ظهر نبوغ الشابي مبكراً، فحفظ القرآن الكريم وهو ابن تسع سنين وظهر ميله للأدب والشعر في لحظات مبكرة فكانت قصيدته الأولى وهو في سن الرابعة عشرة، حين نظم قصيدة (يا حب) عام ١٩٢٣، وكانت أول نشراته في صفحة «النهضة» الأدبية عام ١٩٢٦. ثم ظهر شعره في السنة التاليةولكن إذا سر ّ ه الدهر يوماً، فقد كدره القدر أياماً، فكانت فاجعته الأولى بموت حبيبته في أول شبابه، قبل أن يبلغ العشرين من عمره، فأذكى موتها في نفسه الأسى والنقمة من حوادث الدهر، وظل يذكر هذا الحب مدة طويلة، حتى حمل نفسه على نسيانه. ويرى «زين العابدين السنوسي» أن حبه لهذه الفتاة

كان حباً عذرياً، قبل أن يأتي إلى تونس العاصمة، فخلفت له بوفاتها حزناً شديداً ومرضاً أنطقه شعراً كثيراً، كما علق «محمد الحليوي» على هذا الحب المبكر، ومن ضمن ما قاله: «أن هاته الفتاة هي التي تحدث عنها في أوائل شعره حديثاً ساذجاً ونظم فيها أولى قصائده.. ومن المؤكد عندي أن الشابي لم تكن له حياة قلبية غير تلك الفتاة التي أحبها وهو في سن الخامسة عشرة»[(١)].

وربما كانت هذه الفتاة هي التي كان يلقاها ويتفسح معها في بعض المتنزهات، حيث يقول فيها:

أيهـــا الحـــب أنـــت سر بلائـــي وهمـــومي وروعتـــي وعنـــائي
ونحـــولي وأدمعـــي وعـــذابي وســـقامي ولـــوعتي وشـــقائي

وستجد القصيدة كاملة بين أشعاره في نهاية الكتاب.

كان الموت من أهم تجارب الشابي في حياته، ففي بواكيره فجعه حين نفذ إليه بحبيبته التي ماتت وهي برعم لم يتفتح بعد على الحياة، ماتت وهو يشتاق إلى التمتع بظلها، فتفجرت في حناياه بواعث الموت، وانطوى قلبه أسىً عليها، فخلف عنده الفراغ والظلام والاكتئاب، وليست هذه تجربة سهلة في حياة الشابي، فهو ما زال يافعاً حساساً وقلبه مفعم بالطموحات لمستقبل كان يأمل أن يعيش ليراه، وما أظن هذه التجربة إلا كمثل تجربة الشاعر محمد مهدي الجواهري، عندما أحب وهو صغير فتاته حين نزل أهله على أطراف الكوفة مصطافين، أو كتجربة إبراهيم طوقان حين أحب فتاة «كفر كنا» وإن كان أكبر سناً، أو تجربة السياب، فهي تجارب يمر بها الشاب أو اليافع ولكن لها أثر كبير في نفسية الشاعر أكثر من غيره، ولذلك طفق الشابي يتبرم لهذه الثنائية فقال:

بـــالأمس قـــد كانـــت حيـــاتي كالســـماء الباســـمة
واليـــوم قـــد أمســـت كـــأعماق الكهـــوف الواجمـــة
قـــد كـــان لي مـــا بـــين أحلامـــي الجميلـــة جـــدول
يجـــري بهـــا مـــاء المحبـــة طـــاهراً بتسلســـل
هـــو جـــدول قـــد فجـــرت ينبوعـــه في مهجتـــي

(١) الشابي شاعر الحب والحياة، عمر فروخ، ص٩٦.

أجفـــان فاتنـــة ارتئيهـــا الحيـــاة لشـــقوتي
أجفـــان فاتنـــة تـــراءت لي عـــلى فجـــر الشـــباب
كعروســة مـــن غانيـــات الشـــعر في شـــفق الســحاب
ثـــم اختفـــت خلـــف الســـحاب وراء هاتيـــك الغيـــوم
حيـــث العـــذارى الخالـــدات يمســـن مـــا بـــين النجـــوم
ثـــــم اختفـــــت آواه ! طـــائرة بأجنحـــة المنـــون
نحـــو الســـماء وهـــا أنـــا في الأرض تمثـــال الشـــجون

ولو لم تكن هذه الأبيات أمامنا لقلنا بأن الشاعر الفتى يفكر بصوت مسموع أو يحلم أحلام يقظة يحدث نفسه عن فتاته التي عشقها وأحبها لكنها كانت محنة اضطر أهله أن يزوجوه علّه ينسى أو ينشغل عن حبه الذي أورثه أول حزن في حياته. ومع ذلك فقد قبل هذا الزواج وفي سن مبكرة على عادة أهل جنوب تونس الذين كانوا يرغبون بتزويج أبنائهم صغاراً، أو لنقل هكذا كان تفكير والده الشيخ ليبقى نسله على الأرض أو لعل الابن البكر يسلو آلامه وعذاباته.

ثم جاءت الرزيّة الثانية، قبل أن تستريح نفسه من العناء الأول بفقد أبيه، وتتحول تبعات العائلة على عاتقه ويصبح مسؤولاً عن أسرة وهو ما زال في سن مبكرة. فاعتلّت صحته وانتفخ قلبه، وصار ينتقل من طبيب إلى آخر، ولكن عبثاً.

مرض الشابي

كان مرض الشابي يشكل أكبر مأساة له، ويبدو أنه كان يعلم بمرضه لكن أعراض الداء لم تظهر واضحة إلا عام ١٩٢٩، فكان منذ بداية عمره عليلاً ضعيف البنية نحيلاً، لكن علّته لم تظهر آثارها إلا في السنوات الست الأخيرة من حياته، تلك التي كانت ذروة إنتاجه الأدبي.

وعندما عرض عليه والده الزواج لم يجد بدّاً من مراجعة الطبيب واستشارته فذهب بصحبة صديقه زين العابدين السنوسي إلى الدكتور محمود الماطري فوصف الطبيب له حقيقة مرضه، وحذّره من عواقب الإجهاد الفكري والبدني، حيث كان الشابي يشكو من انتفاخ في قلبه، وكانت حالة الشابي تزدد سوءاً يوماً بعد يوم، بسبب تقادم المرض عليه، وضعف بنيته، ثم بسبب تقلب أحوال حياته. أضف إلى ذلك إهماله لنصائح الأطباء

باستثناء ترك النشاطات البدنية كالجري والقفز وتسلق الجبال وهذا ما صرح به الشابي نفسه في إحدى يومياته ١٩٣٠ حين كان يعبر بعض الضواحي: «ها هنا صبية يلعبون بين الحقول، وهناك طائفة من الشباب الزيتوني والمدرسي يرتاضون في الهواء الطلق والسهل الجميل ومن لي بأن أكون مثلهم؟ ولكن أنّى لي ذلك، والطبيب يحذّر» علي ذلك لأن بقلبي ضعفاً ! آه ! يا قلبي ! أنت مبعث آلامي ومستودع أحزاني، وأنت ظلمة الأسى التي تطغى على حياتي المعنوية والخارجية»[١]. وهذا القول من الشابي يعني أنه كان على علم بمرض قلبه وكان يتألم من ذلك كثيراً. ثم وصف الدكتور محمد فريد غازي مرض الشابي فقال: «إن صدقنا أطباؤه، قلنا إن الشابي كان يألم من ضيق الأذينة القلبية أي أن دوران دمه الرئوي لم يكن كافياً... ولعل الشابي أصيب بهذا الضيق وهو صغير السن، ضاق قلبه، وضاقت رئته، فلم يعد يتنفس تنفساً عادياً»وهذا أيضاً ردّ على من تخيل أن مرض الشابي كان «مرض السل» أو قال إنه كان مصدوراً. وقد شعر الشابي بآثار المرض حين وضح في يومياته ذلك بقوله: «أشعر اليوم - ١٤/ ١/ ١٩٣٠ -بفتور في بدني، وتوعّك في مزاجي لا أدري مأتاه»[٢].

لقد أشرف على علاج الشابي عدد من الأطباء وكان منهم الطبيب التونسي الدكتور محمود الماطري الذي ذكرناه سابقاً والطبيب الفرنسي الدكتور «كالو» ولمدة طويلة وأثبتت سيرته المرضية عندهما، وكان إجماع الأطباء له العيش في مناطق معتدلة ومناطق جبلية، ولذلك وجد نفسه مضطراً إلى التنقل بين مصايف تونس ومشاتيها، وقد ذكر محمد الأمين الشابي شقيق الشاعر أن أخاه لم يكن يغادر توزر بعد زواجه واشتداد أعراض مرضه إلا في الصيف لزيارة المصايف الجبلية. ونقل أيضاً صديقه زين العابدين السنوسي عن محمد الأمين الشابي أن نوبة أصابت أبا القاسم في عام ١٩٣٠ فقال «كان يعتلج من ضائقة صدرية من ذات القلب فزعت لها أمه وزوجه وأخواه عندما كان أبو القاسم (يخزر) [٣] لهم بعينين لا ترجوان معونة من أحد، إلا من قلبه لو استعاد اتزانه... نوبة دامت ساعتين يقلّب في أثنائها وجهه ولا ينبس إلا بقطرات من العرق... ونحن نشرئب لنغيثه بشيء يطلبه، ولا ندري ما هو، ساعتين من هذا الفزع الجهيد تقريباً... ثم هجعت النوبة ... ثم

---

(١) الشابي، شاعر الحب والحياة، د. عمر فروخ.
(٢) مذكرات الشابي، ٥٥.
(٣) يفتح عينه ويغمضها بشكل كأنه يرى بمؤخرة عينه.

تكلم منشرحاً صوته انشراح من حطّ وزره، ونزع الحمل الجهيد وبادرنا للاستجابة لأمره مغتبطين.

- أعطني ورقاً، والقلم من جيب فرملتي[١]، فأخذ يكتب حالاً أذكرها الآن:

ــا إلــه الوجــود، هــذي جــراحٌ   في فـؤادي تشـكو إليـك الـدواهي»[٢]

قضى الشابي صيف عام ١٩٣٢ في (عين دراهم) مستشفياً برفقة أخيه محمد الأمين ويبدو أنه زار آنذاك بلدة طبرقة برغم ما كان يعانيه من آلام، وبعد عام، اصطاف في المشروحة إحدى ضواحي قسنطينة من أرض الجزائر، ومع حلول الخريف عاد إلى توزر لقضاء الشتاء فيها. وقد كانت تنقلاته كثيرة فمن بلاد الجريد إلى زغوان، ومن عين دراهم إلى المشروحة، واستمر في ذلك ثلاث سنوات يعيش بين أشجار تونس وأنهارها، «يتغنى مع الأطيار بحبه ويناجي النجوم بأمانيه، ويحنو على الورود والأزهار، ويطرب لخرير المياه وحفيف الأغصان، وفي هذه الفترة أخرج الشابي أجمل قصائده الخالدة في وصف الطبيعة والجمال، وسحر الوجود وحب الحياة»[٣].

ورغم هذا التنقل بين هذه الأشجار وتلك الأنهار، فقد ساءت حاله واشتدت آلامه وخاصة في أواخر عام ١٩٣٣فاضطر إلى ملازمة الفراش حتى مرّ الشتاء ببرده، وحلّ الربيع بزهره، فانتقل إلى (حامة توزر) وهو مكان فيه ماء حار يستشفي به المرضى، طالباً الراحة والشفاء.

وفي شهر آب عام ١٩٣٤ غادر الشابي توزر إلى العاصمة، وزار خلال إقامته في أحد أماكن الاستجمام شرق المدينة (حمام الأنف) ثم نصحه الأطباء بالانتقال إلى (أريانا) وهي ضاحية تقع على نحو خمس كيلومترات إلى الشمال الشرقي من العاصمة وهي موصوفة بجفاف الهواء، ولكن حال الشابي ما زالت تزيد سوءاً، وقد وصف محمد الفاضل بن عاشور ما آلت إليه صحة الشابي فقال: «وتداعى كيانه الجسمي بطول الاحتباس، واستفحال الألم الباطني، فإذا جراثيم السلّ تهجم فتستقر بكلتا رئتيه، وإذا شبح الموت

(١) الفرملة: صدرة أو ثوب يلبس على القسم الأعلى من الجسم، وفي تونس يلبسونه تحت الجبة.
(٢) الشابي، شاعر الحب والحياة، د. عمر فروخ.
(٣) الشبي، أبو القاسم محمد كرّو.

منتصب أمامه» والحقيقة وإن قالها السيد محمد فاضل فلم أعثر على «جراثيم السل» في موضع آخر، وقد سقنا ما قاله الطبيب المعالج بأنه كان مريضاً بانتفاخ القلب وهو الأرجح.

ومع أن الشابي قد أنهكه المرض وأعياه السقم، فقد استمر في إرهاق نفسه، فاشتد به الداء، ونال من العذاب والشقاء أكثر من أي وقت مضى، فأمطر البشرية بسيل جارف من تبرمه وسخطه، حتى بدأ يناشد الموت أن يريحه من هذا الشقاء وطلع علينا بقصائده: «في ظل وادي الموت»، و«زوبعة في الظلام»، و«الجنة الضائعة»، و«قال قلبي للإله»، وغيرها من القصائد، كما عزف «أغاني الرعاة» و«إرادة الحياة» و«قلب الأم»، و«أراك» بهذه القصائد وغيرها، سكب الشاعر فيها عصارة روحه، وعزف للإنسانية على أوتار قلبه المكلوم أشدلألحان وأمرّها. ولكن هل ترد هذه القصائد وتلك المعزوفات قضاءه النافذ أو قدره العاتي؟ لقد نقل بعد هذه الآلام إلى المستشفى الإيطالي بالعاصمة تونس في التاسع من أكتوبر (تشرين الأول) من عام ١٩٣٤، في الساعة الرابعة من صباح يوم الاثنين لليوم الأول من رجب سنة ١٣٥٣هـ لتذوب أنفاس الشاعر الأخيرة، وتتلاشى أنغام الحب والجمال، وتغيب ألحان السحر والخيال، وتصعد روح الشاعر إلى عالم البقاء والخلود، ثم ينقل جثمانه في أصيل ذلك اليوم إلى توزر، إلى مسقط رأسه ويدفن ببلدة «الشابية» في مقبرة أسلافه.

تألفت بعد ذلك لجنة أقامت على قبرالشابي بناءً لائقاً به، أقيمت حوله روضة صغيرة، واحتفل الأدباء والشعراء حول الضريح يوم الجمعة السابع عشر من شهر أيار عام ألف وتسعماية وستة وأربعين، وقد تسابق المحتفون بتمجيد مآثره وذكر مزاياه مقدرين شاعريته ونبوغه. هذا وقد أثبت الدكتور عمر فروخ إحصائية في بعض جوانب تكريم الشاعر بعد موته وعدّدها ومنها:

- حفلة الأربعين في تونس الحاضرة في ١٣/ ١١/ ١٩٣٤.
- عدد خاص من مجلة «العالم العربي» لزين العابدين السنوسي، هو العدد الرابع الصادر في ٢٤/ ١٢/ ١٩٣٤، وكان خاصاً بما ألقي في حفلة الأربعين.
- حفلة للذكرى الثالثة أقامتها الرابطة القلمية في تونس.
- عدد خاص من مجلة الأفكار التونسية، ١٩٣٦.
- عدد خاص من مجلة الإمام (الإسكندرية ١٩٣٦).

- عدد خاص من مجلة المكشوف بيروت بمناسبة الذكرى الثالثة لوفاته.
- عدد خاص من مجلة الأسبوع (تونس) خاص بالذكرى الثامنة عشرة.
- عدد خاص من مجلة الندوة (تونس) خاص بالذكرى التاسعة عشرة.
- عدد خاص من مجلة الزيتونة (تونس) خاص بالذكرى العشرين.
- عدد من المقالات في مجلة الفكر (تونس) ١٩٥٦.
- إصدار الأستاذ زين العابدين السنوسي كتاباً اسمه «أبو القاسم الشابي - حياته - أدبه» بمناسبة مرور ثلث قرن على وفاته ١٩٦٥.
- إحياء ذكرى ولادة الشابي ١٩٥٩ بإقامة مهرجان في تونس.
- إلقاء الأستاذ الشاذلي بو يحيى ١٩٥٩ محاضرة في جمعية قدماء الصادقية بعنوان «أبو القاسم الشابي والشاعرية الحق».
- محاضرة للأستاذ الشاعر مصطفى البحري في ١٢/١٢/١٩٥٩ بعنوان «الشعر في شعر الشابي».
- إصدار مجلة الفكر بتونس عدداً من المقالات عن الشابي سمته «أضواء على أبي القاسم الشابي بمناسبة مرور خمسين سنة على ولادته» كانون الأول ١٩٥٩.

بيئة الشاعر

الشيخ محمد الشابي والد أبي القاسم هو عميد أسرة الشابية في تونس، وقد كان لعائلة الشابي مكانة مرموقة، ذات مجد لامع في تاريخ تونس العلمي والسياسي، وخاصة في منطقة الجريد جنوب غرب تونس، التي اشتهر أهلها بالذكاء والفطنة والإقبال على العلوم والمعارف بشتى أنواعها.

وُلد الشيخ محمد بن بلقاسم الشابي والد الشاعر نحو عام ١٢٩٦هـ ١٨٧٩ ميلادي، وبعد أن أتم تحصيله العلمي المتاح في مسقط رأسه هاجر إلى مصر سنة ١٩٠١ يكمل دراسته في الأزهر الشريف، حيث بقي فيه سبعة أعوام ينهل من علومه، وتشرّب مبادئ الإصلاح على يد الإمام محمد عبده. وتأثر بأفكار الشيخ جمال الدين الأفغاني. ثم عاد إلى تونس عام ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م وانتسب إلى كلية الزيتونة لمدة سنتين حيث نال جائزة «التطويع» وأثناء دراسته في الزيتونة، تزوج الشيخ وأنجب ابنه البكر أبا القاسم أثناء دراسته في سنة ١٩٠٩، تخرج بعدها من جامع الزيتونة، وعينّ قاضياً شرعياً ببلدة (سليانة) عام ١٩١٠ ثم نقل إلى (قفصة) عام ١٩١١، ومنها نقل إلى (قابس) في بداية عام ١٩١٤ حيث بقي فيها ثلاث سنوات، ثم نقل إلى (تالة) في أيار عام ١٩١٧، بعدها نقل إلى (مجاز الباب) بقي فيها ست سنوات، بعد ذلك نقل إلى بلدة (رأس الجبل) عام ١٩٢٤، ثم انتهى به المطاف إلى مدينة (زغوان) الجبلية عام ١٩٢٧.

وقد عرف الشيخ بصدقه وقوة عقيدته، وغيرته على الدين، وانفعاله لما يجري حوله من أحداث في المغرب العربي وطرابلس الغرب وبلاد الريف أثناء غزو الطليان لليبيا وتعاطفه مع عبدالكريم الخطابي في شمال مراكش. وكان يقضي وقته بين المحكمة والمسجد والمنزل وسط أهله.

نشأ أبو القاسم وسط هذه العائلة الصغيرة متنقلاً حيث تنقل والده فكان يقتبس من علوم والده وآدابه طوال هذه الرحلة العملية والتي استمرت نحو عشرين عاماً بين مشاهد الطبيعة والواحات الخضراء الجميلة، وبين عادات وتقاليد متنوعة. وهذا ما يذكره الشاعر في كتاباته، حيث أهدى أول مطبوعة له (الخيال الشعري عند العرب) إلى والده بعبارات مختصرة جميلة قال فيها: «إلى حضرة الوالد الكريم الشيخ سيدي محمد بن بلقاسم

الشابي الذي رباني صغيراً وثقفني كبيراً، وأفهمني معاني الرحمة والحنان، وعلمني أن الحق خير ما في هذا العالم، وأقدس ما في هذا الوجود، أتقدم بهذه الصفحات التي هي أول عمل أخرجته للناس، وأنا أرجو أن أكون قد توخيت فيه صراحة الصدق وجمال الحقيقة».

وهذا الإهداء من الشاعر لوالده يبين بوضوح أثر الوالد الشيخ على ابنه الشاعر، وقد عرف عن الشيخ أنه لا يخاف في الله لومة لائم، فقد ربى ولده وعلّمه وأدّبه وثقفه على صراحة القول وجمال التعبير، فكان الشابي رائداً من رواد الإصلاح في التعليم، وقد تحدث عن هذا الأستاذ محمد الصالح المهيدي وكان معاصراً لحركة طلاب الزيتونة وزميلاً للشاعر فقال: «... لما قام الطلبة يطالبون بالإصلاح الزيتوني، كان الشابي أول رئيس للجنة الطلبة التي عقدت جلستها الأولى في ٥ رجب سنة ١٣٤٧هـ وهو الذي وضع أول برنامج عمل للمطالبة بالإصلاح، وما زلت أذكر الليلة الأخيرة من شهر ديسمبر (كانون الأول) عام ١٩٢٨ تلك الليلة التي واصلت فيها لجنة الطلبة العمل إلى الصباح، وذلك إثر إلقاء القبض على بعض الطلبة الذين اتهموا بالتحريض على الاغتصاب، وما أبداه الشابي من الثبات في الموقف والشجاعة المتناهية.

ولما وجهت لجنة الطلبة منشوراً إلى رجال الفكر والرأي المصيب بالقطر التونسي تطلب منهم إمدادها برأيهم في الإصلاح. كان أول جواب تلقته من والد أبي القاسم الذي حرر تقريراً إضافياً احتوى على نحو عشرين صفحة، ضمنه آراءه في الإصلاح، أردفه بمكتوب لطيف يعتذر فيه عن التقصير لكثرة أشغاله حيث كان قاضياً على زغوان»[1].

وهذا يدل أيضاً على أن الشابي قد تأثر بحياة والده الوطنية والسياسية والأدبية عندما كان يتطوف معه بين مدن تونس أثناء عمله قاضياً، ويظهر هذا أن الشيخ كان يشجع ابنه على ذلك مؤثراً فيه بشكل كبير.

وفي أواسط عام ١٩٢٩ مرض الشيخ الوالد، ورغب بالعودة إلى بلدته ومسقط رأسه، فرافقه ولده الذي سهر عليه في أيامه الأخيرة وفي ساعات احتضاره، وقد شاهد والده وهو يتألم آلامه الأخيرة التي عصرت قلب الشاعر وخياله ودموعه، فقد تحدث عن

---

(١) أبو القاسم محمد كرو، الشابي حياته وشعره عن مجلة الأفكار التونسية ١/ ١٢/ ١٩٣٦.

هذه المشاهد بألم دام وحسرة، كما تحدث عن هذه اللحظات حتى بعد موت والده، وقد وضّح ذلك في رسالة أرسلها لصديقه الأستاذ محمد الحليوي مليئة باللوعة والتفجع فقال:

أخي الفاضل:

تحية وشكراً

وبعد، فإنني أود أن أحدثك وأناجيك، وأصبو لأن أرافقك وأماشيك في تلك السبل التي جال فيها يراعك، ولكن بماذا؟ أبهذا القلب الذي كسرته صخور الحياة؟ أم بهذه النفس التي مزقتها أعاصير الوجود؟ أم بهذا الفكر الواهن المخبول؟ أم بهذا الوجدان التائه في شعاب الغد الغامض المريب؟

والرسالة طويلة تعبر عن أوجاع وآلام الشاعر، فقد بدأها بالتقدير والاحترام ثم بعدد من الأسئلة فيها وجع وأعاصير وخمول وتوقع للغد ثم ينتقل إلى الآهات وأهوال الحياة وإلى القدر الذي يعبث بالبشر ثم إلى ضيق الشاعر بالحياة محاولاً أن يبين لصاحبه مقدار ألمه وهمومه ثم يشرح حالة أبيه الذي علا الشحوب وجهه بسبب المرض بعد أن عهده قوياً متماسكاً وهو الآن ضعيف خائر القوى أمام أنات القهر، متمنياً على صديقه أن يدعو الله وأن يصلي له بأن لا يفجعه بوالده وان يشفيه من أسقامه بروح مؤمنة بالله وبقدره، وفي نهاية الرسالة الطويلة والتي بإمكان القارئ أن يعود إليها في كتاب المحقق الأستاذ أبو القاسم محمد كرّو (الشابي حياته وشعره) ص٦٦-٧٠ عاد الشاعر يغني أغنية الحيرة والحنين فقال:

يا بني أمي ترى أين الصباح ... قد تولى العمر والفجر بعيد
وطغى الوادي بمشبوب النواح ... وانقضت أنشودة الفصل السعيد
أين نايي هل ترامته الرياح ... أين غابي أين محراب السجود
يا بنات الليل، قد غاض الصداح ... منذ طاشت نشوة العيش الحميد
يا بني أمي ترى أين الصباح ... وراء البحر أم خلف الوجود
يا بني أمي ترى أين الصباح

وإن بدا الشاعر في رسالته أسيفاً ضعيفاً، إلا أن بحثه عن الصباح فيه أمل، ومع أنه سوف يبقى ناثراً في الحقول الجرداء العارية بذور الأسى إلا أنه ينتظر الصباح ليرى تفتح الأكمام عن الورود الجميلة، ويسمع تغريد البلبل وراء الزهور وإن كانت

إن الـــــــدهور البـــــــواكي غنيـــــة عــــن دمــــوعي

فراحة الليل مليئة بالدموع، وكان الشاعر يتمنى لو يسمع صديقه أغاني المسرة بدلاً من الألحان المؤلمة ولكن ماذا يصنع أمام المريض الذي لا يخرج منه إلا الأنين والجرح لا يرشح بغير الدماء، ويظهر الشاعر في نهاية رسالته شاكياً متبرماً بائساً متشائماً حين يقول: «أما الغاب وأسراره والجبل وأصداؤه والشحرور وألحانه العذبة الحبيبة، فإن عهدي بها بعيد، وأن تلك السعادة الإلهية الطاهرة وتلك المباهج والمناظر والأغاني لا تنعم بها إلا الأبصار الطافحة بالأشعة المكحولة بالبسمات، أما الأجفان التي قرحها الدمع وأذواها الألم فإنها قصية عن تلك المناظر، منفية في سجون الحياة».

فالتضرعات ترد الأقدار، ولا ترحم الصغار ولا توقف كلوم الكبار، فقد انتقلت روح الشيخ الوالد إلى السماء في ٨/ ٩/ ١٩٢٩ وتجرع الشاعر غصص المتاعب، ولم يكن بعد قد دخل تجربة الحياة، وهذا الذي زاد محنة الشاعر وضاعف من عذابه، وهذا ما جعل الشاعر يتخيل دائماً روح والده حائمة حوله كل ليلة، وفي ليلة ١٢/ ١/ ١٩٣٠ خلا إلى نفسه ليبين كم هي المصيبة كبيرة وآثارها عليه واضحة، فقد حضر طيف أبيه فسطر يقول: «ليس لدي ما أكتبه اليوم عن نهاري هذا، ولعلي خير لي أن أذهب إلى فراشي وأنام لأنسى ما في عالم الأحلام... وسأرى أبي. آه ! نعم ذلك الأب الذي قد شق له الناس قبره وسووا التراب عليه وبقيت بعده في الحياة آلم وألذ وأُسرُّ وأحزن! أجل سأراه كما قد رأيته فيلياليَّ الخالية حينما ينطفئ السراج ويشمل الغرفة ظلام الدجى...».

وإنني وأنا أكتب هذه العبارات وغيرها من النثر، أرى الشاعر يرثي والده بل يندبه ويتحسر ويتألم، فهل رثاه شعراً؟

يقول بعض النقاد إنهم لم يجدوا رثاءً في شعر الشابي، ولم يرث أحداً، لأنه وصف في ذكرياته حبه الميت، وهي كثيرة، غير أنني مع الأستاذ أبي القاسم محمد كرّو، فقد تبين أنه رثى والده بقصيدة واحدة بعنوان «يا موت» فور وفاة والده ودفنه، وإن كانت القصيدة متواضعة في فنها وشعورها، وهي أقرب إلى النواح وقد مهد لها بقوله: «هي صرخة من صرخات نفسي المملوءة بالأحزان والذكريات، وشظية من شظايا هذا القلب المحطم على صخور الحياة، قلتها في أيام الأسى التي نكبتني بوفاة الوالد رحمه الله».

والآن نقتطف منها بعض الأبيات، لنثبتها كاملة مع أشعاره.

يـا مـوت ! قـد مزقـت صـدري وقصـمت بـالأرزاء ظهـري
ـــي مـــن حـــالق ، وســـخرت منـــي أيّ سُـــخر
بثـت مرضـوض الفـؤاد، أجـرّ أجنحتـي بـذعر ...
ـــوت إذ أبقيتنـــي في الكـــون أذرعُ كـــلّ وَعْـــر
جعتنـــي فـــيمن أحـــب ، ومـــن إليـــه أبـــث سرّي
ـــده فجـــري الجميـــل ، إذا ادلهـــمّ عـــليّ دهـــري
وأعـــده وردي ومزمـــاري وكاســـاتي وخمـــري
وأعـــده غـــابي ومحـــرابي وأغنيتـــي وفجـــري ...

عجيب ما قاله البعض: إن الشاعر لم يرث أحداً، أليس هذا بوح للنفس وهو يخاطب الموت، صحيح أن القصيدة ندب ونوح وصرخة، أوَليس كل هذا الألم فاجعة في الرثاء، ومن كان يعني بأبياته، فالحزن يزداد تدرجاً مع القصيدة باندفاع الأسى في مشهد كبير أقفرت فيه عرصات صدره، ومشى مطرقاً لثقل الأفكار، ومثلت نفسه الدنيا وينتظر هو نفسه دوره، وها هو يجالد الحياة ليضمن لأسرته عيشاً هادئاً في حياة الكفاف، لأنه لم يلج باب الارتزاق من المناصب الحكومية وهذا ما عناه البعض حين قالوا: «كنا نرى في نفسه الزكية مثال القناعة في أفضل ألوانها والطموح على خير وجوهه».

والشاعر مثل غيره من البشر، فربما تزاحمت الهموم، لكنه يعيش في عالم زاخر بالألحان والأضواء والمرح والسرور، وها هو يقول:

مـا كنـت أحسـب بعـد موتـك يـا أبي ... ومشـــاعري عميـــاء بـــالأحزان
أني ســـأظمأ للحيـــاة وأحتسيـــ ... ـــن كأســـها التـــوهج النشـــوان
وأعـــود للـــدنيا بقلـــب خـــافق ... للحـــب والأفـــراح والألحـــان
ولكـل مـا في الكـون مـن صـور المنـى ... وغرائـــب الأهـــواء والأشـــجان
فـــإذا أنـــا طفـــل الحيـــاة المنتشيـــ ... شـــوقاً إلى الأضـــواء والألـــوان
إن ابـــن آدم في قـــرارة نفســـه ... عبـــد الحيـــاة الصـــادق الإيـــمان

أثر الأدب المهجري في شعر الشابي

أعجب الشابي بشعراء المهجر أمثال جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وإيليا أبو ماضي، وقد ظهر أثر هؤلاء المهجريين في تفكير الشابي وأدبه، منذ دراسته الأولى، فقد أكثر من قراءة أدبهم وحفظ أشعارهم وربما كان إعجابه نابع من ترسم صور وجدانية وفكرية لهذه الآداب في حداثة سنّه، وكأنه طبع على ذلك وهو دون الخامسة عشرة من عمره، فتزاحمت العمليات الذهنية عنده، ولذلك نراه يجيد في تصوير ألوان رائعة من الخيالات والأحلام، فقلدهم في آدابهم وفي سلوكياتهم وربما فاق الشابي على رأي أبي القاسم محمد كر ّ و من تأثر بهم حيث يقول: «غير أن الشابي كان أعمق من جبران واصدق تصويراً»[1].

ومن المعروف أن الأدب المهجري له ميزات كثيرة، ومنها أنه يمتاز بتبرمه الناعم وثورته الجامحة، وصوفيته الحالمة، وقد يصل إلى مثالية مجنحة في الحب والحياة والآمال، وهذه الأفكار ربما قد جذبت نفس الشابي في بداياته أو كما يسميها الأستاذ «محملكر ّ و» في طوره الأول وهو يرى حال تونس حين كانت ترزح تحت وطأة الفقر والظلم. وليعيش من أجل بلده، راح يحث شعبه على الرقي والنهوض، وهنا نرى الشابي يلجأ إلى الطبيعة وسحرها حيث أسمعته أغانيها الحلوة، وكشفت له عن مواطن الجمال، وأسكرته برحيق الأزهار، فهام بحب الحياة، فرتل أغانيها بوجدانياته الساحرة وردد أنغامها، فجاءت أشعاره أناشيد ساحرة خالدة.

غير أننا نجده في الوقت نفسه في شعره السياسي متشائماً مع آلامه وكانت كما وصف أبو القاسم محمد كرو «إلا آلام شعب كامل وجراح أمة بأسرها» كما ذهب إلى ذلك أيضاً محسن بن حميدة «الشاعر الذي كان يعيش مأساة شعبه ويحاول أن يبعث في شعبه روح الثورة على الموت والإيمان الصادق بانتصار الحياة» أما الشاذلي بو يحيى فكان تقديره للموقف «شاعر تونس في فترة من حياتها، هي تلك الفترة التي عاشها، فكان صوت تونس في أنينها وندائها وفخرها، فهو شاعرها بلا منازع».

---

(١) الشابي، عمر فروخ، ص١٣٠.

وعلى كل حال فإن الشابي، صدق مع نفسه حين وصف حال الشعب في فترة حياته القصيرة، ولا ندري لو طالت له الحياة ماذا سيكون بعدها ولذلك أسمعنا «إرادة الحياة» وانطلقت معها أهازيج تثور على قيود الآسر متأهبة لخوض معركة حاسمة مع تلك القيود الظالمة. فكانت أشعاره تتقد وتثير مسالك الحياة إلى الثائرين والناقمين والطامحين لبناء مجد فتي وأدب خالد.

ونجد إلى جانب هذا أيضاً عوامل أخرى مؤثرة في أدب الشابي، كالأدب المترجم عن الآداب الغربية أو تأثره بالعقاد أو طه حسين أو تأثره بالأدب العربي القديم. وقد أعجب بـ «جوتة» الألماني و«لامارتين» الفرنسي وهذا ما حمله على الغلو في إنكار «الخيال الشعري عند العرب»، وهذا أيضاً ربما تأتى من تأثره بالدكتور طه حسين في التفكير والأسلوب. مما يقودنا إلى التعرف على ما جاء في «الخيال الشعري عند العرب».

الخيال الشعري عند العرب

صدّر أبو القاسم كتابه بإهداء لوالده الشيخ محمد بن بلقاسم الشابي معترفاً له بجميل التربية صغيراً وتثقيفه له كبيراً، وإفهامه معاني الرحمة والحنان وتعليمه الحق في هذا العالم، متوخياً في كتابه صراحة الصدق وجمال الحقيقة.

وتلا هذا الإهداء كلمة المؤلف وهو نفسه حيث أنه اعتبرها مسامرة ألقاها في قاعة «الخلدونية» في العشرين من شعبان ١٣٤٨هـ ١٩٢٩م) وقدمها للطباعة دون تنقيح، ثم جاءت مقدمة الأستاذ زين العابدين السنوسي وهو صديق الشاعر وقد تحدث فيها عن نهضة أدبية في أواخر القرن التاسع عشر، وجاءت هذه المقدمة في نحو سبع صفحات تحدث فيها عن الكتاب ثم عالج قضية النقاد الذين تعرضوا إلى الأدب القديم وأخيراً تحدث عن المحاضرة التي ألقاها أبو القاسم والتي أطلق عليها «المسامرة لأول مرة» والتي ظهرت فيها جرأة أبي القاسم الذي كان أول خطيب يُسمع تونس مثل هذه اللهجة - الجرأة - على منبر عمومي تحضره طبقات مختلفة من الثقافات والمدارك المتباينة وصارح الحضور بنقد الأدب العربي.

وكان الفصل الأول من الكتاب عن الخيال. نشأته في الفكر البشري وانقسامه، وقد ذكر صاحب الكتاب أنه تلبية لطلب من جمعية قدماء الصادقية، وقد صادف من نفسه هوى نازعته إليه، ومما جاء فيه رأيه في الخيال فتحدث عن ثلاث نقاط:

أولاها: كان الخيال للإنسان ضرورياً كالنور والهواء والماء والسماء، ضروري لروح الإنسان ولقلبه ولعقله ولشعوره وان هذا الخيال نشأ في النفس بحكم هذا العالم الذي عاش فيه الإنسان وبدافع الطبع والغريزة وما دام هو كذلك فهو حي خالد.

أما **الثانية**: تحدث فيها عن الخيال عند الإنسان الأول واستعمالاته، بعيداً عن المجاز. وضرب لذلك أمثلة كقولهم: «ماتت الريح» أو «أقبل الليل» ووضح كلامه عن هذه المسألة بأن الإنسان الأول كان يعتقد أن الريح ماتت فعلاً وأن الليل قد أقبل حقاً بألف قدم وألف جناح وهذا ما جاء في أساطير الأولين بأنهم كانوا يؤمنون بألوهية الريح والليل.

أما **النقطة الثالثة**: فقد قسم فيها الخيال إلى قسمين:

قسم اتخذه الإنسان ليتفهم به مظاهر الكون وتعابير الحياة، وقسم اتخذه لإظهار ما في نفسه من معنى، ومن هذا القسم تولد قسم آخر ولدته الحضارة في النفوس وارتقاء الإنسان وهذا ما سماه الخيال اللفظي الذي يراد به تجميل العبارة. لكن القسم الأول في رأيه هو الأقدم نشوءاً في النفس.

وقد وضح رأيه بأن الإنسان شاعر بطبعه لأنه يهتاج عند المنظر الساحر والمشهد الخلاب، وإن كان ذلك يتفاوت بين الناس بتفاوت إدراك الجمال والشعور به. وقدم أمثلة ببعض الكلمات على غريزة الإنسان في ذلك لتكون دليلاً على حديثه، لأن الخيال في نظره يعتبر حقيقة في بدايته ثم تطورت النظرة إليه بتطور النظرة إلى الحياة.

ثم أصبح الإنسان بحاجة إليه لأنه وإن احتكم إلى العقل فإنه يحتكم إلى الشعور وسيظل كذلك لأن الشعور هو العنصر الأول من عناصر النفس، فهو النهر الجميل المتدفق في صدر الإنسانية منذ القدم. ومن هذا النهر تتولد خرائد الفكر وبنات الخيال كما نشأت «فينيس» من أمواج البحار وعلى ضفافيه يرتلن للبشر ترانيم الحياة.

وكذلك فإن اللغة بحاجة إليه مهما قويت، لأنها لن تستطيع النهوض دون الخيال الذي يرهقها به الإنسان، وأنه يمد هذه اللغة بالقوة التي ما كانت تجدها لولاه. ومن وراء الخيال نلمح فلسفة الفكر وهدير الحياة، وهو الذي تندمج فيه الفلسفة بالشعر ويزدوج فيه الفكر بالخيال، ومنه ألفت فيه كتب البلاغة على اختلافها وهذا ما سماه (بالخيال الفني) الذي تنطبع فيه النظرة الفنية التي يلقيها الإنسان على العالم الكبير، وكذلك هناك ما سماه (الخيال الشعري) لأنه يضرب بجذوره إلى أبعد غور في صميم الشعور. ثم هناك ما سماه (الخيال الصناعي) لأنه ضرب من الصناعات اللفظية وهذا ما سماه (الخيال المجازي).

الفصل الثاني وعنوانه: الخيال الشعري والأساطير العربية.

تحدث في بداية هذا الفصل عن تاريخ الخيال الشعري في الأساطير العربية وأوضح أن هذا التاريخ لم يحفظ إلا شيئاً يسيراً من الأساطير العربية لا يستطيع الباحث أن يطمئن إليه بمفرده، ولم يجمع في كتاب خاص كما هو في أساطير الأمم الأخرى، وهو عبارة عن نبذ متفرقة بعضه متصل بعقائد العرب قبل الإسلام وبعضه متصل بعاداتهم وبعضه متصل بتاريخهم القديم. وبين أن الرواة لا يحملون وزر هذا. وأن العرب لم يقيموا لهذا

الفن وزناً، وقد تغنى به شعراء الجاهلية في أشعارهم كما تغنى به شعراء اليونان والرومان قبل مجيء المسيحية.

وقد قسم الشابي هذا التاريخ إلى قسمين:

القسم الأول: الأساطير الدينية، ويندرج تحته ما كان من عادات العرب وهي عقائد متحجرة بمفعول الزمن، وهو ما اقتصر الحديث عنه، ذلك أنه يتحرى الخيال الذي يتعرف به على حقائق الكون الكبرى، ولأنه يتحرى معرفة حظها من الخيال الشعري، وهذا غير متوفر في الأساطير التاريخية الذي يندرج تحت القسم الثاني الذي يرتبط بالتاريخ العربي القديم. ولذلك لم يتعرض لأخبار عمرو بن عدي وشق وسطيح وطسم وجديس، ولكنه بحث في الأساطير الدينية وما متّ إليها بسبب متين.

أما الأساطير الدينية عند العرب، فقد قدم رأيه فيه بأن لها وضاءة الفن وإشراق الحياة، فمن المحال أن يجد الباحث فيها ما يقع عليه في أساطير اليونان والرومان من خصب الخيال الجميل ومن تلك العذوبة الشعرية التي تنفجر منها الفلسفة الغضة الناعمة، فالآلهة العربية لا تنطوي على شيء من الفكر والخيال أو تمثل عاطفة من عواطف الإنسان، وإنما هي أنصاب بسيطة ساذجة شبيهة بلعب الصبية وعرائس الأطفال، وهي لا ترمز لمعنى من المعاني السامية وإنما هو أقرب إلى الوهم.

فقد عبد العرب أرباباً متفرقة، وآلهة كثيرة، ولم يعبدوها بعد تفكير عميق وإنما عبدوها لأحد أمرين: إما تأليه الأجداد أو تقليد غيرهم من الأمم وبعبارة علمية أنهم عبدوها لا لتشخيص ما فعلوا وإنما كانت عبادة الأموات على الأكثر ولذلك خلت أساطيرهم من الخيال الشعري باستثناء أسطورة النجوم فإن عليها شيئاً من وضاءة الشعر ونضارة الخيال.

عبد العرب أساف ونائلة واللات والعزى ومناة ويغوث ويعوق وسواع ونصرا، وكانت لهم فيها نظرات خاصة ومختلفة وقد نصبوها حول الكعبة لقوم من صلحائهم بعد موتهم على سبيل الذكرى فانقلبت الذكرى إلى عبادة بطول الزمن.

كما عبدوا الشمس فقالوا عبد شمس وعبدوا المشتري فقالوا عبد المشتري وسموها آلهة وزعموا أنها تهب الإنسان جمالاً وحسناً، وأنهم أخذوها عن الآشوريين كما أخذوا

عبادة ثالب وأضر وهبتون وعشتر. وكان إذا أثغر صبيتهم أخذ سنه بين السبابة والإبهام واستقبل الشمس قائلاً يا شمس بدليني بسن أحسن ولتجر في ظلمها آياتك. قال طرفة:

أسـقته إيـاة الشـمس إلا لثاتـه   أسـفاً ولم تكـدم عليـه بأثمـد

وقال غيره:

بدلتـه الشـمس مـن منبتـه   بـرداً أبـيض مصـقول الأشر

ثم تحدث الشابي عن أساطير العرب التي آمنوا بصحتها، مثل: الغول وهي حيوان خرافي يزعمون أنه كريه المنظر شنيع الخلقة يضلل الناس ويلهو بالجماجم. وقد ادعى أبطالهم أنهم شاهدوها وحاربوها فانتصروا عليها، وقد أولع تأبط شراً بوصفها في شعره فقال:

وإني قـد لقيـت الغـول تهـوي   يسـهب كالصـحيفة صحصـحان
فقلـت لهـا: كلانـا نضـوأين   أخـو سـفر فخـلي لي مكـاني
فشـددت شـدة نحـوي فـأهوى   لهـا كـف بمصـقول يـماني
فاضربهـا بـلا دهـش فخـرت   صريعـاً لليـدين وللجـران

ومن أساطيرهم أيضاً: الصدى أو الهامة وهي طائر خرافي زعموا أنه يخرج من رأس القتيل الذي طُل ّ دمه ويقف على قبره هاتفاً: «اسقوني فإني صدية» وما يزال حتى يؤخذ بثأر القتيل فيختفي هذا الطائر فقال الشاعر:

لـه هامـة تـدعو إذا الليـل جنهـا   بنـي عـامر هـل للهـلالي ثـائر

وكان منها شياطين الشعراء، حيث كان الاعتقاد أن لكل شاعر شيطانه الذي يوحي له بالشعر، فكان صاحب امرئ القيس لافظ بن لاحظ، وصاحب عبيد بن الأبرص هبيد ابن الصلادم، وصاحب الأعشى مسحل السكران بن جندل... وهكذا يعدد بعض الشعراء ويعدد معهم أصحابهم – شياطينهم – .

ومنها أيضاً أسطورة النجوم، وهم على خلاف فيها، ومؤداها أن «سهيلاً» انحدر إلى ناحية اليمن بعد أن خاض نهر المجردة فتبعته إحدى أختيه فسميت «العبور» وبقيت الأخرى مكانها فبكت لفراق أختها حتى غمضت فسميت «غميضاء» ومنهم من فسر ّ الأمر على نحو آخر فقال: بأنسهيلاً، كان فارساً جميلاً ساحراً، فخانه الحظ فسقط صريعاً

وراء المجرة فراع منظر الدماء أختيه، فعبرت إليه إحداهما، وظلت الأخرى واجمة فسميت الأولى «عبوراً» والثاني «غميضاء».

ثم أكمل حديثه هذا فجاء على أساطير الأمم الأخرى كما حددها الشابي فكانت على خلاف أساطير العرب، لأنها كانت مشبعة بالروح الشعرية الجميلة زاخرة بفلسفة الحياة الفنية الراقصة في ظل الخيال.

وقد أخذ اليونانيون أساطيرهم عن الآشوريين مثل العرب، ولكنهم طبعوها بطابع حياتهم فكانت رشيقة ساحرة وضرب الشابي أمثلة فتحدث عن «عشتروت» التي أخذها العرب فعاملوها معاملة أنصابهم التي لا ترمز إلى فكر ولا تمثل عاطفة، في حين أن اليونان اتخذوا لها اسماً آخر هو: «أفروديت» وزعموا أنها خلقت من أمواج البحار، واتخذوا لها ابناً هو «إيروس» وتخيلوا أن له جناحين ذهبيين، وأنه يحمل دائماً سهاماً حادة ومشاعل تلتهب، فكان إلهاً للحب عندهم.

وراح يسرد في محاضرته عن آلهة اليونان وأساطيرهم بما يتعانق فيها الفكر والجمال ويصف أفروديت وطفلها، وقدم تساؤلات كثيرة حتى وصل إلى أن كل آلهة رمز لفكرة أو عاطفة أو قوة من قوات الوجود، فجعلوا للحب إلهاً وللجمال آلهة كما جعلوا للحكمة آلهة وللشعر والموسيقى إلهاً ولمظاهر الكون أرواحاً وحياة تحس وتشعر، بمعنى أنهم ينظرون إلى الوجود من خلال أساطيرهم نظرة فنية تحس بتيار الحياة. ومما اعتقدوه أن الصدى جنية من بنات الجبال والأودية، فمرت بها يوماً «هيرا» زوجة «زفس» التي كانت ذاهبة لتفاجئ زوجها مع بعض عشيقاته، فاستهواها صوتها وفاتت عليها فرصة المفاجأة، فغضبت وسلبتها قوة الكلام إلا إعادة ما تسمع. وهكذا كانت أسطورة اليونان عن الصدى، أما العرب، فإنهم لم يألفوا ذلك رغم أنهم سموا الصدى «ابنة الجبل».

أما أساطير الإسكانديناف (سكان جزيرة سيلاند الأقدمون) فكانت الحياة عندهم شجرة راسخة تضرب بعروقها في مملكة الموت وتنتشر فروعها في آفاق السماء، وعند أصلها في مملكة الموت يجلس الأمس واليوم والغد، يروون جذورها من البئر المقدسة، فتورق دائماً وتزهر ثم تثمر، ثم يهوي ما عليها إلى مملكة الموت عندما يجف ما عليها، حيث يجلس الأمس واليوم والغد. فهل نظم الشعراء وكتب الكاتبون أعمق خيالاً وأصدق تصويراً للحياة من هذه الأسطورة.

الفصل الثالث: الخيال الشعري والطبيعة في رأي الأدب العربي:

علق الشابي في هذا الفصل على ثلاثة محاور:

المحور الأول: أثر الطبيعة في الإنسان والأمة، وقد قدم عدة تساؤلات عن الخروج في أيام الربيع إلى بعض ضواحي المدينة حيث البرية والغابات الجميلة الغناء، وقد تنقل البلبل الأنيق بين أغصان الأشجار بأغاريده الشجية، وكذلك القبرة المتخطرة بين الأشجار ومسارب الحقول بأناشيدها العذبة، أو تلك الفراشة وهي ترفرف في ضحوة النهار حول الأعشاب البليلة أو تلك النحلة المهاجرة بين الزهور السكرى، أو تلك النسمات الوادعة في ظلام الغاب.

كما تساءل عن الذي حرك هذه كلها، ويجيب نفسه، أليست هي الروح الإلهي الذي يبصره الإنسان في السماء والماء والنور والفضاء؟ أليس هو الجمال الخالد الذي أحس به أهل بابل في عشتروت أو ما شعر به اليونان فقدسوه في أفروديت، واستفز قلوب الرومانيين في فينيس؟

وأكد بأن الجمال هو الذي نبه الطائر وأيقظ الفراش واستخف النحلة وهو أيضاً نفسه الذي أنطق الشعراء بأناشيدهم الخالدة وهو أيضاً الذي مهد للإنسانية هذا السبيل ولولاه لاتخذت الإنسانية سبيلاً آخر حرم العالم من ثمار خالدة أنتجتها العقول.

هذا الجمال الطبيعي هو القسطاس العادل الذي توزن به نفسيات الأمم وشاعريات الشعوب، ليعلم ما هي عليه من قوة وضعف ومن صحة أو فساد وأن الوسط الطبيعي هو الذي يؤدي إلى شاعرية خصبة في الأمة، لأن الجو العبوس المتجهم لا ينتج إلا الكزّ اليابس. وأن للوسط الطبيعي أثره في تكوين نفسيات الأمم، وطبعها على غراره.

كما بينّ أن الأمة العربية عاشت في أرض محرومة من هذا الجمال، لا يعترض النظر إلا إلى الموامي المقفرة الموحشة والصحاري الضامية المترامية، ولذلك جاءت شاعريتها قريبة من هذه الأرض، ومع ذلك فقد عرفت هذه الأرض أدواراً أربعة هي: الجاهلي والأموي والعباسي والأندلسي، مما أدى إلى تغير في الطبيعة وبالتالي شاعرية الأمة الدارجة عليها.

المحور الثاني: ويتمثل هذا المحور في أدوار الأدب العربي التي قررها الشابي.

١- الدور الجاهلي والدور الأموي: يبين الشابي بأن هذين الدورين كانا خاليين أو كالخاليين من هذا الشعر الذي يتغنى بمحاسن الكون ومفاتن الوجود إلا القليل منه، الذي أشعل خيالاً وحساً لأنه أتى به ماء السيل وفيض الكلام المستطرد وسوق الحديث وإلا لما ذكر. ثم قدم أمثلة على ذلك فقال:

الأعشى استعار الطبيعة لوصف محبوبته في قوله:

ما روضة من رياض الحسن معشبة ... خضراء، جاد عليها مسبل هطل
يضاحك الشمس منها كوكب شرق ... مؤزراً من عميم النبت مكتهل[1]
يوماً بأطيب منها نشر رائحة ... ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل

أو كُثير عزة حين قال:

فما روضة، زهراء طيبة الثرى ... يمج الندى جثجاثها وعرارها[2]
بأطيب من أردان عزة موهناً ... إذا أوقدت بالمندل الرطب نارها

كما أورد أبياتاً لعنترة في ملاهي الربيع في قوله:

ولقد مررت بدار عبلة بعدما ... لعب الريح بربعها المتوسم
جادت عليه كل بكر حرة ... فتركن كل قرارة كالدرهم
سحاً وتسكاباً بكل عشية ... يجري عليها الماء لم يتصرم

أو قول ابن أبي ربيعة:

قالت لجارتها عشاء إذ رأت ... نزه المكان وغيبة الأعداء
في روضة يممنها مولية ... ميثاء رابية بعيد سماء[3]
في ظل دانية الغصون وريقة ... نبتت بأبطح طيب الثرياء

ومع ذلك فهذه الصور وغيرها من صور البرق والرعد والسحاب لا نحس فيه روح الشاعر الملتذة المعجبة وإنما هي صور متتابعة يعرضها الشاعر عرضاً أميناً. وقد فعل مثل هذا امرؤ القيس في قوله:

(١) يريد بالكوكب هنا: النبات الطويل، والمؤزر: الملتف كامل الطول.
(٢) الجثجاث والعرار: نبتان بريان مزهران.
(٣) المولية: المطورة غب المطر، والميثاء اللينة غير الرملية.

ديمـــــة هطـــــلاء فيهــــا وطــــف   طبـــــق الأرض تحـــــرى وتـــــدر

والأبيات طويلة ومثل ذلك في قول أوس بن حجر أو كما يقول ملحة الجرمي:

أرقــت وطــال الليــل للبــارق الــومض   حبيـــا سرى مجتـــاب أرض إلى أرض

فالطبيعة مع هؤلاء ليست موضوعاً للشغف والخشوع بل مادة للقص ّ ، وما يُرى يُنقل من دون أن يخلع عليه الشاعر حلّة من شعوره، والسبب أن أرضهم المجدبة لم تحرك في قلوبهم وشائج الحس ّ أو تفتحها لتذو ّق ألوان الجمال.

هذا ما قاله الشابي عن هذين الدورين، ولكن الحقيقة في رأيي غير ذلك وأنا أقدر أدب الشاعر والأديب، فالشاعر في هذين العصرين قد تملكه شعور الحياة والطبيعة، فجادت قرائحهم بهذه الأشعار، وإلا فكيف كان وصفهم إلا إذا كانوا يرونه بعيونهم؟ وتتجلى لهم في العقول وتأخذهم القلوب؟ ونحن نرى أنهم يصفون حالة واقعة بينهم، وقد جاء الشابي بالرد على هذين الدورين من أشعارهم وأثبتها في محاضرته.

٢- الدور العباسي: اصطبغت الحياة الإسلامية بصبغة قوية مشتركة من حضارات عديدة متباينة، تكونت منها حضارة جديدة مهلهلة ناعمة بتجمع الفرس والروم والمسلمين، فكان لذلك أثر غير يسير على النزعة العربية الجافية. ثم سكن نبغاء العرب العواصم فعاشوا في أوساط جميلة غير تلك الصحارى. فنظموا الشعر بأمزجة غير الأمزجة العربية وأذواق غريبة. وفي هذا الوسط نشأ أبو تمام الذي يقول في بعض قصائده:

دنيـــا معـــاش للـــورى حتـــى إذا   جـــاء الربيـــع فـــإنما هـــي منظـــر
أضـــحت تصـــوغ بطونهـــا لظهورهـــا   نـــوراً تكـــاد لـــه القلـــوب تنـــور
مـــن كـــل زاهـــرة ترقـــرق بالنـــدى   فكأنهـــا عـــين إليـــك تحـــدر
مصـــــفرة محمـــــرة فكأنهـــــا   عصـــب تـــيمن في الـــوغى وتمضر
في فـــاقع غـــض الشـــباب كأنـــه   درر تشـــقق قبـــل ثـــم تزعفـــر
أو ســـاطع في حمـــرة فكـــأنما   يـــدنو إليـــه في الهـــواء معصـــفر

ونجد البحتري يقول: والقول أيضاً للشابي في محاضرته:

أتـــاك الربيـــع الطلـــق يختـــال ضـــاحكاً   مـــن الحســـن حتـــى كـــاد أن يـــتكلما
وقـــد نبـــه النـــيروز في غلـــس الـــدجى   ـــل وردٌ كُـــنَّ بـــالأمس نو ّمـــا

يفتقهـــا بــــرد النـــــدى فكأنــــه ينـــث حـــديثاً كـــان قبـــل مكـــتما
ومـــن شـــجر رد الربيـــع لباســـه عليـــه كـــما نشرـــت وشـــياً منمـــنما

ومثل ذلك قول ابن الرومي:

إذا شـــئت حيتنـــي بســـاتين جنـــة عـــلى ســـوقها في كـــل حـــين تـــنفس

ويكمل الشابي سرد الأبيات وهي كثيرة يعاين فيها جزئيات الجمال في النور والضياء والنسيم، كما أورد من أشعار ابن الرومي روائع ولوحات تنهض من خلالها الطبيعة بكل إنسانيّ ساحر.

هذا ما أورده الشابي في محاضرته عن العصر العباسي، والواقع أن الأبيات التي أوردها ترد عليه، فقد عرفوا البساتين والرياض والأزهار وعيون النَّوْر والندى وغناء الطير وريح الصبا وانعكاس الشمس على الورود، كما عرفوا فضل الربيع وترقرق المياه بعد فصل الشتاء، أليس هذا كله كافياً أن يكون من إنتاج الخيال الشعري والطبيعة في الأدب العربي. نحن نعرف أن الشابي عاش في تونس ولم يتنقل في دمشق وضواحيها أو بغداد وما حولها، فكان يرى بيئة تونس ويتحفنا بخياله في طبيعة تونس، لكن شعراء المشرق أيضاً أحسوا بالطبيعة من حولهم، فجادت قرائحهم بما شاهدوه وما أحسوه ليصوروا بخيالهم الطبيعة التي عاشوا فيها. والشعراء في هذا العصر هم امتداد للشعراء الذين سبقوهم وما جادت به قرائحهم.

٣- **الدور الأندلسي**: تفشى هذا الأدب الطبيعي في البلاد الأندلسية تفشياً عظيماً حتى كاد يسيطر على غيره من فنون الشعر.

غير أن لي – القول للشابي – في الأدب الأندلسي وبالأخص في الطبيعي منه رأياً جديداً ربما لا توافقونني عليه ولكنني قائله لكم:

(لكن الأدب العباسي في الطبيعة أبعد نظراً وأعمق خيالاً وأدق شعوراً منه في الأدب الأندلسي، رغماً عن أن الأدب الأندلسي أحفل بهذا الفن من الأدب العباسي وغيره، ورغماً عن أن الأدب الأندلسي أنصع ديباجة وأرقى أسلوباً وأدق تصويراً، ورغماً عن أن البلاد الأندلسية أشد جمالاً وأعظم روعة من البلاد الشرقية التي أنبتت ذلك الأدب العباسي الجميل).

والسبب انغماس النفوس في الأندلس بحمأة الشهوات انغماساً أماتت بها العواطف الهائجة، فجاء الشعر الأندلسي رقيقاً، لكنه قليل الحظ من عمق الشعور.

وهنا يعود الشابي إلى قول أبي تمام والبحتري في شعورهم الصادق الذي يحس بروح الحياة السارية في عروق الكون. ويقرر في أبياتهما عمق الخيال ودقة الإحساس ما لم يظفر بمثله في الأدب الأندلسي ثم يقول:

وقد صدمتني هاته الحقيقة لأول وهلة.. كادت تزعزع إيماني بصحة تلك النظرية التي قلتها من قبل: نظرية (الوسط الطبيعي) ثم قدم أمثلة على الأدب الأندلسي حيث يقول ابن خفاجة:

لله نهـــــر ســـــــال في بطحـــــــاء ... أشـــهى وروداً مـــن لمـــى الحســـناء
متعطـــــف مثـــــل الســـــوار كأنـــــه ... والزهـــــر يكنفـــــه مجـــــر ســـــماء
قـــد رق حتـــى ظـــن قرطـــاً مفرغـــاً ... مـــــن فضـــــة في بـــــردة خضرـــــاء
والـــريح تعبـــث بالغصـــون وقـــد جـــرى ... ذهـــب الأصـــيل عـــلى لجـــين المـــاء

ويقول:

وصــــقيلة الأنــــوار تلــــوي عطفهـــا ... ريـــــح تلـــــف فروعهـــــا معطـــــار
عـــاطى بهـــا الصـــهباء أحـــوى أحـــور ... ســــحاب أذيـــــال الصـــــبا ســـــحار
والنـــور، عقـــد والغصـــون ســـوالف ... والجـــــزع زنـــــد والخلـــــيج ســـــوار
بحديقـــة ظـــل اللمـــى ظـــلاً بهـــا ... وتطلعـــــت شـــــنبابها الأنـــــوار

«على هذا النحو كل ما قاله ابن خفاجة في جمال الطبيعة، براعة في الوصف وجمال في الأسلوب، دون أن تجد خيالاً قوياً أو شعوراً دقيقاً، وإن أعجب فلطائفه تسمى ابن خفاجة شعر الطبيعة...» ويرى الشابي أن في نفسه ميلاً إلى الطبيعة شغلته اللذة واللهو عن الإفصاح عنه وأن في قلبه شغفاً بالوجود كفكفه المجون.

وابن زيدون، ذكر الحبيبة وهو في مدينة الزهراء وسط الرياض فاستعاد بالذكرى أيام وصاله المنصرفة، هذا وقد تمثل الشابي بأبيات ابن زيدون حين يقول:

إني ذكرتـــــك بـــــالزهراء مشـــــتاقاً ... والأفـــق طلـــق ووجـــه الأرض قـــد راقـــا
وللنســـــيم العليـــــل في أصـــــائله ... كـــــأنما رق لي فاعتـــــل إشـــــفاقا

والـروض عـن مائـه الفضيـ مبتسـم   كـما حللـت عـن اللبـات أطواقـا

وشاعرة أندلسية وهي الشاعرة حمدة بنت زياد[1] في وادٍ ترى حدب الدوح كحنو المرضعات على الفطيم فتقول:

وقانـــا لفحـــة الرمضـــاء واد   ســقاه مضــاعف الغيــث العمــيم
نزلنـــا دوحـــة فحنـــا علينـــا   حنـــو المرضـــعات عـــلى الفطـــيم
شـــفنا عـــلى ظمـــأ زلالاً   ألـــذ مـــن المدامـــة للنـــديم
تـــروع حصـــاه حاليـــة العـــذارى   فـــتلمس جانـــب الـــدر النظـــيم

ثم ابن سهل الأشبيلي ينتهب في الوسط الطبيعي لحظته العابرة مقبلاً على الدنيا قبل الرحيل الأخير، وقد استشهد الشابي بأبيات منها:

اغـنم زمـان الوصـل قبـل الـذهاب
فـالروض قـد وافـاه دمـع السـحاب
وقـد بـدا في الـروض سر عجيـب

ورد ونسرـــين وزهـــر الأقـــاح
كالمســـــك فـــــاح
والطـير شـاد بـاختلاف النـواح

وعلى هذه السنّة التي رأيتموها يسعى الأدب الأندلسي كله: ديباجة غضة ناعمة وتعابير عذبة ناصعة ووصف دقيق جميل، لكن ليس وراء ذلك عاطفة حادة أو إحساس عميق»[2].

المحور الثالث: وهذا محور مقارنة بين العرب والفرنجة لتوضيح الفرق بين الرنة العربية والرنة الغربية العميقة الداوية. وقد أثبت الشابي على مسامع الحاضرين كلمتين الأولى لـ «لامارتين» الشاعر الفرنسي والثانية لـ «جيتي» الشاعر الألماني ليبين ما يريد توضيحه عما يجب أن يكون عليه وصف الطبيعة والخيال الشعري الحقيقي.

---

(١) يوسف الطريفي، شعراء المغرب والأندلس، ص٣٣٩، وأثبت هذا لأن الشابي لم يذكر اسمها.
(٢) وضعت هذا موجزاً عن هذه الأدوار، وبإمكان الباحث العودة إلى كتاب الخيال الشعري عند العرب لأبي القاسم الشابي ليرى الصورة كاملة كما وضعها الشابي.

يقول لامرتين: «إن الطبيعة أكبر قساوسة الله وأمهر مصوريه وأقدر شعرائه وأبرع مغنيه، وإنك لتجد في عش العصفور تتناغى فيه أفراخه تحت رفرف الهيكل الدارس، وفي أنفاس الرياح تهب من البحر حاملة إلى أديرة الجبل المقفرة خفوق الشر ع وأنين الأمواج وغناء الصيادين، وفي الزهور ينتشر أرجها في الفضاء وينتثر ورقها عَلى القبور وفي صدى أقدام الزائرين تقع على مضاجع الموتى من هذا الدير، تجد في كل هذا من التقى والروعة والتأثير ما كان في هذا الدير منه وهو في إبان عهده وعنفوان مجده!».

ويقول جيت: «أرى كل شيء حولي ينبت ويزهر، وحينما كنت أبصر هذه الجبال مغطاة بأشجار الدوم من أسفلها إلى أعاليها، وتلك الأودية المظللة مجانيها بالغابات الأنيقة، وذلك النهر ينساب هادئاً بين نغمات القصب المهتزة، وتترآى في جوانبه تلك السحب الجميلة المزجاة في جو السماء بنسيم المساء، وأسمع الأطيار تحيي بأغاريدها موات الغابة جمعاء، وخشارمة الذباب ترقص طربة مرحة على أشعة الشمس الغاربة، وأرمق الأرض ببصري فأرى الأشنان يمتص غذاءه من الصفاة الصلدة، والرتم ينبت فوق سفح الأكمة القاحل المرمل فيكشفان لي عن ذلك النبع المقدس وتلك الحياة القوية في باطن الطبيعة، أقول حينما كنت أرى وأسمع هذه الأشياء أشعر كأن قلبي يحيط بها ويعيها بما شئت من حرارة وقوة، وكنت أشعر أني أقرب ما أكون إلى التأله بما يفيض في قلبي من الشعور والحس ويخيل إليّ أن صور العالم الجميلة الفخمة تتحرك في نفسي فتملؤها حياة جديدة.

... آه كم تمنيت في ذلك الزمن أن أقطع أجواز الفضاء على جناحي ذلك الكركي الذي يطير فوق رأسي فأبلغ ساحل ذلك البحر الأعظم الذي لما ينكشف سره للإنسان لأشرب من اللانهاية كأساً دهاقاً تبسط القلوب وتنعش المشاعر !

وأشعر لحظة واحدة، على قصوري وضعفي، بنقطة تجري في دمي من سعادة ذلك الموجود الذي يخلق كل شيء في ذاته بذاته».

ثم يتساءل الشابي عن أي النظرتين إلى الطبيعة أعمق؟ وهل عندنا في العربية مثل هاته الروح القوية الشاعرة؟

ثم يتحدث عن كلمة جيت فيقول: هي الأغنية الخالدة التي ترددها النفوس الشاعرة في أعماقها كلما شاهدت بهجة الكون وجلال الوجود.

ثم يردف إلى أن يقول: أما شعراء العربية فلم يعبروا عن مثل هاته الإحساسات الشعرية العميقة لأنهم لم ينظروا إلى الطبيعة نظرة الحي الخاشع إلى الحي الجليل، وإنما كانوا ينظرون إليها نظرتهم إلى رداء منمق وطراز جميل ولم ينتهوا لتيار الحياة المتدفق في قلب الطبيعة، ولذلك خلا شعرهم من الخيال الشعري الجميل.

الفصل الرابع: الخيال الشعري والمرأة في رأي الأدب العربي

وهذا النوع هو (المرأة) هو هذا اللغز الجميل الذي يفتننا بسحره ويختلبنا بجماله.

ثم تحدث عن النفس الإنسانية، وماهيتها وجمالها إلى أن يصل إلى قوله:

... أما العرب فقد حرموا هذا الجمال السماوي الذي يجد عنده القلب لذة الحس وسعادة الشعور، ولم يكن لديهم من مظاهر الجمال على اختلاف فنونه غير فن واحد هو «المرأة»، وفي المرأة وحدها استطاعوا أن يجدوا ذلك الينبوع السحري المتفجر من قلب الحياة...، وكان حديثه هذا رداً على تساؤلاته عن رأي الفلاسفة بأن النفس البشرية جبلت من عنصر الحسن ولذلك تشعر بلذة سامية كلما شاهدت مرآى جميلاً، فالنفس فلذة خالدة من هذا الجمال العبقري الذي يتفجر من قلب الحياة.

ثم يستمر في قوله: المرأة هي النصف الجميل الذي يحمل في قلبه رحيق الحياة وسلسبيل المحبة، وهي الطيف السماوي الذي هبط الأرض ليؤجج نيران الشباب ويعلم البشرية طهارة النفس وجمال الحنان.

لكن العرب تجاوزوا في التغني بالمرأة كل حد، حتى أصبحت هي اللحن الجميل الذي تستهل به القصائد، وهي الكلمة السحرية التي تنفتح لها كنوز الشعر، حتى أصبحت عندهم كآلهة الشعر عند قدماء اليونان. ومع ذلك لم يبوؤا المرأة منزلة سامية إلا للتحدث عن ملهاة ساحرة بجسدها، أو للتفاخر على تصبي قلوب النساء والعبث بهن ليس غير ! فجاءت نظرتهم دنيئة منحطة إلى أقصى قرار من المادة. ولم تزدوج نظرتهم إلى ذلك الشغف التي تعتبر سمة الفن عند الشعراء الآريين.

والشاعر العربي في رأي الشابي لم يحاول أن يحس بما وراء الجسد عند المرأة من روح جميلة ساحرة تحمل بين جنبيها سعادة الحب ومعنى الأمومة وهما أقدس ما في هذا الوجود، بل تحدث عن هذا الجمال المتهدل (الذي يوزن بالرطل والقنطار من الشحم

واللحم) كأنما الجمال جسد ومادة. لم يتحدث عنها كما يقول تاغور، واستثنى الشابي من ذلك ابن الرومي ومن لف لفه وهو نفر قليل، لأن ابن الرومي في رأيه تحدث عن جمال المرأة كشيء مستقل عن الجسد مصدره النفس الخالدة كما في قوله:

ليت شعري - إذا أدام إليها ... رة الطرف مبدئ ومعيد -
أهي شيء لا تسأم العين منه ... أم لها كل ساعة تجديد؟
بل هي العيش لا يزال متى استحـ ... ـدث يبدي غرائباً ويفيد

لقد تحدث الشاعر العربي وأجاد عن قدِّ المرأة الممشوق وعن طرفها اللامع الوسنان وعن وجهها المتورد وعن غير ذلك من أوصاف مادية يراها الجميع، ويحس بها كل الناس، تحدث عنها بإحساس لا تظهر معه مزية على غيره في الالتفات إلى رصانة التعبير وجمال الديباجة وخلابة الأسلوب، وهل هذه وظيفة الشاعر وغايته في الحياة؟ ليست رسالة الشاعر ألفاظاً منمقة وعبارات مرصعة وكلاماً مرصوصاً.

وقد يكون من الغريب أن بعضاً من هؤلاء الشعراء يؤمنون بالحب إيماناً سامياً ويضمرون عنه في نفوسهم، حتى إذا أرادوا التحدث عن المرأة لم يتحدثوا إلا بما يتحدث به الفاسق الفاجر من تلك الأوصاف الجسدية السافلة.

وظلت النظرة إلى المرأة في الأدب العربي بسيطة، لم تتأثر بما اعتور الحياة الإسلامية من جزر ومد، ومن نور وظلمة، وسبب بقاء هذه النظرة تدور حول ما يلي:

أولاً: فكرة جائرة استحوذت على العالم العربي كله، مفاده أن المرأة مثل الغدر واللؤم وخساسة الطبع ... والفكر الذي يعتقد ذلك في المرأة لا يمكنه أن يبصر وراء جسدها من عذوبة وسحر وعالم شعري جميل.

ثانياً: المرأة لم تنل في جميع الأعصر العربية قسطاً من الحرية الحقة تتمكن معه إظهار مواهبها التي تجبر الرجل على أن يحترمها ويبدل فيها رأيه، فيطلع على ما خلف الجسد من لج زاخر وبحر عميق، ثم يبين: أن هذه الحرية الموهومة التي نسمع عنها ليست هي الحرية الحقة لأنها ضرب من الحرية متهتك خليع، يعبث بالفضيلة، ويسخر بكل شيء، وما أجدره أن يسمى انحطاطاً خلقياً، فيدنس هذه الكلمة الإلهية الظاهرة. ومن تمتع بهذه الحرية هو قسم من الإماء المتجنيات على الرجال المتهافتات على اللذة المتهالكات على

الفجور، تهالكاً يأباه الدين والعقل. هذا الضرب الذي يتحدث عنه أبو نواس، وهو ما نجده عند خلعاء الأندلس ومجانها.

ثم قدم شواهد على رأيه من قول امرئ القيس في قوله:

ألا رُبَّ يوم قد (لهوت) وليلة ... بآنسة كأنها خط تمثال

ويقول:

كأني لم أركب جواداً للذة ... ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال
ولم أسبأ الزق ولم أقل ... لخيلي (كري كرة) بعد إجفال

ويقول:

وبيضة خدر لا يرام خباؤها ... (تمتعت) من (لهو) بها غير معجل

ثم استشهد أيضاً بقول طرفة بن العبد:

ولولا ثلاث، هن من عيشة الفتى ... وجدّك لم أحفل متى قام عودي
فمنهن سبق العاذلات بشربة ... كميت متى ما تعجل بالماء تزبد
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب ... ببهكنة تحت الخباء الممدد[1]

ومن ذلك ما استشهد به من قول أوس بن حجر:

وهل (لهوت) بمثل الرئم آنسة ... تصبي الحليم، عروب غير مكلاح

ثم قول عبدالله بن عجلان النهدي قتيل الصبابة:

وحقة مسك، من نساء لبستها ... شبابي وكأس باكرتني شمولها
جديدة، سربال الشباب كأنها ... سقية بردي نمتها غيولها

ويتابع الشابي حديثه مما قاله الشعراء، وهذا أبو نواس يقول:

(ألـــه) بالبيض الملاح ... وبقينات، وراح
لا يصدنك لاح ... هو عن سكرك صاح

ثم قول أبي تمام:

---

(١) البهكنة: الشابة الغضة الشباب.

مــن كــل ممكــورة ذاب النعــيم لهــا ذوب الغــمام فمنهــل ومنســكب[١]
كانــت لنــا (ملعبــاً) (نلهــو) (بزخرفــة) وقــد يــنفس عــن جــد الفتــى اللعــب

ثم قول البحتري:

قــد أطــرق الغــادة الهيفــاء مقتــدراً عــلى الشــباب فتصــيبيني وأصــبيها
في ليلــة مــا ينــال الصــبح آخرهــا علقــت بــالراح أســقاها وأســقيها
عاطيتهــا غضــة الأطــراف مرهفــة ـــت مــن يــدها خمــراً وم ـــنْ فيهــا

وقد عقد من خلال نقده مقارنة بين هذه الأقوال: ففي شعر طرفة وسيلة لتقصير يوم الدجن، وعند ابن عجلان خليلة فراش وساقية وعند أبي نواس جليسة غناء وخمرة، ولدى أبي تمام وسيلة أو أداة لعب وترويج وعبث ومثل ذلك كان عند البحتري.

كما تحدث الشابي في كتابه ومحاضرته عن أوصاف المرأة عند العرب، وبأي تعبير يعبرون عنها.

ففي الجاهلية وصدر الإسلام، وصفها امرؤ القيس ببيضاء غير مسترخية اللحم، تتقن أساليب الإغراء، لها جيد كجيد الرئم وشعر كقنو النخلة. وكشح مخصر وساق كقصب البردي ورائحة مسكية، وقد استشهد بأبيات شعرية يدلل بها على نظرته:

مهفهفــة بيضــاء غــير مفاضــة ترائبهــا مصــقولة كالســجنجل[٢]
تصــد وتبــدي عــن أســيل وتتقــي بنــاظرة مــن وحــش وجــرة مطفــل
وجيــد كجيــد الــرئم لــيس بفــاحش إذا هــي نصــته ولا بمعطــل
وفــرع يغشيــ المــتن أســود فــاحم أثيــث كقنــو النخلــة المتعثكــل[٣]
وكشــح لطيــف كالجــديل مخصرــ وســاق كــأنبوب الســقي المــذلل
وتضــحي فتيــت المســك تحــت فراشــها نــؤوم الضــحى لم تنتطــق عــن تفضــل[٤]
إلى مثلهــا يرنــو الحلــيم صــبابة إذا مــا اســبكرت بــين درع ومجــول[٥]

(١) ممكورة: مملوءة الساق.
(٢) السجنجل: المرآة.
(٣) أثيث: كثيف، قنو النخلة: أول طلعه، متعثكل: مضموم إلى بعضه مرتباً.
(٤) نؤوم الضحى: كناية عن الترف والنعيم.
(٥) أسبكرت: استقامت في مشيتها، المجول: الدرع الصغير.

وهذا الأعشى يتغنى بعشيقته فيصفها بأنها بيضاء طويلة الشعر تترفق في مشيتها، مرتجة الأرداف، ممتلئة الجسم، يمشي معها المسك.

غـراء، فرعـاء، مصـقول عوارضـها ... تمشي الهوينا كما يمشي الوجي الوجل
كـأن مشـيتها في بيـت جارتها ... مـر السـحابة لا ريـث ولا عجـل
إذا تقـوم يضـوع المسـك أصـورة ... والزنبـق الـورد في أردانهـا شـمل[1]
يضـاحك الشـمس منهـا كوكـب شرق ... مـؤزر بعمـيم النبـت مكتهـل
يومـاً بأطيـب منهـا نشر رائحـة ... ولا بأحسـن منهـا إذ دنـا الأصـل

أما طرفة فقد وصفها بأنها غزال متخلف عن قطيعه، وثغرها كالأقحوان المنير، وأضاءت عندما ألقت الشمس رداءها على وجهها:

وفي الحـي أحـوى يـنفض المـرد شـادن ... مظـاهر سـمطي لؤلـؤ وزبرجـد
خـذول تراعـي ربربـاً بخميلـة ... تنـاول أطـراف البريـر وترتـدي
ووجـه كـأن الشـمس ألقـت رداءهـا ... عليـه نقـي اللـون لم يتخـدد

أما كعب فقد وصف سعاد، غُنَّة هيفاء، جميلة (حلوة) الثغر:

ومـا سـعاد غـداة البـين إذ رحلـوا ... إلا أغـن غضـيض الطـرف مكحـول
هيفـاء مقبلـة، عجـزاء مـدبرة ... لا يشـتكي قصر منهـا ولا طـول
تنفـي الريـاح القـذى عنـه وأفرطـه ... مـن صـوب غاديـة بـيض يعاليـل

وعلى مثل هذه السنّة كان النابغة، وعنترة ولبيد وعمرو بن كلثوم وأوس بن حجر والمرقش وزهير وغيرهم من شعراء الجاهلية الذين لم يختلفوا إلا في كيفية التعبير.

أما في العصر الأموي فقد قدم أمثلة على شعر عمر بن أبي ربيعة في قوله:

خـود تضيء ظـلام البيـت صـورتها ... كـما يضيء ظـلام الحنـدس القمـر[2]
مجدولـة الخلـق لم توضـع مناكبهـا ... مـلء العنـاق، ألـوف جيبهـا عطـر
ممكـورة السـاق مقصـوم خلاخلهـا ... فمشـبع نشـب منهـا ومنكسر
هيفـاء لفـاء مصـقول عوارضـها ... تكـاد مـن ثقـل الأرداف تنبـتر

---

(١) أصورة: وعاء المسك.
(٢) خود: الصبية.

تفتر عن واضح الأنياب متسق عذب المقبل مصقول له أشر
كالمسك شيب بذوب النحل يخلطه ثلج بصهباء مما عتقت جدر

وصفها بأنها فتاة تضيء الظلام، غير مسترخية اللحم، مكتنزة هيفاء، ضخمة الفخذين، منيرة الثغر، ثقيلة الأرداف وبرائحة المسك.

ثم يقول: لعلكم تقولون: إنه فاسق يأخذ من المرأة ما هو أقرب إلى حسه، فماذا تصنعون مع المجنون الذي يقول:

ومن أين للشمس المنيرة بالضحى بمكحولة العينين في طرفها فتر
وأنى لها من دل ليلى إذا انثنت بعين مهاة الرمل قد مسها العذر
تبسم ليلى عن ثنايا كأنها أقاح بجرعاء المراصين أودر
منعمة لو باشر الذر جلدها لأثر منها في ترائبها الذر
إذا أقبلت تمشي تقارب خطوها إلى الأقرب الأدنى تقسمها البهر

وهو لا يخالف في هذه الأبيات عمر بن أبي ربيعة، ومثل ذلك قال جميل الذي لم يشك أحد في وجوده وقد رأى قوام بثينة قناة من المرّان أو غزالاً بمقلتها والجيد، وكشحها السابري، وحدبتها فدرٌ فضلاً عن جال ساقيها وضمور بطنها:

قناة من المران ما فوق حقوها وما تحته منها نقي يتقصف
لها مقلتا ريم وجيد جداية وكشح كطي السابرية أهيف

ولم يكن العصر العباسي غير ما سبقه فهذا أبو نواس يقول:

سربلها الدل ثوب بهجته أزرها الشكل ثم رداها
للدعص من ردفها تراكمه وللقضيب الرطيب أعلاها
فالسحر والغنج في محاجرها والحسن وقف على محياها

فالمرأة عنده ذو دلال وغنج، وردفها كثيب الرمل وجسدها كالسيف أو الغض اللدن.

أما عند أبي تمام فهي مكتنزة الساقين، وخد كالورد وهي ناعمة ومع أنها مهاة فإنها لا تصيد إلا الصيادين:

وهي كالظبية النوار، لكن ربما أمكنت جناة السحوق

أو قوله:

بيضـاء يصرعها الصبا من نعمة   خـود كخوط البانة الأملـود[1]
وحشية ترمي القلوب إذا اغتدت   وسنى فما تصطاد غير الصيد

ويكمل الشابي: ثم اسمعوا ما يقوله المتنبي:

كل خمصانة أرق من الخمـ   ـر بقلب أقسى من الجلمود
ذات فرع كأنما ضرب العنبـ   ـر فيه بماء ورد وعود
حالك كالغداف جثل دجوجـ   ـي، أثيث جعد بلا تجعيد
تحمل المسك من غدائرها الـ   ـريح وتفتر عن شتيت برود

فهي عند المتنبي أرق من الخمر، هيفاء بقلب أقسى من الصخر، تنتشر منها رائحة العنبر والورد.

أما البحتري فالمرأة عنده:

بيضاء أوقد خديها الصبا وسقا   أجفانها من مدام الراح ساقيها
في حمرة الورد من تلهبها   وللقضيب نصيب من تثنيها

ويقول مهيار الديلمي:

سقى بالحمى الأعين النابلات   من دم أحشاي ما تشرب
وحيا الحيا أوجهاً لا تغش   لجين الجمال بها مذهب
وما نطفة حضنتها السماء   بأرعن مرقاه مستصعب
ولا مسكة طاف عطارها   بدارين ينخل ما يجلب
بأطيب من فم ذات الوشاح   سحوراً بلى فمها أطيب

ويعلق الشابي: فهل رأيتم من تطور بين العصر العباسي والعصرين قبله من حيث نظر الشعر إلى المرأة ومنزلتها منه، أليست المرأة التي تحدث عنها شعراء العصر الجاهلي وما تلاه هي نفس المرأة التي تحدث عنها شعراء العصر العباسي، وإذا كان هذا في هذه العصور فكيف كان في العصر الأندلسي؟ يتساءل الشابي: هل أثرت عظمة الطبيعة واختلاف التربية والوسط والمناخ على النظرة الشعرية إلى المرأة؟

---

(١) الأملود: الناعم اللين.

هذا ابن خفاجة يقول:

فتــــق الشـــــباب بوجنتيهــــــا وردة ... في فــــرع أســــحلة تميــــد شــــبابا[1]
وضــحت ســـوالف جيــدها سوســـانة ... وتـــــــوردت أطرافهـــــــا عنابــــــا
بيضــــاء فـــاض الحســـن مـــاء فوقهـــا ... وطفـــا بـــه الـــدر النفـــيس حبابـــا

ويقول أيضاً:

هــي الظبــي طرفــاً أحــوراً وملاحظــا ... مراضــــاً وجيــــداً أتلعــــاً ونفـــارا
أفاضــت عــلى عطــف القضــيب مــلاءة ... ولفـــت عـــلى ظهـــر الكثيـــب أزارا

ولابن خاتمة دمٌ في خدها، وريق أو رحيق في ثغرها وأقاح في ابتسامها وضياء وخمر في لحاظها:

دمــــاء فـــوق خـــدك خلـــوق ... وريـــق مـــا بثغـــرك أم رحيـــق؟
ومـــا ابتســـمت ثغـــور أم أقـــاح ... ويكنفهـــــا شـــــفاه أم شـــــقيق؟
وتلـــك ســـناة قـــوم مـــا تعاطـــت ... جفونـــك أم هـــي الخمـــر العتيـــق؟
لقـــد أعـــدت معاطفـــك انثنـــاء ... وقلبـــي ســـكرة مـــا أن يفيـــق
جمالـــك خمـــرتي وهـــواك راحـــي ... وكـــأسي مقلتـــي فمتـــى أفيـــق؟

أما ابن سهل فالمرأة عنده ثغر نضده أقحوان لا يفيق من سكرته، وشعر فاحم وشفاه معسولة وغنج ساحر ووجه يخذل الشمس مبتسماً:

مـــا رأينـــا قـــط ثغـــراً نضـــده ... أقحـــوان عصرـــت منـــه رحيـــق
أخـــذت عينـــاه منـــه العربـــده ... وهـــو مـــن ســـكرته مـــا أن يفيـــق
فـــاحم اللمـــة معســـول اللمـــى ... ســـاحر الغـــنج شـــهي اللعـــس
وجهـــه يتلـــو الضـــحى مبتســـماً ... وهـــو مـــن إعراضـــه في عـــبس

ويعلق الشابي على كل ما سبق من شعر النوابغ، ويؤكد أنه لم يتحدث عما وراء جسد امرأة من شعور سماوي رقيق وعاطفة ندية ساجية وأحلام عذبة مستحبة، ولم يتغن أحد من هؤلاء بحنو المرأة، وهي معبد الحب في هذا الوجود كما يتحدث الخاشع المتعبد عن

(١) أسحلة: نوع من الشجر يستاك به كالأراك.

بيت من بيوت الله، كما يتحدث مثلاً جبران خليل جبران في أجنحته المتكسرة.. فقد كان إحساس الشاعر قاصراً وخياله محدود لا يتجاوز الظواهر ولا يطمع في ما وراء المرئيات.

ويلخص في نهاية فصله: إن المرأة في الأدب العربي لم تظفر بنصيب من الخيال الشعري ولو كان يسيراً، لأن النظرة لا تتعدى النظرة المادية التي لا عمق فيها ولا ضياء. وأما الفارق بين العصور، فقد كان الشاعر في العصرين الجاهلي والأموي صادقاً في ميله إلى المرأة وشغفه بها وإن لم يتحدث عنها إلا من الوجهة الجسدية، أما الشاعر العباسي والأندلسي فقد قضت المدنية الفاجرة على منبع الرجولة فيه فأصبح أكثر حديثه عن المرأة كاذباً لا تحس فيه حرارة الحب ولا صدق الهوى بالرغم عن أنه جميل الرنة، خلاب النسق.

الفصل الخامس: الخيال الشعري والقصة في الأدب العربي

لا يعجز الباحث في الآداب العربية أن يجد شيئاً من القصص الرائع الفخم الجميل، وأن يجد في تلك القصص خيالاً عذباً مشرقاً بالروح والحياة. وخاصة ما نسب إلى ابن أبي ربيعة شاعر الشبيبة الغزلة والجمال المدل. وكذلك امرؤ القيس ذلك الشاعر الشقي بشعره المضحاك الفروح، وهذا لا ينكره أحد.

ولكن هل نجد في تراث العرب قصصاً حقيقياً يجدر تسميته قصصاً كفن مستقل؟ هل نجد هذا القصص الذي يسبر جراح النفس البشرية؟ وهل نجد في الأدب العربي شيئاً من هذا القصص الذي يتصل بالخيال الشعري؟

ثم طرح سؤالين هما: هل القصص العربي مستقل بنفسه؟ وهل كان القصص العربي من ذلك النوع الذي ينقد ويمحص ويسبر ويحلل؟ والجواب عن السؤال الأول: أن الشعر العربي لم يستقل بنفسه استقلالاً يؤهله لمنزلة القصص الحقيقي أو ما يقاربه إلا في شعر عمر بن أبي ربيعة، وكذلك يوجد عند غير ابن أبي ربيعة ولكنه غير مستقل بنفسه، فقد نجد للمنخل اليشكري هذا القصص الصغير الجميل الذي يصف موقفاً من مواقف الحب كقوله:

ولقـــد دخلـــت عـــلى الفتـــــــاة الخـــدر في اليـــوم المطـــير
الكاعـــــب الحســـــناء تــــــرفـــل في الـــدمقس وفي الحريــــر
فـــــــدفعتها، فتـــــــدافعت مشيــــــ القطـــــاة إلى الغـــــدير
ولثمتهـــــــــا فتنفســـــــــت كتـــــنفس الظبـــــي الغريـــــر

ودنـــــت فقالـــــت: يـــــا منخــــــــــل ! مـــا بجســـمك مـــن حـــرور
ـــا شـــف ّ جســـمي غـــير حبــــــــــك فاهـــدأي عنـــي وســـيري

وهذا قصص لكنه جزء من قصيدة فخر للشاعر، وقد نجد مثل هذا عند امرئ القيس في معلقته حين يقول:

وبيضـــــة خـــــدر لا يـــــرام خباؤهـــــا تمتعـــت مـــن لهـــو بهـــا غـــير معجـــل

وقد سبق أن تحدثنا عن القصيدة في فصل سابق، وبإمكانك الرجوع إليها، والشابي يقول إن الشاعر لم يزد على صاحبه وإن تصرف فيها كثيراً.

كما يذكر الشابي أننا نجد مثل هذا عند النابغة في قصيدته (يا دارمية) وفي معلقته، ونجده عند شعراء عرب غيرهم. ولكننا لا نجده مستقلاً وربما هذا ما كان في العصر الجاهلي، لكن خير من يمثل نظرة الشابي في هذا الفصل عمر بن أبي ربيعة في العصر الأموي، الذي قال عنه جميل بن معمر: «هيهات يا أبا الخطاب لا أقول والله مثل هذا سجيس الليل، والله ما خاطب النساء مخاطبتك أحد».

ثم سرد الشابي قصيدة عمر بن أبي ربيعة ليوضح طريقة السرد القصصي كمثال لاستهواء العذارى والشباب حتى حر ّم الكبراء رواية شعره على فتيانهم والقصيدة طويلة بإمكانك الرجوع إليها ومطلعها:

راح صـــــحبي ولم أحــــــي النــــــوارا وقليــــــل لــــــو عرجــــــوا أن تــــــزارا

ويقوله الشابي إنها نوع من القصص لا عهد للأدب العربي بمثله قبل ابن أبي ربيعة، لا عند امرئ القيس ولا النابغة ولا الأعشى، وابن أبي ربيعة جدير بأن يسمى أبا الشعر القصصي.

أما في النثر العربي فقد ظفر القصص إلى حد ما بما لم يظفر به في الشعر من الاستقلال والحياة، لكنه لم يظهر في العصر الجاهلي لندرة النثر، ولأنه كان قاصراً على الخطب والمحادثات، ولم يدون منه إلا اليسير. ولم يعرف النثر إلا في أواخر العصر الأموي عندما ترجمت قصص (ألف ليلة وليل) ومع ذلك لم يبعث هذا الكتاب شيئاً من الحياة القصصية في النثر العربي فظل على حاله الأولى.

ثم كان فجر العصر العباسي، وإذ ذاك ترجم ابن المقفع بعض كتب قصصية عن الفارسية، فكانت فتحاً جديداً في النثر العربي والتي كان منها «كليلة ودمنة» والتي بعثت

روحاً قصصية لم تكن في الأدب العربي من قبل ثم نشطت أقلام بعض الكُتّاب كان منهم ابن فارس الذي ألّف المقامات ثم جاءت مقامات الهمداني والحريري لينحط بعدها هذا الفن. ثم جاء بعد ذلك المعري برسالته «رسالة الغفران» وفيها يجد الباحث ما لا يجده في غيرها من الصور الشعرية والجمال الفني.

وجواباً عن السؤال الثاني: أن القصص العربي لم يكن من ذلك النوع الذي ينقد ويمحص وإنما كان أحد أنواع ثلاثة: إما قصص يقصد به اللذة والإمتاع وهذا ما نجده عند ابن أبي ربيعة، وإنما قصص يراد منه الحكمة وضرب المثل وهذا ما يمثله «كليلة ودمنة» وإما قصص يقصد للنكتة الأدبية والنادرة اللغوية ويمثل هذا فن المقامات.

وخلاصة حديثة، فإنه لم يكن نصيب للقصص العربي من الخيال الشعري، لأن الخيال الشعري لا يضطر إليه إلا من أراد خوض ظلمات الحياة، وإنفاقها، واستطلاع ما في خفايا النفوس من صور ورسوم، والقصص العربي لم يجشم نفسه ركوب هذه السبل الغامضة المتعرجة، بل اتباع تلك الطريق المنبسطة الواضحة، تلك الطريق اللاحبة العارية التي سارت عليها أساطير العرب وآدابهم.

الفصل السادس: فكرة عامة عن الأدب العربي

قدم الشاعر لهذا الفصل بقوله: قد انتهى بي البحث في الأدب العربي وتتبع روحه في أهم نواحيه إلى فكرة شائعة فيه لا يشذ عنها قسم من أقسامه ولا ناحية من نواحيه، وهاته الفكرة هي أنه أدب مادي لا سمو فيه ولا إلهام ولا تشوف إلى المستقبل ولا نظر إلى صميم الأشياء ولباب الحقائق، والباحث لا يسمع فيه إلا هدير العواطف بين جنبيه، وخرير المياه في عروق الكون، فيعييه البحث ويطلحه السعي ثم لا يجني من وراء ذلك غير الألم المرهق واليأس العقيم.

وهو لا ينكر أن الأدب العربي قد أجاد فيما تخصص فيه من وصف المظاهر البادية وما بينهما من تخالف أو تشابه أو تنافر، بل ربما فاق كثيراً الآداب الأخرى في هذا الصدد، والأدب العربي ليس جامداً ميتاً، بل كان في كل العصور حياً صحيحاً فياضاً بكل ما تصبو إليه آمال الشعوب من صور الحياة ومثلها المختلفة.

فكان في الأدب الجاهلي بدوياً محضاً تسمع فيه رنة الصوت البدوي الأجش بكل ما فيه من عزة وادعاء، وكان في الأدب الأموي على قسمين: الأول يصور الحياة العابثة

المخلة إلى البطالة واللهو، والثاني قسم يمثل الحياة الجادة العابسة التي تتلقفها الأهواء السياسية والدعوات الحزبية المتباينة. أما الأدب العباسي فكان لاهياً ماجناً خليعاً في عنفوان المجد العباسي، ثم حائراً متشككاً مضطرباً في أواخر القرن الثالث وما بعده. وكان الأدب الأندلسي مستهتراً مسرفاً في اللذة والمجون، لأن الأمة الأندلسية كانت صبية لاعبة تمرح بين الرياض والجداول.

وهذه الصفات تلائم الأذواق في عصورها، ولكنه لا يلائم روحنا الحاضرة ومزاجنا الحالي ورغائبنا في هذه الحياة وما نريده الآن، أدب قوي عميق يوافق مشاربنا ويناسب أذواقنا في حياتنا الحاضرة، بما فيها من شوق وأمل.. ولهذا فلا ينبغي لنا إلى الأدب العربي كمثلٍ أعلى للأدب الذي ينبغي أن يكون، ليس لنا إلا احتذاؤه ومحاكاته في أسلوبه وروحه ومعناه، بل يجب أن نعده كأدب من الآداب القديمة التي نعجب بها ونحترمها، وأن لا نعجب به إلى درجة التقديس، والعبادة، لأن لكل عصر حياته، ولكل حياة أدبها. وعلينا أن نتخذ لنا أدباً قوياً فيه الحياة الحاضرة بما فيه من عمق الفكرة وسعة الخيال ودقة الشعور، أما أن نتخذ الأدب العربي الذي عرفنا خلوه من هاته الأمور فذلك هو الخمول وذلك هو الموت الزؤام.

لقد أصبحنا نتطلب حياة قوية مشرقة ملؤها العزم والشباب، ومن يتطلب الحياة فليعبد غده الذي في قلب الحياة. أما من يعبد أمسه وينسى غده فهو من أبناء الموت، وانضاء القبور الساخرة.

ولا خير في أمة عارية تكتم فقرها، ولا خير في شعب جائع يظهر الشبع، وشر من كل ذلك أمة تقتني أثوابها من مغاور الموت ثم تخرج في نور النهار متبجحة بما تلبس من أكفان الموتى وأكسية القبور.. !

إن الشابي في حديثه هذا جريء، أعلن رأيه بكل صراحة وجرأة وهو رأي خاص به، ومهما كان لنا من تحفظات على رأيه، فإنه يعلن بعد ذلك أنه لا يغض من هذا الأدب الذي لم يخلق لنا والحديث يوجهه الشابي «منا معشر التونسيين» ولم نخلق له غذاء لأرواحنا وحريقاً لقلوبنا لا نترشف غيره، وهو يقول ذلك ويعلم أنه سيغضب طائفة كبيرة ممن يؤثرون الحياة في أكناف الدهور الغابرة. ويعلن أيضاً أن حسبه يعلن هذا وقد أرضى نفسه به، ويطلب أن يخبره الغاضبون من حدثهم عن تلك المعاني العميقة من تلك

الأعمق من الموت والأشد سعة من الحياة، كما يتساءل: هل تجدون في العربية من يستطيع أن يحدثكم عن هذه العواطف العنيفة التي تهز أسس الحياة هزاً؟ أو أي شاعر عربي يستطيع أن يحدث حديثاً مغرياً جميلاً عن الحب؟

وأي شاعر عربي يستطيع أن يحدث حديثاً صادقاً عن نشوة الحب وسكرة المشاعر؟ أو أي شاعر يحدث عن الأمل؟ وأي شاعر عربي يستطيع أن يحدث حديثاً مغرياً جميلاً عن الحب؟ وأي شاعر عربي يقتدر أن يصور معنى الأمومة الحانية الرؤوم؟ وبعد أن طرح تساؤلاته يجيب: كلا، لأن الأدب العربي أدب مادي محض لا يعرف من عالم الخيال إلا أضواءه الأولى وغيومه الناشئة.

ثم قدم الشابي شواهد من آداب الأمم الأخرى وأشار بمثال عن «لامارتن» وهو يتحدث عن نشوة الحب الشاملة، وتغمره سعادة الحب وغبطة القلب مما جعله يستغرق في هذا العالم الرائع استغراق الصوفي الصميم في ربه، ثم يقارن بينه وبين شعراء العرب أمثال المجنون أو قيس بن ذريح أو جميل أو عمر بن أبي ربيعة وغيرهم من الشعراء، مع أنهم تذوقوا الحب كما تذوقه لامارتن، ولكن الروح العربية روح مادية تقنعها النظرة العجلى التي تعلق بالسطح دون الجوهر واللباب، والأدب العربي تحدث عن الحب من خلال أغراضه ولوازمه وتحدث بوهم عن الأمل، وقدمشاهداً في قول الشاعر:

هــل الحــب إلا زفــرة بعــد زفــرة   وحــر عــلى الأحشــاء لــيس لــه بــرد
فــيض دمــوع العــين يــا مــيّ كــما   بــدا علــم مــن أرضــكم لم يكــن يبــدو

كما مثل على ذلك من شعر ابن الفارض الذي سار على سنّة الأقدمين في قوله:

هو الحب فاسلم بالحشا والهوى سهل   فــما اختــاره مضــنى بــه ولــه عقــل

وعن الأمل في قول الطغرائي:

أعلــــل الــــنفس بالآمــــال أرقبهــــا   «ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل»

وعلق على القول: إن الطغرائي تحدث عن أثر الأمل ولم يتحدث عن الأمل نفسه وكأن الشاعر العربي في كل ما تحدث عنه استفز شعوره فعمد إلى رسمه كما أبصره بعين رأسه لا بعين خياله وشبهه بالمصور الفوتوغرافي ولا يهمه إلا التقاط الصور وإظهارها كما هي، تاركاً للمشهد وحده أن يثير في نفس الناظر ما يثير.

أما الشاعر الغربي فإنه يفتح أمام القارئ مغاليق نفسه ليريه ما أهاجه من المنظر من عاطفة راكدة ووجدان كمين، ويجعله يلمس بقلبه ذلك الوتر الذي اهتز في أعماق نفسه بعد أن وصف المنظر، وسبغ عليه من الخيال الجميل حلة ضافية مشبوبة متأججة، وهذا الذي يجعلنا أن نحس من الصوت الغربي قوة وبعد رنين أقوى من الصوت العربي الخافت الضعيف لأن مصدر هذا الصوت هو الشكل واللون والوضع.

ويستمر الشابي في مقارناته فيؤكد: أن الشاعر العربي يبسط الفكرة في بيت فرد أو جملة واحدة ثم يتابع أفكاره بحيث تتكون القصيدة من كل لون أو وصف ومن كل فئة وقبيل، فتنبت الأفكار في صعيد واحد متماسك. أما الشاعر الغربي فإنه يعرض أمام النفس الصورة والأسباب والعوامل التي تحرك في النفس ذلك الرأي بصورة شعرية تحليلية ثم يلقيها في حلة ضافية من الشعر والخيال.

ويستمر في الدفاع عن وجهة نظره فيوضح الفرق بين الطريقة العربية والطريقة الإفرنجية في تناول الأشياء والنظر إليها، فيقارن بين قصيدة ابن زريق البغدادي الذي يقول في أولها:

لا تعذليـــه فـــإن العـــذل يولعـــه   قـد قلـت حقـاً ولكـن لـيس يســمعه

وبين الشاعر الاسكتلندي (أسيان)ليوضح أن ابن زريق يصف بؤسه وشقاءَه وقد ركز في القصيدة على يوم الوداع ليبين أن الشاعر العربي يستعيد ذكراه الأليمة وهي كل ما بقي له من ماضيه الجميل سواء من الوداع أو تشبث الحبيب به والدموع المنهلّة.

أما الشاعر (أسيان) فيصف تلك الذكريات المتفجعة بذكر أمسه الذي تلقى فيه أمضى سهم من سهام القدر وهو يقول على لسان (أزمين) لما تذكر مصرع ولديه، حين ينادي رياح الخريف لتهب وتعصف فوق سهول الخلنج العابسة لتصدم العواطف في رؤوس السنديان في موقف وداعي فيسمع بكلماته النارية زفير القلوب وشهيق الأرواح البائسة على عكس ابن زريق الذي يستقصي كل شيء بينما أسيان يوجز في البيان، وبينما يذهب ابن زريق إلى بث أوجاعه وحسراته هينة كأنفاس طفل نائم تساوره الأحلام المزعجة حتى ينتهي نفس القصيدة في صوت خافت يبعث به اليأس والأمل والموت في مثل قوله:

عـــلى الليـــالي التـــي ظنـــت بفرقتنـــا   جســـمين تجمعنـــي يومـــاً وتجمعـــه

فإن أسيان يكاد يسمعك صوته من خلال صعقات الحزن وآهات الأسى، فهو يكلم أرواح الموتى من فوق الهضبة ومن أعلى الجبل ويلخص قوله في نهاية الفصل بسطرين مفادهما: هكذا كانت الروح العربية متكتمة لا تسمح للنور أن يلامس أحلامها، ولا للظلمة أن تعانق آلامها، وأما الروح الغربية فهي متبسطة تلقي بأفراحها وأتراحها تحت أقدام الليل وفوق أجنحة الرياح ...

الفصل السابع: الروح العربية

إن كل ما أنتجه الذهن العربي في مختلف عصوره كان على وتيرة واحدة، والروح السائدة في ذلك هي النظرة القصيرة الساذجة التي لا تنفذ إلى جواهر الأشياء وإنما تنصرف إلى الشكل والوضع واللون والقالب. وتتحدث عن الطبيعة بألوانها وأشكالها، ولا يهمهما من المرأة إلا الجسد البادي، وهي في القصة لا تتعرف إلى طبائع الإنسان وآلام البشر، أما في الأساطير فلم تعبر عن فكر سام وخيال فياض، هذا ما عرض له الشابي في الفصول السابقة.

والسؤال الآن: ما هذه الروح وما هو طبعها الخاص؟

الروح العربية خطابية مشتعلة ومادية محضة لا تستطيع الإلمام بغير الظواهر مما يدعو إلى الاسترسال مع الخيال، ومن هاتين النزعتين، كان لها ذلك الطبع الشبيه بالنحلة المرحة لا تطمئن إلى زهرة حتى تغادرها إلى أخرى، تلك هي الروح العربية وذلك هو طبعها. وكان لهاتين النزعتين الأثر الكبير في إضعاف ملكة الخيال الشعري في النفسية العربية، لأن الخيال مصدره الشعور، وكلما كان الشعور دقيقاً، كان الخيال فياضاً قوياً، ولا يمكن أن تجتمع الخطابة ودقة الإحساس في نفس إلا ندوراً، لأن الخطابة تعتمد المزاج الناري والنظرة البسيطة، ودقة الإحساس تستلزم المزاج الهادي والنظرة الطويلة والإحاطة الشاملة ولهذا كان الخطباء المصاقع والفصحاء المصاليت.

وكان لهاتين النزعتين أثر في نظرة العرب إلى الشاعر، حيث كانوا لا يفرقون بينه وبين الخطيب، حتى أنهم جعلوا لشعرائهم أرواحاً تملي عليهم الشعر ليست بأرواح الملائكة أو الآلهة كما كان في أساطير غيرهم، وإنما جعلوها شياطين تصقل لسان الشاعر وتجعله أدنى إلى بلاغة القول وجزالة الخطاب، وما ذلك إلا لأنهم لا يرون في الشاعر إلا خطيباً ينظم ما يقول.

وقدم أمثلة على فكرته حين بين أن من هذه الخطب الشعرية قصائد عمرو بن كلثوم ومجمهرة بشر بن حازم وأمية بن أبي الصلت وملحمة الفرزدق والأخطل وجرير والراعي، وهناك أمثلة كثيرة في الشعر العربي الذي لا فرق بينه وبين الخطابة إلا في الوزن والقافية يضيق المقام عن ذكرها في رأيه، ثم قدم مثالاً كشاهد من قصيدة الحارث بن عباد التي قالها لما قتل المهلهل ابنه بحيرا وقال له: «بوء بشسع نعل كليب» يستفز الحمية في قومه لخوضه غمرات الحروب، يقول الحارث بعد أن بكى ابنه وأمر أمه أن تطيل عليه النحيب:

لهف نفسي على بحير إذا ما　　جالت الخيل يوم حرب عضال
يا بحير الخيرات لا صلح حتى　　نملأ البيد من رؤوس الرجال
وتقر العيون بعد بكاها　　حين تسقي الدما صدور العوالي

ويكمل الشابي في كتابه القصيدة بما فيها من بكاء واستنهاض للهمم والثأر والافتخار بشجاعته وقوته على طريقة بدوية، يدوي فيها الصوت ليظهر براءته ويظهر تغْلِب بمظهر الباغي، وأنهم إن سكتوا حملوا سبة الدهر وذلة الأبد:

قتلوه بشسع نعل كليب　　إن قتل الكريم بالشسع غال

حتى إذا تيقن من صبوة قومه إلى الحرد، هدد تغلباً وافتخر بقومه ليؤجج حماسهم وينفخ في قلوبهم روح البطولة صاح قائلاً:

قربا مربط النعامة مني　　لقحت حرب وائل عن حيال

وظل هكذا بين رنة الحزن إلى صيحة الانتقام ومن لهجة المسكنة إلى صرخات الجبابرة، فانقلب إلى فارس فاتك يلهج ببأسه:

رب جيش لقيته يمطر المو　　ت على هيكل خفيف الجلال

ثم عاد يرتجل أغاني المجد القديم ويعيد أناشيد الفوز والانتصار:

سائلوا كندة الكرام، وبكرا　　واسألوا مذحجاً وحي هلالا
إذا أتونا بعسكر ذي زهاء　　مكفهر الأذى، شديد الصيال
فقريناه حين رام قرانا　　كل ماضي الذباب غضب الصقال

وفي رأي الشابي أن هذه القصيدة إنما هي خطبة رائعة ألقاها خطيب مفوه، وهذه تذكر بخطبة (أنطونيو) التي ألقاها على شعب روما يطالبهم بالانتقام لقيصر.

ثم قال: وكان لكثرة المترادفات في اللغة العربية أثرها الكبير في النزعة الخطابية التي تؤثر الفصاحة على أي شيء آخر، ومن تلك الآثار ميل العرب إلى الإيجاز الذي يعدونه روح البلاغة، وهاتين الخاصيتين - الفصاحة والإيجاز - هي التي فرضت في الشعر العربي وحدة البيت، فكانت القصيدة العربية لا تدور على محور واحد تحيط به من جميع النواحي وإنما هي كون صغير تحشر فيه الأفكار حشراً وترص فيه المعاني رصاً...

وكان سبب هذا، أن العرب نشأوا في رقعة من الأرض ساهمة واجمة لم تجر عليها الطبيعة ريشة الفن، ولا ضربت عليها سحر الجمال، فظلت محرومة من ذلك الجمال الإلهي الذي يغمر النفس بما يفيض عليها من سعادة الحس ونشوة الشعور، فقد شب العرب تحت سماء ضاحية صاحية، لا يحجبها سحاب مركوم ولا ضباب كثيف، وليس تحتها غير الصحراء الأبدية الصامتة، فكان لهم من ملامح الصحراء الشاحبة ومن طبيعة الأرض القاحلة، هذا النحو من الحياة الذي لا يعرف رغد العيش ولا روح السلام ولا يفقه دعة الحياة ولا غبطة العيش، إنما هو ثورة جامحة كالرياح لا ترتوي ولا تشبع ولا تسكن إلى راحة ولا تخلد إلى سكون. فكان لهم تلك الروح الخطابية الثائرة التي تعصف بكل شيء.

أما المادية فقد تكونت في أنفسهم لأن العرب - كما سبق - لم يكونوا من خفض العيش الجميل وغضارة الحياة الناعمة وطلاقة الطبيعة الفاتنة على شيء يبعث في أنفسهم تلك النزعة المفكرة التي تتوغل في دخائل الأشياء وأسرارها دون ملل أو فتور، وكذلك تكونت المادية في أنفسهم بسبب طبعهم العجول والمتسرع في أرضهم المغبرة الكالحة، وأن من عاش بين مثل هذا الطبع الجموح وتلك الطبيعة العارية بمستغرق في الفكر أو متعمق في الشعور.

وهكذا تضافرت طبيعة الأرض ولون الحياة على خلق الروح العربية مطبوعة بطبائع الخطابة، مصبوغة بصبغة مادية خالصة.

ويكمل بحثه بقوله:حري ّ بعدئذ أن تقولوا: إن هاته العوامل لا يمكن أن تؤثر إلا في العصر الجاهلي، أما العصر الأموي والعصر العباسي فهي بمعزل عن مثل هاته العوامل التي ألقت على الروح العربية ذلك الرداء، حيث تغيرت هاته العصور وتغيرت الأوساط التي عاش فيها العرب وألفوها، ثم يتساءل عن السبب الذي ظلت تسود روح واحدة في هاته العصور. ويجيب الشابي نفسه: إن هذه العصور الثلاثة قد أثرت على آدابها عوامل أخرى قربت بينها وبين الأدب الجاهلي في الروح والفكر والخيال وهذه العوامل هي:

أولاً : الوراثة: فقد كان العصر الأموي عصراً عربياً في طبعه ومنزعه وشعوره، ولم تختلط فيه الأمة العربية بغيرها، فظلت لذلك حافظة لميراثها الروحي، وظلت آداب هذا العصر شبيهة كل الشبه بآداب الجاهلية الأولى، لا أثر للتجديد فيها إلا في الشعر القصصي الذي انفرد به ابن أبي ربيعة وإلا في الشعر السياسي الذي أدخله الزعماء إدخالاً وأوجدته حال الأمة العربية لأسباب التنافس والأحقاد. على أن هذا الغرض كان موجوداً في العصر الجاهلي ومنشؤه تنازع القبائل على الشهرة بين العرب.

ثم جاء العصر العباسي، واختلطت الأمة العربية بغيرها من الأمم وامتزج الدم العربي بغيره، واستوطن كثير من الأعراب المدن والأمصار فظهرت في الأدب العربي ظاهرة جديدة هي الشعر الطبيعي الذي لم يعرفه الأدب الجاهلي والأدب الأموي إلا قليلاً، لكن المزاج العربي طبع هذا النوع من الأدب بطابعه الخاص المادي فكان حسياً لا يتحدث عن اللون والشكل.

أما الأدب الأندلسي فقد تأثر بذلك المزاج العربي وبالأدبين الأموي والعباسي وخاصة في أول الأمر عند دخول الأندلس، لكن امتزاج هذا الشعب العربي بالعنصر الأندلسي، ودخول هذا العنصر في الإسلام واتخاذه اللغة العربية أداة للتعبير، واختلاف بلاد الأندلس عن جزيرة العرب في الهواء والمشهد وطبيعة الأرض، عملت عملها فأثرت في الأسلوب الأندلسي وطبعته بطابع تلك الأرض الجميلة وصقلته بصيقل ذلك الوسط فأصبح رشيقاً، خاصة عندما ضعف المزاج العربي الموروث أحست الأمة إحساساً غامضاً بالحاجة إلى التعبير عن روحها الأصلية المستوحاة من طبيعة الأندلس فجددوا في الأوزان ولم يجددوا في الروح وتفننوا في الأساليب ولم يتفننوا في الجوهر واللباب.

ثانياً كان يفهم من الأدب عند نَقَدَ َة الإسلام، فإن هؤلاء النقدة كانوا لا يفهمون الأدب على حقيقته من أنه صوت الحياة وبِمعنى أوضح، رأوا أن الشعر لا يقصد لنفسه كفن جدي من فنون الحياة له روحه وأطواره ونزعاته، أما القدماء كعمرو بن العلاء وطبقته فقد نظروا إلى لأدب كوسيلة من وسائل الدين، لأنهم درسوه ليتفهموا غريب القرآن والسنّة وهذا جعلهم لا يفهمون الأدب إلا أنه ألفاظ وتراكيب وجمل وأساليب تساعدهم في فهم إعجاز القرآن، فتعصبوا للشعر الجاهلي، واستشهد دليلاً على ذلك بالأصمعي الذي جالس عمرو بن العلاء ثماني حجج واعتبروا الخير في اتباع العرب

كالاستهلال بالنسيب ووصف الرحلة والأطلال ولو كانوا من سكان الحواضر، وهذا المذهب اللفظي أو الديني الذي انقلب عليه أبو نواس في معظم قصائده واستشهد بقوله:

راح الشقي إلى دار يسائلها ورحت أسأل عن خمارة البلد
يبكي على طلل الماضين من أسد ثكلت أمك قل لي من بنو أسد
مَنْ تميم؟ ومن بكر سقوا مهلا ليس الأعاريب عند الله من أحد
لا جف دمع الذي يبكي على حجر ولا شفي قلب من يصبو إلى وتد

ويقول:

لا تبك رسماً بجانب السند ولا تجد بالدموع للجدد
ولا تعرج على حمى عرج والنوء كالحوض بالملا الجلد
وعد عنها إلى دساكركم تربط بها خيمة إلى وتد

ومع ذلك فكثيراً ما كان يسترضي السلفيين لكي يقبلوا على قصائده.

أما الطائفة الثانية من النَقَدَة فقد رأت أن الأدب وسيلة من وسائل اللهو وعلى عهدهم انتشرت تلك الأفكار المسَمومة التي لا تفهم من الشعر إلا أنه نوع من الشحاذة وضرب من الاستجداء ومن أئمة هذا المذهب ابن رشيق، ومن أثر هؤلاء أصبح لا يعني الأدب العربي إلا باللفظ وما مت إليه من مجاز واستعارة وجناس ومقابلة وإن كثرت ثروته اللفظية وقلت ثروته المعنوية

ثالثاً: لم يطلع العرب في جميع العصور الماضية على آداب الأمم الأخرى، مع أنهم ترجموا من مختلف العلوم العقلية، فترجموا فلسفة اليونان وحكمة فارس وعلومها. أما آداب ليونان والرومان فلم يترجموا منها شيئاً، ظناً منهم أن فيها نزعة وثنية، ويقرر الشابي أن سبب ذلك هو الغرور، فقد كان العرب معتزين بأدبهم ويحسبون أنه كل شيء، ولذلك لم يجدوا حاجة تدفعهم إلى ترجمة الآداب الأخرى، وظل المثل الأعلى الذي تحتذيه العصور الإسلامية في روحه وأسلوبه هو الشعر الجاهلي.

ولعدم اطلاع العرب على تلك الآداب ظلت آدابهم على حالها في جميع الأجيال زيادة على تلك الدعايات المتكررة التي قام بها طوائف النقدة في جميع العصور. وخلص الشابي في نهاية حديثه إلى القول: تآلفت هذه العوامل الثلاثة على إبقاء المزاج العربي

الصميم في نفسيات الأمم الإسلامية وعلى طبع آدابها بالطابع الذي انطبع به الأدب الجاهلي من قبل.

هذا ما قدمه الشابي وباختصار شديد عن الخيال الشعري عند العرب، وقد أثبته في الكتاب للاطلاع على رأيه ووجهة نظره دون التدخل أو النقد، لأن كتابنا هذا في حياته وشعره، وبإمكان من يريد الاستزادة الرجوع إلى الكتاب بعنوان «الخيال الشعري عند العرب» لأبي القاسم الشابي والاطلاع عليه كاملاً لزيادة المعرفة الكامنة فيه.

شخصية الشابي

عاش الشابي حياة قصيرة من ١٩٠٩-١٩٣٤، وعانى من المرض معاناة شديدة، ورغم هذه الحياة القصيرة فقد صدر عدد من الكتب تتحدث عن حياته، وكتبت مقالات عديدة عن أدبه، كما أُلفت عناوين متنوعة عنه، فكان شاعر الحب والحياة، وشاعر الحياة والموت وشاعر الحب والثورة، كما صدر ديوان أغاني الحياة، ثم صدرت مؤلفاته عن حياته وعن أدبه، وكثرت الردود على هذه الإصدارات التي تعكس نفسية الكُتّاب والأدباء سواء من كانت تربطهم رابطة القطر والوطن أو من كانت تربطهم به علاقة الشعر والأدب أو من كان لديه حب البحث والعرض، ومن هؤلاء الأدباء من عارض الشابي في فكره ورأيه كما وجد من وافقه وأثنى عليه، ورغم ذلك فإننا نقول إن الشابي كان شاعراً فذاً سواء اتفقنا أو اختلفنا معه، وهذا مما جعلنا نتبين عناصر شخصية هذا الشاعر التونسي الذي أصدرت عليه أحكام كثيرة، فما هي هذه العناصر التي كونت شخصية الشابي؟

كان أبو القاسم الشابي منذ صغره ضعيف البنية، نحيف الجسم، مديد القامة، ذكياً حاد الذهن سريع الانفعال، ومع ذلك فقد كان رضياً بشوشاً قانعاً متواضعاً خجولاً كثير التسامح، رقيق الطبع لطيف المعشر خافت الصوت قليل التكلف في حياته الخاصة والعامة[1]، وكانت تعلو وجهه دائماً مسحة من الكآبة والوجوم رغم محاولته اصطناع المرح في معظم أوقاته وهذا ما بينه الحليوي أحد أصدقاء الشاعر وكان في زيارة له بينما كان الشابي يصارع الموتقال«كان ذلك الذي اقتبلنا هاشاً باشاً حتى جعلنا نُسرّ من حالته ونحسب شفاءه كأنه أمر محقق، وما درينا أن الرجل يصارع الموت ويغالب آلام النزع ليقوم بواجب ملاطفتنا وإيناس وحشتنا».

ويقول أبو القاسم محمد كرو: «إن حياة الشابي مليئة بالشقاء والألم، عامرة بالأحزان والأتراح، طافحة بالحرمان والتعاسة مغمورة بالكآبة والأسى، ولسنا نعرف شاعراً في مثل بيئة الشابي وأجوائه تجمعت عليه مثل هذه من ضروب العذاب وألوان الشقاء، ففجرت في فؤاده الأغاني، وألهبت قلبه بالحب وقادته إلى حياة صوفية سامية تميزت بتبرمه

(١) عمر فروخ: الشابي شاعر الحب والحياة، ص١١٦.

العنيف وثورته الجارفة»[١]، وليس من شك في أن للبيئة أثراً كبيراً واضحاً في حياته وشعره وتشكيل شخصيته. حيث عاش الرجل في فترة سياسية عصيبة، حين كان الوطن العربي يعيش أياماً حالكة السواد تحت ظلم المستعمر الغاشم، ويعاني أهل وطنه فقراً وظلماً وقهراً اجتماعياً وسياسياً وثقافياً، لأن المحتل لم يكن يحرص على نشر التعليم في البلاد المحتلة حتى لا تتعرض مصالحه للخطر أو المقاومة، وما فعله المحتل للبلاد العربية آنذاك من إرسال البعثات أو فتح مدارس الإرساليات إلا لخدمة أغراضه الخبيثة التي قصدها، ومع ذلك فقد خرجت مجموعات قليلة عن أُطر ما رسمه المحتل فقامت حركات الإصلاح والتجديد واستمدت قوتها من الآداب العربية القديمة، وكان الشابي واحداً من هؤلاء التي تهيأت له الظروف إذا ما عرفنا أنه من أسرة الشابية التي شهد لها سجل تونس أنها صاحبة باع طويل في القلم والسيف.

كان والد الشاعر، وهو الشيخ محمد بن بلقاسم عالماً، درس في الأزهر ثم في جامع الزيتونة واشتغل بالقضاء وتنقل في أماكن متعددة مما أتيح للشاعر فرصة التعرف على القطر التونسي من شماله إلى جنوبه ومن شرقه إلى غربه ثم ليتعرف على طبائع مختلفة في قطر واحد. فكانت رحلته الأولى في العلم والمعرفة، ثم حفظ القرآن وهو في سنواته الأولى قبل العاشرة من عمره، وكأنه كان يسابق الزمن حتى حصل على شهادة «التطويع» مع أنه مال إلى الأدب والأدباء ولم يعمل قاضياً مثل والده، إلا أنه أظهر عبقرية أصيلة وشاعرية فذة فكانت أولى قصائده وهو في سن الرابعة عشرة، وهذا ينم عن شاعرية مبكرة تظهر نضجاً شديداً تدل على تجارب كثيرة، وإن لم ترَ ضوء النهار، ولم يتذوق حلاوة العيش إلا مدة قصيرة لتقصفها المنية في بداياتها. ومع ذلك فقد «سجل الشابي في شعره كل همسة بينه وبين نفسه الكبيرة، ولأنه كان صادقاً في شعره، وتحدث عما يشعر به فقد بدت مواقفه متناقضة أحياناً ... لأن الحياة نفسها متقلبة كالأنواء»[٢].

لقد استيقظ الشابي من طفولته الأولى مشدوداً إلى حاجات يومية في حياته، وقد عشق الحياة حراً بدون قيود اجتماعية، فصبا إلى ذلك، ولكنه لم يتحقق، فقد مات والده،

---

(١) الشابي، أبو القاسم محمد كرو، ص٣٥.
(٢) مع الشابي في ديوانه، حلمي محمد عبدالهادي.

وجعله مضطراً إلى الانغماس في تكاليف الحياة مما حرمه من الراحة والسعادة، فراح يشكو في قصائده قائلاً:

ليـــت لي أن أعـــيش في هـــذه الدنـــ ـــــيا بوحـــــدتي وانفـــــرادي
أصرف العمـــر في الجبـــال وفي الغـــا بـــــات بـــين الصـــنوبر الميّـــاد
لـيس لي مـن شـواغل العـيش مـا يصـ ـــف نفسيـ عـن اسـتماع فـؤادي

هذه أمنيات كان يتمناها الشاعر ويصبو إليها، ولكن هل جاءت من فراغ؟ وهل انبثقت شاعريته من نعيم كان يحياه؟ إن واقع ما قرأناه عن حياته يدلنا على أنه بائس ومتشائم بسبب مرضه الذي رافقه في حياته.

فبعد أن مات والده راح يصارع الحياة ليضمن العيش لأسرته ويرعاها ويدبر شؤونها ليكفيها حياة الكفاف، دون أن يسعى إلى ذلك بشعره، فلم يلج باباً من أبواب الارتزاق من المناصب الحكومية، بل رضي بحياة بسيطة، وهذا ما عناه بعض معارفه: «كنا نرى في نفسه الزكية مثال القناعة في أفضل ألوانها والطموح على خير وجوهه»[١].

وقد وصف الشابي نفسه وحياته مع أسرته ورعايته لإخوته وأعباء الحياة التي حملها بعد وفاة والده في قصيدة «قيود الأحلام» جاء فيها:

وأود أن أحيـــا بفكـــرة شـــاعر فـأرى الوجـود يضـيق عـن أحلامـي
إلا إذا قطّعـت أسـبابي مـع الـدنيا وعشـــت لوحـــدتي وظلامـــي
عـيش عيشـة زاهـد متنسـك مـــا إن تدنســـه الحيـــاة بـــذام
فـأعيش في غـابي حيـاة كلهـا للفـــن، للأحـــلام للإلهـــام
كننـــي لا أســتطيع فــإنّ لي ــاً يصـــد حنانهُ ـــا أوهـــامي
وصـغار إخـوان يـرون سـلامهم في الكائنـــات معلقـــاً بســـلامي
فقدوا الأب الحاني فكنت لضعفهم كهفاً يصد عنهم غوائل الأيام.

هذه هي الحياة التي أشغلته عن دنياه وعن عالمه، وهذه هي الأيام التي حلم أن يعيش فيها حراً، نجده مكبلاً، لأنه ضحى بأحلامه من أجل أسرته التي تركها له والده

(١) الشابي، محمد كرو، ص٧٦.

إرثاً يحمله على عاتقيه، فقد هجمت عليه الدنيا بأهوالها، من غير إنذار فتحطمت نفسه على شواطئ رحبة عميقة، وتأججت آلامه، فيقول:

ما كنت أحسب بعد موتك يا أبي ومشاعري عمياء بالأحزان
أني سأظمأ للحياة وأحتسي من كأسها المتوهج النشوان

أضف إلى ذلك ما عاناه الشابي من المجتمع والبيئة من حوله التي تضافرت عليه قوى الشر من المستعمر الفرنسي، الذي رآه بأم عينه يستغل كل إمكانيات وطنه ويستأثر بها ويسلب خيراته وثماره ويحول بين مجتمع الشاعر وبين كل حركة انطلاق، ليعيش الشعب في الفقر والمرض والجهل، ويقيم العراقيل أمام المخلصين من أبناء وطنه. رأى الشابي كل ذلك مما أثر في شخصيته وولدت عناصر هذه الشخصية.

ومما أثر في شخصيته وشكل عناصرها، مرضه الذي عانى منه والذي كان سبباً في تشكيل اتجاهاته في الحياة وفي شعره، فقد منعه هذا المرض من ملذات الحياة ومسراتها فجاء كثير من شعره متشائماً ناقماً على ما يجري حوله، حيث بدأ تأثيرها على تفكيره وشعره في السنوات الست الأخيرة من عمره وهي السنوات التي أخصبت في إنتاجه الشعري وقد نصحه الأطباء حينذاك بعدم القيام بجهد يتعب الجسم والعقل، فأثر عليه ذلك خاصة عندما استرق همسات أولئك الأصحاب فانفجر بمثل قوله: «سأعيش رغم الداء والأعداء» وقد وضح ذلك الدكتور محمد فريد غازي بقطعة من يوميات الشابي في قوله:

«... ما شرعت أكتب، وكلفت ابن عمي الصغير بأن يسخن سحورنا على البابور حتى اضطربت حركاته وتلعثم لسانه، فلم يستطع أن يبين. فقلت له:

– ماذا؟
–لم أجد بابوراً !
– أنسيته خارج البيت؟
– كلا أدخلته.
–وكيف فُقد إذن؟ أسرقته الشياطين؟ إنك نسيته خارجاً، يا مجنون!
– كلا، بل أدخلته !
– لا تقل أدخلته، يا كلب ! وهل سرقته الجن؟ ولو كنت صادقاً اذهب وابحث عنه خارجاً لعلك تلفيه.

فخرج الصبي، وقد أعمى النوم والخوف بصره، فلم يجده، فعاد والخيبة تغشى وجهه. فسألته:

- هل وجدته؟ فقال بانكسار
- كلا، ولكني أدخلته، والله.
- اسكت، يا كذاب ؟

وظل صامتاً وظ للْت ُ فكر، ثم اندفعت عليه ضرباً وشتماً في ثورة من الغضب العنيف، ثم أفاق أخَو الخطيبة فأعطيته حقه من الشتم والتقريع ثم سكت سكوت الغاب بعد العاصفة، وظللت كذلك حيناً».

هذا المقطع من يوميات الشابي يدلنا على أنه كان كئيب النفس وقد صرح بذلك في قوله: «تطغى على نفسي كآبة الملل فأصدف عن الكتب والناس ويوصد قلبي عن جمال الوجوه»[1].

وفي حياته مقالات كثيرة تدل على مثل قوله هذا، فقد تحدث صديقه محمد الحليوي عن ثلاثة أدوار لتشاؤم الشابي، فكان الطور الأول طور التشاؤم القائم، نحى فيه منحى جبران وفي هذا الطور لم يكن سبباً محدداً لتشاؤمه، أما الدور الثاني فكان تشاؤماً مصحوباً بالتعليل والتساؤل: ما نحن؟ ما الحياة؟ ما الممات؟ من أين جئنا وإلى أين نذهب؟ أما طوره الثالث فقد تبدد في كآبة عينيه لتشرق ومضات من الأمل، ويعزى ذلك إلى المناظر الجميلة التي شاهدها في «عين دراهم» التي اصطاف فيها عام ١٩٣٢ ولأثر شعر «لامارتين».

ومن هذه المؤثرات التي أثرت في شخصيته وانعكست على شعره، مطالعاته الواسعة، وتأثره بما قرأه عن الآداب القديمة وهذا واضح في بعض قصائده التي نظمها على نمط شعراء العصر الجاهلي، وهذا واضح في كتابه «الخيال الشعري» من العصر الجاهلي إلى العصر الأندلسي، فقد صرح الشاذلي بو يحيى عنه فقال: «إذا رنت قيثارته أتاك منها أنين اللزوميات للمعري». كما أننا نلمح عنده شيئاً من آراء محيي الدين بن عربي حين قال مقطوعته «قلب شاعر».

---

(١) هذا المقطع من كلام الشابي في إحدى رسائله إلى محمد الحليوي.

ـــل مـــــا هــــــب ّ ودب ّ ومــــــا قــام أو حـــام عـــلى هـــذا الوجـــود
مــــــن طيــــور وزهــــور وشـــــذا وينـــــابيع وأغصـــــــان تميـــــــد
وبحــــــــار وكهـــــــوف وذرى وديـــــــار وبـــــــراكين وبيــــــد
ٍضـــــياء وظـــــلال ودُجـــــى وفصــــول وغيــــوم ورعــــود
كلهـــــا تحيـــــا بقلبـــــي حــــرة غضـــة الســـحر كأطفـــال الخلــود

كما تأثر تأثراً عميقاً بالأدب المهجري، ومن الترجمات العربية عن غيرها من اللغات لأنه لم يكن يحسن لغة غير العربية، كما تأثر برباعيات الخيام «التي شقت أمامه طريق التنويع في القافية وعدد الأشطر، إلا أن يكون قد تأثر في ذلك أيضاً بالموشحات الأندلسية»[(١)].

وقد أوضح أبو القاسم محمد كرو أن الشابي قد تأثر كثيراً بالأدب المهجري، حيث ملك عليه تفكيره وأدبه، فقد أكثر من القراءة لأدباء شعراء المهجر وحفظ كثيراً من نثرهم وشعرهم منذ أيام طفولته. ويقول خليفة التليسي في معرض حديثه عن الشابي وجبران «وينعقد الإجماع على أن الشابي كان تلميذاً للمدرسة المهجرية» وقد عقد التليسي فصلاً كاملاً بعنوان «الشابي وجبران». ومن قصائده الخالدة في ذلك قصيدة «إرادة الحياة» التي مطلعها:

إذا الشــــعب يومـــــاً أراد الحيـــــاة فـــلا بـــد أن يســـتجيب القـــدر

وإذا كان هذا التأثر بحماسة شعراء الجاهلية أو بالمتنبي أو بالأدب المهجري أو بما قرأه من الآداب المترجمة عن الفرنسية والأمريكية وربما اليونانية فإنما كان لها تأثير في تشكيل عناصر شخصيته والتي ظهرت واضحة في أشعاره. لكن مرضه ووفاة والده وفقدانه لحبه الأول بموت حبيبته وحياته المادية، كلها تضافرت معاً لتجعل من هذه الشخصية قصيرة العمر شخصية فذة، أنتجت شعراً وأدباً لم تنتجه أعمار طويلة، شكلت عبقرية رجل قوي الشخصية، تصرف ذهن الباحث عن تأثره إلى ميدانه الشعري.

(١) د. عمر فروخ، الشابي شاعر الحب والحياة، ص١٢٦.

فلسفته وشاعريته

عاش الشابي في فترة كانت تهب رياح التغيير على الفكر والآداب العربية، حيث بدأت تظهر في عالمنا العربي الحركة الرومانطيقية، وقد اطلع الشابي عل مؤلفات جبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة من أدباء المهجر وعلى مؤلفات العقاد والمازني وأبي شادي من جماعة «أبولو». كما درس المؤلفات الرومانطيقية المترجمة عن الأوروبيين، فكان من الطبيعي أن يتأثر بهذه المؤلفات وأن يخط لنفسه طريقاً داخل هذا الاتجاه. فدعا إلى التجديد في الشعر العربي وصاغ آراءه في كتابه «الخيال الشعري عند العرب». وقد أقام مقارنة بين الشعر العربي القديم وبين الشعر الأوروبي القديم والحديث حتى خلص إلى قوله: «لقد أصبحنا نتطلب أدباً جديداً نضيراً يجيش بما في أعماقنا من حياة وأمل وشعور».

سيطرت على الشابي مشاعر وأحاسيس كثيرة، ربما تعود إلى مثاليته الروحية التي ترى الحق والصدق أقدس ما في الوجود، فاستعان بالطبيعة ذات المناظر الخلابة من أجل جلاء الصور الشعرية التي تجتمع مع جوهر أفكاره ومشاعره التي يريد التعبير عنها.

فأنت حين تعود إلى قصائده تجد أنه أكثر من التمثل بالطبيعة، فصور لليل قلب ينبض، وجعل للزهر جفن فقال:

فلعـــل قلـــب الليـــل أرحـــم بـــالقلوب الباكيـــة
ولعـــل جفـــن الزهـــر أحفـــظ للـــدموع الجاريـــة

كما جعل للنهار لساناً، وللزنبقة قلب يخفق، وربما كان كل ذلك رموز يصور بها ظلمة الحياة ليبحث بعد ذلك عن الحرية وعن الضياء، فالحرية عنده هي الحياة وهذا مبدأ من مبادئ الرومانتيكية التي تسعى دائماً إلى الغاية المطلقة، يقول الشابي في قصيدة «أراك»:

أراك فتحلـــو لـــدي الحيـــاة ... ويمـــلأ نفسيـــ صـــباح الأمـــل
وتنمـــو بصـــدري ورود عـــذاب ... وتحنـــو عـــلى قلبـــي المشـــتعل
راك فـــأخلق خلقـــاً جديـــداً ... ـــأني لم أبْـــل ُ حـــرب الوجـــود
ولم أحتمـــل فيـــه عبئـــاً ثقـــيلاً ... مـــن الـــذكريات التـــي لا تبيـــد

فهو في أبياته كما نراه يسعى إلى حب مثالي، نحس به، فهي عذابات ربما لا تتحقق وسعادته بعيدة المنال، فأمانيه ورود تخفف الآلام، تنمو في صدره، وتحنو على قلبه

المشتعل، فهو عندما يراها يشرق عليه صباح الأمل، ليُسير ّ دلالة اللفظ مع المعنى الذي يحتاجه، لكنه أمل غير ثابت وغير مستمر، لأنه يسير مع دورة الصباح الذي لا يلبث أن تغيب عنه الشمس حتى يخيم الظلام، فيكني بالأماني التي أحبها بالورود التي تتنامى بالضياء والماء، وتتجدد برؤية الحبيب.

لقد أبدع الشابي صوراً فتانة من خياله وتفكيره وإحساسه، فألف بين الصور المتعددة حتى كو ّن إبداعات جديدة تطلع بها إلى درجات سامية كالتي شكلها في قصيدة «صلوات في هيكل الحب» أو «في ظل وادي الموت» وجاء بالمعاني النادرة حين يقول:

أنــت ... مــا أنــت ؟ أنــت رســم جميــل   عبقـــري مـــن فـــن هـــذا الوجـــود
فيــك مــا فيــه مــن غمــوض وســحر   وجمـــــال مقـــــدس معبـــــود
أنـــت روح الربيـــع تختـــال في الـــدنيا   فتهتـــــز رائعـــــات الـــــورود
وتهــب الحيــاة ســكرى مــن العطــر   ويـــدوي الوجـــود بالتغريـــد

فالشاعر يخرج إلى الطبيعة، فهي رسم عبقري فيها الغموض والسحر والجمال خاصة عندما تأتي روح الربيع وتتمايل الورود الرائعة من تلك النسمات. تشخيص عجيب «روح الربيع» هي روح الشباب ونضارته، فتقدم للحياة عطراً فو ّاحاً تتشابك فيه أغاريد الطيور صورة ناصعة، وسريرة بيضاء لا يشوبها أخطار، عالم تفتح أمامه فنظر إليه بعينيه، لكن قلبه وفكره سر ّ با الصور إلى عقله الباطني، فأخرجها مترجمة برؤيته الشعرية وخياله الفذ وإحساسه المندفع المتدفق، ليكون في النهاية بموهبته التي استغلها قصيدة ترسم صوراً قوية في ذهن السامع أو القارئ:

أنـــت تحيـــين في فـــؤادي مـــا قـــد   مـــات في أمسيـــ السـعيد الفقيـــد
بعـــد أن عانقـــت كآبـــة أيـــامي   فـــؤادي وألجمـــت تغريـــدي

هذا ما يحس به، شعور لا يستطيع أن يتجاهله لأن شاعريته تكشف عن كوامن صدره:

في فـــؤادي الغريـــب تخلـــق أكـــوان   مـــن الســـحر ذات حســـن فريـــد

هذه كلها كامنة أراد أن يخرجها بتلك الشموس الوضاءة والنجوم المنتشرة في الفضاء المديد والربيع الذي شخصه كأنه حلم الشاعر في سكرة الشباب، وتلك الرباة في الحلك الداجي والطيور المتناغية بالأناشيد الحلوة، كل هذا استمده من الطبيعة، التي كان

يلجأ إليها إذا ما ضاق صدره ليعيد البسمة إلى حياته ويشد عزمه ليخرج من تلك الكآبة التي سلطها المرض أو ثقل الحياة عليه.

وهذا هو أيضاً في «ألحاني السكرى» تلك القصيدة التي استطاع بها نقل القارئ بقوة الابتكار وروعة التجديد في المعنى، وتلك الرمزية التي طاف بها وهي تدوي بأغاريد الشباب ليصور المحبين كالطائر في الأفق الساجي:

نحـــن مثـــل الربيـــع نمشيـــ عـــلى أر ... ض مـــن الزهـــر والـــرؤى والخيـــال
فوقهـــا يـــرقص الغـــرام ويلهـــو ... ويغنـــــــي في نشـــــــوة ودلال

وبينما هو كذلك في أبياته وفي خياله كالروض في شبابه يرقِّص الغرام ويلهو به ويغني في مرح وسرور وسعادة ودلال، تأتي روح الثورة والتمرد على كل ما في الوجود ولكنه تمرد الساخر:

أيهـــا الـــدهر، أيهـــا الـــزمن الجـــاري ... إلى غـــــير وجهـــــة وقـــــرار
أيهـــا الكـــون أيهـــا الفلـــك الـــدوا ... ر بـــــالفجر والـــــدجى والنهـــــار
أيهـــا المـــوت أيهـــا القـــدر الأعمـــى ... قفـــوا حيـــث أنـــتم أو فســـيروا

صرخة مدوية في آذان الدهر، في آذان الكون بل وفي آذان الموت، صيحة هازئة بكل ما حوله، ولكن لم كانت هذه الصيحة وتلك السخرية، لأنه بجانب حبيبته فيقول:

دعونـــا هنـــا تغنـــي لنـــا الأحـــلا ... م والحـــب والوجـــود الكبـــير
وإذا مـــــا أبيـــــتم فاحملوهـــــا ... ولهيـــــب الغـــــرام في شـــــفتينا
وزهـــور الحيـــاة تعبـــق بـــالعطر ... وبالســـــحر والصـــــبا في يـــــدينا

في هذه الأبيات تحد قوي وشديد للدهر والكون والموت، ويهتف بهم جميعا أن يتركوه لتغني الأحلام والحب والوجود، ثم يتراجع تدريجياً ليصرح من جديد إن أبوا أن يتركوه مع الحبيبة في وحدتهما «ولهيب الغرام في شفتينا» أو والزهور تعبق بالعطر والسحر والصبا، لأنه يملكها جميعها في يديه ويرى الغرام أسمى هبة للشاعر.

ثم نراه بعد ذلك يعرض علينا صورة نفسه، وقد رغبت هذه النفس عن المجد وما يشغلها وهو ما زال في أول شبابه ينعم بالرضا والأمل الباسم، ومع ذلك فهو يبكي، ولكن ما الذي أبكاه؟، الشابي نفسه يقدم لنا الجواب فيقول:

إنـــما أبكيـــك للحـــب الـــذي كـــان بهـــاه
يمـــلأ الـــدنيا فـــأنى سرت في الـــدنيا أراه
فـــإذا مـــا لاح فجـــر كـــان في الشـــدو صـــداه
وإذا مـــا ضـــاع عطـــر كـــان في العطـــر شـــذاه
وإذا مـــا رف زهـــر كـــان في الزهـــر ضـــياه

هذه هي نظرته إلى الحياة، نظرة فيلسوف يجمع فيها بين اللذة والنواح من الألم، فيهتف من أعماق قلبه مستصرخاً الجراح الدامية، لتكف عن النواح والأنين، وهل تسمع هتافه وصرخاته؟ استمع إليه يقول:

اســـكتي يـــا جـــراح واســـكني يـــا شـــجون
مـــات عهـــد النـــواح وزمـــان الجنـــون
وأطـــل الصـــباح مـــن وراء القـــرون

هذه ليست صرخات شاب يافع، إنها صرخات شيخ أكل الدهر عليه وشرب، كأنه عاش دهراً وتمرغ في التجربة زمناً، فقد حوى قلبه الخافق بمعاني الحب والجمال، وتفنن في رسم الشباب السعيد والآمال العريضة، أعجبته زينة الماضي فزيّن يد السحر، فطلب من الجراح أن تهدأ أو تسكت وطلب من الشجن السكون، وتتجلى الصورة عنده بموت عهد النواح، وفوات زمان الجنون، ليطل الصباح ومن أين وكيف؟ يطل الصباح من وراء القرون.

هذا هو الشابي وهذا خياله وتفكيره وبالتالي هكذا جاء نظمه، ولكن هل بقيت هذه الصورة الكاملة المتكاملة وهو يقول:

في فـــؤادي الرحيـــب معبـــد للجـــمال
شـــيدته الحيـــاة بـــالرؤى والخيـــال

ومرة أخرى يتحدى الزمن، ويتحدى الدهور، بقلبه العامر بالحياة الذي شيده بالرؤى والخيال، ليعود بالتدريج فيقول:

فتلـــوت الصـــلاة في خشـــوع الظـــلال
وحرقـــت البخـــور وأضـــاءت الشـــموع

صور شكّلها بخياله متشابكة، وكأنه أحس بقدوم القدر وقرب المنية، وأن رحلة حياته قد ركبت سفينة أخرى إلى شواطئ أخرى بعيدة فيصفها بألم حاد شديد:

الـــــــــــوداع الـــــــــــوداع يـــــــا جبـــــــال الهمـــــــوم
يـــــــا ضـــــــباب الأســـــــى يـــــــا فجـــــــاج الجحـــــــيم
قـــــــد جـــــــرى زورقـــــــي في الخضـــــــم العظـــــــيم
ونشرـــــــــت القـــــــــلاع فـــــــــالوداع الـــــــــوداع

هذا ضرب من الشعر، رثاء للنفس وهذا يذكرني بنهاية حياة إبراهيم طوقان ذلك الشاعر الذي مات شاباً في الثلاثينيات من عمره حين أحس بقرب منيته، فرمى برأسه على صدر أمه، وها هو الشابي يودع الطبيعة حتى في مماته، ليرسم صورة الهموم التي علت عمره وكأنها الجبال، ليعود إلى مرضه في ضباب مآسيه وفي فجاج جحيمه، فيلجأ إلى زورقه ويخوض هذا البحر العميق وينشر قلاعه وهو يراها فيرفع يديه «الوداع الوداع».

صور كثيرة في شعر الشابي، تنم عن تجربة شعرية عميقة، ينفثها من صدره وخياله في وقتها، وكأنه رسم لنفسه طريقاً لا تنتهي، فهو ينتقل من قصيدة إلى أخرى وكأنها تتابع قصص تأتي الواحدة تلو الأخرى فهذه قصيدة «قلب الأم» التي تمتلئ بالعاطفة الجياشة المتفجرة في رثاء طفل صغير يبكي مصرع الإنسانية، حين تركه أقرانه وقفلوا إلى لهوهم فتلاشت ذكراه وأسدلت الستائر عليه، لكن قلباً واحداً لم ينسدل عنه ولم يستطع أن ينساه، إنه قلب الأم. هذا الطفل صرعته الحياة حين انقض عليه الدهر وأنشب أظافره فألقى به مضرجاً في غياهب الزمن فتأتي صرخة الشاعر على لسان أمه فيقول:

يصـــــغي لنغمتـــــك الجميلـــــة، في خريـــــر الســـــاقية
في أنـــــة المزمـــــار في لغـــــو الطيـــــور الشـــــادية
في ضـــــجة البحـــــر المجلجـــــل في هـــــدير العاصـــــفة
في لجـــــة الغابـــــات، في صـــــوت الرعـــــود القاصـــــفة
في آهـــــة الشـــــاكي وضوضـــــاء الجمـــــوع الصـــــاخبة
في شـــــهقة البـــــاكي يؤججهـــــا نـــــواح الناديـــــة
في فتنـــــة الشـــــفق الوديـــــع وفي النجـــــوم الباســـــمة
في رقـــــة الفجـــــر البـــــديع وفي الليـــــالي الحالمـــــة
في رقـــــص أمـــــواج البحـــــيرة تحـــــت أضـــــواء النجـــــوم
في ســـــحر أزهـــــار الربيـــــع وفي تهاويـــــل الغيـــــوم

أي عبقرية هذه التي يحملها صدر الشابي، يصف الحدث بكل دقائقه، وما أظنه إلا يرثي نفسه بقلب مفجوع، يرى صورة الفقيد في كل مكان في خرير الساقية، في أنة المزمار في موج البحر في لغو الطيور «الشاردة» في عمق الغابات، في الشفق والنجوم، في الورود الذاوية ليأتي في نهاية الصورة العجيبة التي شكلها فيقول:

أعرفـــت هـــذا القلـــب في ظلـــماء هاتيـــك اللحـــود
هـــو قلـــب أمـــك السـكرى بـــأحزان الوجـــود

هذا هو الشاعر الذي يعمد إلى خياله وتفكيره وتصعيده للمواقف فيؤلف بين أشتات الصور، التي تتحد لإبداع صورة جديدة.

ربما أحس الشاعر بدنو أجله، فخال نفسه وقد ذوى شبابه، فغيب في باطن الأرض وهو ما يزال شاباً فوصف بإبداعه الأم الحزينة السكرى بأحزان الوجود، هذا الطفل تركه الأتراب والمشيعون وعادوا إلى لهوهم وبقي قلب الأم حزيناً مترعاً بالأحزان وسط الغابات في الطبيعة التي يلجأ إليها كثيراً في خياله وكهوف أفكاره.

أما في قصيدة «الدموع»، فهو يبوح بنوع من الشقاء الوجودي الصرف، أو أنه يعترف بتنازعه بين قوى الخير والشر، فهو يقتنص السعادة دون أن يبذل في سبيلها كرامته، والظلم والشر ربما لا يأتيان من الناس فقط، بل من الدهر الذي يوهم الإنسان بالنجاح والفرح، والشاعر الشابي كان يبحث عن الحق الضائع ويتحراه ولكنه لا يجده، فيعود إلى نفسه ليبحث عما يريد، وربما تكون هذه التجربة في هذه القصيدة «الدموع» مكررة إلا أننا نجده يصفها وكأنه يعاني للمرة الأولى فيقول:

ينقضي ـــــ العـــيش بـــين شـــوق ويـــأس
وينـــــي بـــين لوعـــة وتـــأسي
هـــذه ســـنة الحيـــاة، ونفسيـــــ
لا تـــود الرحيـــق في كـــأس رجـــس

انظر إليه وهو ينظر إلى الحياة بين الشوق واليأس، فالدهر قلب، أو كما يقول بين اللوعة والتأسي، ثم يرفع الراية البيضاء وهو يعترف بأنها سنّة الحياة، وأن نفسه لا تقبل الشر ثم يكمل الصورة:

قـــد ـــــم فكـــداع بالخـــدهر الـــ ـــيءَ

ـّـــل َ النـــــ مـــــن إمـــــام وقــــــس ٍّ

إذن هو لا يبغي اليأس ولا الكآبة وإنما يتصورها مفروضة عليه لأنه يعلن:

كلـــــما أســـــأل الحيـــــاة عـــــن الحـــــق

كـــــف ّ الحيـــــاة عـــــن كـــــل همــــس

والشاعر نفسه يذهب في قصيدته «ظل وادي الموت» إلى فلسفة الحياة والموت في صورة أعمق، بشواغل وهموم وتساؤلات تجول في أذهان المفكرين والفلاسفة منذ القدم، لكنه يأتي بصور أشد وأعمق، فهو يصور الموت كالرياح التي تقتلع الأطواد الشامخة، وهذا ربما بسبب مرضه الذي زلزل حياته واجتثها مبكراً، ولنقرأ ما جال بخاطره في مثل هذه الأمور:

نحـــن نمشيـ وحولنـــا هاتـــه الأكـــوا   ن تمشيــــ لكــــن لأيــــة غايــــة
نحــن نشــدو مــع العصــافير للشــمس   وهـــــذا الربيــــع ينفــــتح نايــــه
نحـــن نتلـــو روايـــة الكـــون للمـــو   ت ولكـــن مـــاذا ختـــام الروايـــة؟

هذه الحياة في فلسفته كأنها رواية، يمشي البشر حولها إلى أين؟ وهم ينشدون كالعصافير أو كالربيع ينفتح نايه، إذن هي آمال مبعثرة:

قـــد رتعنـــا مـــع الحيـــاة طـــويلاً   وشـــدونا مـــع الشـــباب ســـنينا
وعـــدونا مـــع الليـــالي حفـــاة   في شـــعاب الزمـــان حتـــى دمينـــا
وأكلنـــا الـــتراب حتـــى مللنـــا   وشربنـــا الـــدموع حتـــى روينـــا

أهي صحوة الشباب؟ أم هي مقدمة لنهاية حياة؟

هاتـــه فـــالظلام حـــولي كثيـــف   ِضـــباب الأســـى م ُنـــيخ عليـــا
هاتـــه يـــا فـــؤاد إنَّـــا غريبـــا   ن نصـــوغ الحيـــاة فناشـــجيا

وهل يستطيع أن يصوغ حياته مع قلبه المريض كيفما يشاء؟ ولنسمعه ماذا يقول:

ي ظـــلام الفنـــاء أدفـــن أيَّـــا   مـــي ولا أســـتطيع حتـــى بكاهـــا
وزهـــور الحيـــاة تهـــوي بصـــمت   محـــزن مضـــجر عـــلى قـــدميا
جـف سـحر الحيـاة يـا قلبـي البـا   كـي ... فهيـا نجـرب المـوت هيـا

فالأبيات كما تراها تطل علينا بحالة نفسية يطول شرحها، فالشاعر فيها صاحب حكمة عريضة، فيلسوف يبكي حظه كإنسان، وقد أورد الشابي غير هذه القصيدة في فلسفته للحياة مثل قصيدة «شكوى ضائعة» هجا فيها القدر، وقد قرن فيها الليل بالوحش الخفي والعدو المستور، الذي ينوه به عن وجه الظلم والقهر، وقد تغلبت فيها الحقائق على الذات فهو يقول:

يـــا ليـــل ! مـــا تصـــنع الـــنفس التـــي ســـكنت
هـــــذا الوجـــــود ومـــــن أعـــــدائها القـــــدر
تـــــرضى وتســـــكت ؟ هـــــذا غـــــير محتمـــــل
إذاً فهـــــل تـــــرفض الـــــدنيا وتنتحـــــر
وذا جنـــــون لعمـــــري كلـــــه جـــــزع
ـــــاك ورأي مـــــريض كلـــــه خـــــور

يخاطب الليل ويبحث عن النفس التي وجدت والقدر يلاحقها، وترضى بما يفعله وتسكت رغم احتمالها، وان رفضها لا ينفع، ومخاوف هذه النفس البشرية بكاء ومرض وضعف.

إذن هي نظرة فلسفية يراها الشاعر فيقصدها ليصور منها قصيدة ملتاعة بالصمت حيناً أو القهقهة حيناً آخر:

وعـــاد للصـــمت يصـــغي في كآبتـــه كالفيلســـوف إلى الـــدنيا ويفتكـــر
وقهقهـــة القـــدر الجبـــار ســـخرية ·كائنـــات تضـــاحك ْ أيهـــا القـــدر

إلى أن يصل بالصورة الفلسفية في قوله:

نشيـــ إلى العـــدم المحتـــوم باكيـــةً ـوائـف الخلـق والأشـكال ُ والصـور
وأنــت فــوق الأســى والمــوت مبتســم رنــو إلى الكــون يُبْنــى ثــم ينــدثر

إذن هو حديث عن الخلق والوجود بأكمله، يولد الإنسان ويحيا ولكن المصير المحتوم معروف لكل الخلق، ومع أن الناس يعرفون هذا المصير المحتوم إلا أنهم مبتسمون فرحون يأملون بالعيش فيبنون ثم يموتون.

وفي قصيدة أخرى أجرى الشاعر حديثاً أو قل حواراً فلسفياً حول الحياة والموت والخلود والكمال في قصيدة «حديث المقبرة» الذي صور فيها صوتان: صوت الشاعر

المتشائم، وصوت الفيلسوف الذي يظهر حكمة الوجود، والصوتان يجسدان الثنائية والتنازع، وربما هي صورة تتردد في أشعاره التي تفيض بالصور والانفعالات، مثل قصيدة «فلسفة الثعبان المقدس» التي تمثل فلسفة القوة والتي تعتبر دليلاً على مذهب الشابي، حيث اتخذ من الثعبان رمزاً للشر والطغيان، فبعد أن يصف لنا ما كان ينعم به الإنسان، نجد أن الثعبان قد عز عليه أن يرى هذا الإنسان متنعماً فينقض ّ عليه دون ذنب اقترفه، فكأن هذا الشر يرى أن سعادة هذا المسكين جريمة فيقول:

كــان الربيــع الحــي روحــاً حالمــاً   ضـ ّ الشــباب معطــر الجلبــاب
يمشي على الدنيا بفكــرة شــاعر   ويطوفهــا في موكــب خــلاب
والكــون مــن طهــر الحيــاة كــأنما   هــو معبــد والغــاب كــالمحراب
الشــاعر الشــحرور يــرقص منشــداً   للشــمس فــوق الــورد والأعشــاب

هكذا يصف الحياة الهادئة الوادعة، يهنأ فيها الإنسان، ثم يأتي الشاعر بأغانيه ويصف هذه الحياة السعيدة ثم لا تلبث أن تنقلب بفعل هذا الشرير الذي جاء ليسلب هذه السعادة:

رآه ثعبــان الجبــال فغمّ ــه   مــا فيــه مــن مــرح وفــيض شــباب
انقــض مُضــطغناً كأنــه   ســوط القضــاء ولعنــة الأربــاب

انظر كيف بخياله الواسع وبراعته في تشكيل المناظر، يرسم هذه الصور ليقدمها في حوار متماسك بين ضدين:

وتــدفق المســكين يصرــخ ثــائراً   مــاذا جنيــت أنــا فحــق عقــابي
لا شيء إلا أننــي متغــزل   بالكائنــات مغــرد في غــابي

هذا هو ذنب ذلك المسكين، أنه انطلق بحرية ينشد ويغني داخل الغابة الرحبة في أحضان طاهرة يبث إليها حبه الصافي، لكن سعادة الضعفاء جريمة يستحقون عليها العقاب الشديد من القوي، فهو يتحدث بحكمة الشاعر الفيلسوف الذي أحب الحياة والحرية والانطلاق فيها، وهذا قول حق في زمن التيه والغفلة، أوطان تحتل وتستغل ثرواتها والقوي يفرض ما يريده وما على الضعيف إلا القبول والاستسلام، وأظن لا شيء أكثر من هذا في إهدار كرامة الإنسان، رغم كل التنازلات التي قدمها هذا المسكين الضعيف.

وسعادة الضعفاء جرم ما له عند القوي سوى أشد عقابي
لا أين، فالشرع المقدس ها هنا رأي القوي وفكرة الغلاب

ثم يصرخ صرخة أخرى ليشهد الدنيا على نفسه فيقول:

ولتشهد الدنيا التي غنيتها حلم الشباب وروعة الإعجاب
(أن السلام حقيقة مكذوبة والعدل فلسفة اللهيب الخابي)

هذا حديث الشاعر عن فلسفة واقعية يراها بعينيه، وجعلها حواراً بينه وبين ذلك الثعبان الذي يعيش في الجبل ليصور نتيجة حتمية يقولها الشاعر وغيره.

لا عدل إلا إن تعادلت القوى وتصادم الإرهاب بالإرهاب

قول قديم قاله الشاعر ليستعيره المحدث بأن ما أُخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة، فالعدل لا يعود إلا بين طرفين متعادلين، ومقابلة الإرهاب بإرهاب مثله وأشد منه أحياناً ليزول الخنوع والظلم عن هذا الإنسان الضعيف، حكمة قالها الشابي في وسط الثلاثينيات من القرن الماضي، وكأننا ما قرأنا حكمة ولا تعلمنا من أدب أو شعر ثم يقول على لسان الثعبان:

إني إله طالما عبد الورى ظلي وخافوا لعنتي وعقابي
وتقدموا لي بالضحايا منهم فرحين شأن العابد الأواب
وسعادة النفس التقية أنها يوماً تكون ضحية الأرباب

فالظلم في الأبيات إله، ونحن نخاف هذا الإله فلا نعصيه، وهذا تحريض واستفزاز من الشاعر على مقاومة الظلم والوقوف أمامه بكل ما يحمل الإنسان من قوة ليقاوم طغيانه، لا أن يقدم المقهور القرابين لضمان سكوت الظالم وكسب رضاه، لأنه لن يسكن ولن يرضى، وهذا أسلوب بديع على تحفيز الهمم وإثارة الحمية في نفوس المظلومين يصوره الشابي وينطبق على أزمان متعددة، ولماذا نذهب بعيداً ونحن وبعد أكثر من سبعين عاماً يتكرر المشهد؟ فقد عاش الشاعر هذه المعاني، ونعيشها نحن اليوم لأن السعادة فقط مقصورة على الأقوياء، وإذا ما حاول الضعيف أن يسري عن نفسه فإن العقاب هو جزاء محاولته.

على أن روعة التعبير تكمن في تلك الحكم التي يسوقها الشابي ليحصل الإنسان على سعادته من أخيه الإنسان:

ـــلا يسر ّ ــك أن تكـــون ضـــحيتي　　فتحـــل في لحمـــي وفي أعصـــابي
إني أردت لـــــك الخلــــود مؤلهــــا　　في روحـــي البـــاقي عـــلى الأحقـــاب
كّـــر لتـــدرك مـــا أريـــد وإنـــه　　أســمى مــن العــيش القصــير النــابي

هذا هو مذهب الشابي وهذه هي فلسفته وحكمته، فهي لم تكمن في الرومانتيكية ولا في محاولة التجديد، وإنما تكمن في صوره الرائعة وألوانه المتميزة ودعواته الصريحة في إنقاذ المظلوم التي انبثقت من مواجع الشاعر الروحية والنفسية والاجتماعية التي أدت إلى مواجعه الجسدية.

أحب الشابي الحياة رغم المرض الذي نغص عليه عيشه، فرثى لنفسه حين شعر بدنو أجله، وحرض أهل شعبه للقيام من رقدته حين رأى الظلام يكتنف وطنه، وناصر المظلومين والمقهورين بصرخات متتابعة مدوية، فكان شعره صوت كل مظلوم. وكان معلماً لكل من يسعى للحرية والاستقلال، ونبّه في قصائد متعددة أن ذلك لا يكون بالأمنيات ولا بالدعوات ولا برفع الشعارات، ولكن بالقوة التي يعتبرها سبباً للنصر، وقد وضح أنواع القوة ومن بينها التخلص من الجهل الذي هو سبب كل تخلف وخنوع فقال:

يــــا قـــــوم عينــــي شـــــامت　　للجهـــــــل في الجـــــو نـــــارا
تلـــــو ســـــحاباً ركامـــــاً　　يتلـــــو قتامـــــاً مثـــــارا
نلفـــــي الشـــــديد صريعـــــاً　　تبقـــــي الأديـــــب حمـــــار

هذه صورة من الصور التي يوضح من خلالها بلاء الأفراد والشعوب، والذي يجعل الشعوب بدون سلاح العلم وقوته تحت وطأة القوي الظالم وأهدافه:

وكـــذلك تتخـــذ المظـــالم منطقـــاً　　عـــذباً لتخفـــي ســـوءة الآراب

بكل هذه المعاني يظل الشابي مدافعاً عن المظلومين والمقهورين، وهو يتصور أنه واحد منهم، وتبقى قصائده نغماً عذباً على شفاه الشعوب ولكن هذا الصوت وتلك الصرخات لم تكتمل، فقد اختطفه القدر مبكراً في ميعة الشباب، ولو أمد الله في عمره لجادت هذه القريحة بالكثير من المعاني والصور، ولكن شعره يظل مدوياً ويبقى شعره يملأ الآفاق بالآمال العريضة التي تستنير بها الشعوب المظلومة والمقهورة حتى تنال حريتها.

هذا وقد كان للشابي موقفاً فكرياً خاصاً به يهدف إلى التجديد في الحياة كلها، وكان يسعى إليه دائماً بكل ما أوتي من قوة، تجديد في النواحي الأدبية والاجتماعية والسياسية

والفكرية، وهذا واضح من خلال حديثه في مقدمته لكتاب «الخيال الشعري عند العرب» حين قال: «لقد أصبحنا نتطلب حياة قوية مشرقة ملؤها العزم والشباب، ومن يتطلب الحياة فليعبد غده الذي في قلب الحياة؛ أما من يعبد أمسه وينسى غده فهو من أبناء الموت وأنضاء القبور الساخرة». وهذا ما جعله يتعاطف مع جماعة «أبولو» التي هدفت إلى تطوير الشعر العربي وتحريره من القيود والقوالب والموضوعات التقليدية التي عرفت في العصور السابقة، وخاصة في العصر الجاهلي، وكان الشابي ينشر قصائده في مجلة أبولو، ويتلقى ردود الفعل عليها حتى اشتهر وذاع صيته في بلاد المشرق. وكانت بعض هذه الردود قاسية، حيث اتهم بالمغالات والتطرف حينذاك، لأنه انتقص من آداب الأجداد على رأي مختار الوكيل، وهو من جماعة أبولو، لتقريره في كتابه الخيال الشعري قوله: «إن كل ما أنتجه الذهن العربي في مختلف عصوره، كان على وتيرة واحدة، ليس له من الخيال الشعري حظ ولا نصيب» وقد خلص إلى ما يخدم مذهبه في التجديد بقوله: «ينبغي لنا أن لا ننظر إلى الأدب العربي كمثل أعلى للأدب الذي ينبغي أن يكون ليس لنا إلا احتذاؤه ومحاكاته في أسلوبه وروحه ومعناه، بل يجب أن نعدّه كأدب من الآداب القديمة التي نعجب بها ونحترمها، ليس غير...».

وقد وصل الشابي في وقت ما إلى الإحباط من بعض النقاد حين تنكر الجمهور له أثر التحريض، حين لم يجد أحداً في النادي أثر محاضرته عن الخيال الشعري «أثر مسامرته الأولى» مما عكس ذلك شعوراً محزناً لدى الشابي وهذا أوحى له قول قصيدته «النبي المجهول» ومطلعها:

أيها الشعب ليتني كنت حطاباً ... فأهوي على الجذوع بفأسي

إلى أن يقول:

أيها الشعب أنت طفل صغير ... لاعب بالتراب والليل مغسي
أنت في الكون قوة لم تسسها ... فكرة عبقرية ذات بأس
أنت في الكون قوة كبلتها ... للمات العصور من أمس أمس
والشقي الشقي من كان مثلي ... في حساسيتي ورقة نفسي

وربما جاءت آراء وأفكار الشابي بسبب المقارنة بين الآداب العربية والآداب الغربية سواء في التفكير أو أسلوب العرض أو الاستنتاج، ولم يخطر ببال الأدباء التونسيين

حينذاك أن الأدب عبارة عن وظيفة فكرية اجتماعية تتعاطى مع الحضارة في البيئات أو العصور، فالشاعر أو الأديب لا يقارن إلا بمن عاصره، وفي الإطار الحضاري الذي نشأ فيه. ومع ذلك فقد أخذ الجيل الذي تلا الشابي برأيه واقتدى به وسعى إلى تحقيق حياة قوية مشرقة، ولكن هل وقف الشابي عند الظواهر التفصيلية للأدب «القديم»؟ وهل استطاع أن ينفذ إلى جوهر الإطار الذي انبعثت منه حضارة العرب وعنه انبثقت اتجاهات الأدباء والشعراء الإنسانية العامة؟

حقيقة إن الشابي كان مفتوناً بالشعر، مولع بالدفاع عنه، ويظهر هذا الاندفاع في قصائد متعددة منها: «يا شعر» التي يقول فيها:

يـا شـعر أنـت فـم الشـعور وصرخـة الـروح الكئيـب
ـا شـعر أنـت صـدى نحيـب القلـب والصـب ّ الغريـب
شـعر أنــت مــدامع عَلـ قَــت ْ بأهــداب الحيــاة
يــا شــعر أنــت دم ، تفجــر مــن كلــوم الكائنــات
يــا شــعر يــا قيثــارة الأحــلام يــا ابــن صــبابتي
لــولاك مــت بلــوعتي وبشــقوتي وكــآبتي
ـك انطـوت نفسيـ وفيـك نفخـت كـل ّ مشـاعري
فاصــدح عــلى قمــم الحيــاة بلــوعتي يــا طــائري

وفي قصيدة أخرى «شعري» يقول:

شــعري نفاثــة صــدري إن جــاش فيــه شــعوري
لــولاه مــا انجــاب عنــي غــيم الحيــاة الخطــير
ولا وجــدت اكتئــابي ولا وجــدت سروري
بــه تــراني طروبــاً أجــر ذيــل حبــوري

وكان عفيفاً في شعره غير متكسب أو ناظراً إلى نوال أو عطايا وإنما كان يقصد الشعر ليروي به فكره وعقله وهو في هذا يقول:

لا أنظــم الشــعر أرجــو بــه رضــاء الأمــير
ـحــة أو رثــاء ــدى لــرب ّ السرــير
حســبي إذا قلــت شــعراً أن يرتضــيه ضــميري

كان ينظر إلى الشعر على أنه حبيب أو صديق أو عشيق، يشخصه ويجسمه ويتحدث إليه، ينظر إليه على أنه وسيلته التي ينفث إليها ما في صدره وها هو يقول: «قلت للشعر»:

ــت يــا شــعر فـ لــذة مــن فــؤادي تتغنـــى وقطعـــة مـــن وجـــودي
فيــك مــا في جـَوانحي مــن حنــين ـــــدي ّ إلى صـــميم الوجـــــود
فيــك مــا في خــاطري مــن بكــاء فيــك مــا في عــواطفي مــن نشــيد
أنــت يــا شــعر قصــة عــن حيــاتي أنــت يــا شــعر صــورة مــن وجــودي
أتحســـاه في الصـــباح لأنســـى ـــا تقضى ــــ في أمسي َ ــــ المفقـــود
وأناجيـــه في المســـاء ليلهينـــي مـــرآه عـــن ظـــلام الوجـــود
فيــك مــا في الوجــود مــن نغــم حلــو ومــا فــيهم ضــجيج شــديد

واستجابة لفكرته وإيمانه وإحساساً بمذهبه الأدبي، راح يقدم فكره هدية لغيره، فقد خاطب الجمهور بشرائحه وخاطب الفنان بشعوره فقال في قصيدته «فكرة الفنان»:

عــش بالشــعور، وللشــعور فــإنما دنيـــاك كـــون عواطـــف وشـــعور
ـيدت ْ عــلى العطــف العميــق وإنهــا ــف ٌّ لــو شــيدت ْ عــلى التفكــير
وتظـــل جامـــدة الجـــمال كئيبـــة ـالهيكـــل المتهـــد ِّم المهجـــور
وتظـــل قاســـية الملامـــح جهمـــة ـــالموت م ُقفـــرة بغـــير سرور
ـواجعــل شــعورك في الطبيعــة قائــداً فهـــو الخبـــير بتيههـــا المســـحور
ـوافــتح فــؤادك للوجــود وخلِّــه ـــيم ِّ ، للأمـــواج ، لمـــد ِّيجور
فتعـــيش في الـــدنيا بقلـــب زاخـــر ــظ المشـــاعر ِ حـــالم مســـحور
ـشـــوة صـــوفيَّة قدســـيَّة هـــي خـــير مـــا في العـــالم المنظـــور

هكذا كان الشابي في فلسفته وفي عناصر تفكيره، نشوة صوفية قدسية، لها علاقة بأحلام الروح وآلام الجسد، وهكذا كان الحب عنده يسمو في نفسه إلى حد القداسة، لا تتنازعه شهوة بل يقتصر على النشوة، يستمده من المرأة والطبيعة، فالحب عنده كمال الطبيعة والنفس وهو الزهرة المتفتحة وهو النسمة التي يتضوع منها العبير وهو الجمال والخير والفن وهو يستدعيه ليدرك به سعادته:

كــبلي يــا سلاســل الحــب أفكــاري وأحــلام قلبــي الضــليل

كبليني بكل ما فيك من عطر وسحر مقدس مجهول
كبليني فإنما يصبح الفنان حراً في مثل هذه الكبول

حبه في شعره عذري، حب أحلام وأماني يحمل في طياته نشوة وذهول وحنو وخفوق، يتحدث عنه من بعيد:

ليتني كنت زهرة تتثنى بين طيات شعرك المصقول
أو فراشاً أحوم حولك مسحوراً غريقاً في نشوتي وذهولي
أو غصوناً أحنو عليك بأوراقي حنو المدلّه المتبول
أو نسيماً أضم صدرك في رفق إلى صدري الخفوق النحيل

فهو يتحدث عن الحب في توحد الوجود وائتلاف عناصر الحياة من جمال وسعادة وامرأة وطبيعة وغناء، وتراه في قصيدته «تحت الغصون» يقفز إلى الطبيعة بألوانها وأشكالها ليعبر عن حبه برومانسية يبتدع فيها أشواقه وأحلامه في عالم متحرر من قيود الحاجة والداء والضرورة، وتراه لشدة إغراقه بالطبيعة فإنه يتغنى بالعبير والربيع كما يراهما:

للعبير الذي يرفرف في الأفق ويغني مثل المنى في سكون
للربيع الذي يؤجج في الدنيا حياة الهوى وروح الحنين

ويتعرض إلى عيون الحبيبة فيغرق في التداعي والتخيل بعذوبة شديدة فيقول:

ي ّ دنيا مسحورة أي رؤيا طالعتني في ضوء هذه العيون
مر ٌ من ملائك الملأ الأعلى يغنّون في حنو حنون
اء مورّد ساه أطافت به عذارى الفتون

ويسير في وصف عالم الحب ليصف الطبيعة بمعبد الحب فيقول:

عبداً للجمال والحب شعرياً مشيداً على فجاج السنين
تحته يزخر الزمان ويجري صامتاً في سبيله المحزون
تمر الأيام والحزن والموت، بعيداً عن ظلّه المأمون

وهكذا نراه يضيف بُعداً وجودياً جليداً يتنازع فيه مصيره وإحساسه، مفجوعاً بالزمن وهموم البقاء والفناء.

الشابي وأقرانه من الشعراء

وُلد الشابي في العقد الأول من التسعينيات في تونس، وقد تركت هذه الفترة من التاريخ العربي أثراً واضحاً في شعرنا الحديث، مرحلة بعث جديدة ازدادت مع الأيام قوة حتى أصبح اليوم تياراً يسوق القارئ نحو آفاق تختلف عن العصور التي سبقته، وقد كان لهذا التيار ظروفه السياسية والثقافية والاجتماعية، ولعل أهم ما جدّ على شعرنا الحديث هو التجديد في المفهوم والتعبير، وربما كان هذا التجديد ناتجاً عن الاتصال المباشر بالغرب أو البعثات العلمية ونشاطاتها أو دخول المطابع إلى البلاد العربية وحركة الترجمة ونشوء الصحافة.

عاصر الشابي ثلة من الشعراء على امتداد الوطن العربي، والذين تأثروا بالأحداث الجارية وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية، فاستجابوا لحاجات الأمة في إذكاء العواطف الوطنية وناهضوا المحتل من الدول الأجنبية والغريبة للرحيل عن الديار العربية، وكأنهم وضعوا نصب أعينهم تحريض الجماهير العربية على التسلح بالعلم وقهر الجهل والتمسك بأسباب القوة، وجاءت جل أشعارهم على هذا المضمون، ومقابل ذلك فقد اهتموا بشكل القصيدة متأثرين بالثقافات الأخرى، وكان من أهم ذلك هو تغيير بنية القصيدة العربية.

ثم قامت معارك أدبية حادة بين فصائل الشعراء فمنهم من دعا إلى إحياء التراث القديم أمثال محمود سامي البارودي وبين دعاة التغيير والتجديد والإصلاح، وكان كتاب الدكتور طه حسين «في الأدب الجاهلي» مثالاً على ذلك.

ومن الذين عاصروا الشابي من شعراء الوطن العربي فوزي المعلوف وميخائيل نعيمة وجبران خليل جبران من أدباء المهجر، كما عاصره أديب مظهر وأبو شبكة من لبنان، وإبراهيم ناجي وعلي محمود طه من مصر، وفهد العسكري من الكويت. أما من الأردن فقد عاصره مصطفى وهبي التل ومن فلسطين كان إبراهيم طوقان وعبدالرحيم محمود ونتجاوز بعض السنين فنقول بدر شاكر السياب من العراق، وهناك عدد غير قليل أيضاً عاشوا في نفس الفترة الزمنية.

وكان بين هؤلاء تشابهاً في بعض جوانب حياتهم، مع أن كل واحد منهم يعيش في بلد من بلدان الوطن العربي، لكنه كان يجمع بينهم حس قومي ووطني واحد، وهو دعوة الشعب إلى النهوض لنيل الحرية من المحتل الجاثم على أرض الوطن العربي.

لم يعش الشابي فترة طويلة فقد وُلد عام ١٩٠٩ وتوفي عام ١٩٣٤ وقليل هم الشعراء الذين عمّروا كثيراً، وقد شهد تاريخنا العربي ثلاثة شعراء قضوا في ميعة الشباب، وأعني أنهم ماتوا وأعمارهم لم تصل الثلاثين ربيعاً وكان أقدمهم طرفة بن العبد ثم أبو فراس وثالثهم شاعرنا أبو القاسم الشابي، الذي فاق أقرانه رغم قصر حياته، وليس من باب الصدفة أن يلتقي هؤلاء الشعراء في مجمل إنتاجهم الشعري على الإقبال الشديد الحار المتوثب على الحب وعبادة الجمال أو نشدان الحياة العنيفة أو الإحساس بالفراغ والألم وباختصار ... في الرومانطيكية[1].

كما ويلتقي الشابي مع إبراهيم طوقان في قصر العمر حيث وُلد طوقان عام ١٩٠٥ وتوفي عام ١٩٤١، وكان الشابي مريضاً بالقلب بينما كان طوقان مريضاً بالمعدة التي أنهكت قواه ورافقهمرضه حتى وفاته وكان كل منهما مهزول الجسم ضعيف البنية متألماً حزيناً بسبب هذا المرض وقد بدأ كل واحد منهما شاعريته صغيراً يعبر بها عن صباه. ويلتقي مع السياب أيضاً في بداياته الشعرية ومصاحبة المرض له فترة الحياة القصيرة التي عاشها.

وأنا في هذا الكتاب لا أريد المقارنة بين هؤلاء الشعراء، وإنما هي عبارة عن مدخل لرؤية أبي القاسم وعلاقته مع أقرانه في فترة زمنية من حياة كل واحد منهم. ولنخلص في باب آخر إلى تأثره بغيره وقد دعا كل واحد منهم إلى قضايا وطنه، متبرماً من السياسيين داعياً إلى الأخذ بأسباب القوة من أجل الخلاص، وكان كل واحد يتراوح بين التشاؤم والأمل.

لقد كان التشابه بين الشابي وطوقان شديداً فكلاهما ساير التطور في الثقافة، محاولاً تجديد الموضوعات والبناء محاكين الآخرين من خلال المذهب الرومانسي الذي يساير الشباب فتشابها في الشعور والطبع ورقة الشمائل، مع أن طوقان في وطنياته كان أقرب إلى مجتمعه والشابي أطلق العنان لشاعريته وشعوره من خلال الطبيعة والتأمل

بين الشابي وجبران

كانت مطالعات الشابي واحدة من عناصر شخصيته التي طبعت نفسه وشعره، مما أدى إلى تأثره الشديد بأدب المهجريين أمثال جبران خليل جبران، والحديث هنا ليس

(١) عبداللطيف شرارة، الشابي، دراسة تحليلية.

مقارنة أو توازناً بين الشابي وغيره من الشعراء، وإنما هو حديث لمعرفة اتجاه وفكر الشاعر لأن الشابي ربما يكون أشعر من الذين حذا حذوهم. يقول أبو القاسم محمد كرو في كتابه الشابي قوله: «حيث عرف عن الشابي أنه كان يكثر من قراءة الأدب المهجري وحفظ أشعاره وليس من شك في أن النفس البشرية تتأثر أشد ما تتأثر في طفولتها»(١).

فقد علق ما قرأه وطالعه في ذهنه وفكره وبكل صوره في الوجدان، وطبع ما حفظه وهو دون الخامسة عشرة. فبقيت عالقة بألوانها وصورها في بداية حياة الشابي مما قاد خياله وحسه إلى معابد الطبيعة وهياكلها الغريبة، فاستمع لأغانيها الناعمة وكشفت له عن مواطن الجمال والفتنة واستراح لرحيق الأزهار المتنوعة، فهام بحب الحياة الراقصة كالأمواج وسنابل القمح، فردد أنغام السماء على مسامع الكون، فإذا بشعره أنشودة ساحرة خالدة حتى كان شعره «أعمق من جبران وأصدق تعبيراً».

وقد أنصف الشابي تونس في شعره، فحث قومه على الرقي فعده أبو القاسم محمد كرو نموذجاً للكفاح والبطولة وهذا واضح في شعره.

وتتفق معظم الدراسات على تأثير جبران في الشابي، ووصفوا الشابي بأنه تلميذ جبران ولذلك جاء التأثر واضحاً، في الخصائص الفنية وفلسفة الحياة، فكيف كان هذا التأثير؟

قامت فلسفة جبران في حياته على الحب والحرية والتمرد، وهذه العناصر هي التي شكلت مضمونه الأدبي التي انبثق عنها رؤية الحياة في المشرق، وحددت أهدافه في الحياة المشرقية التي كانت غارقة آنذاك تحت وطأة الجمود والتخلف عن الركب الحضاري بعوامل استعمارية، فنشط الأدباء يبينون أسباب هذا الجمود ويثورون لنيل الحرية والاستقلال، ومن هؤلاء جبران الذي ظهر كالثورة العاصفة في أدبه داعياً إلى النهوض حتى بلغت أحياناً إلى العنف، ثم انتهى به الأمر إلى الثورة على كل قديم وآمن بأن بلية الأبناء هو ميراث الآباء، لأنه كان يرى أن الشرقيين يعيشون في الماضي ويرفضون المبادئ والتعاليم الجديدة التي تنبههم من رقادهم العميق. كما ظهرت دعوات في أدبه إلى احترام وتقديس الحب وارتفع بالمرأة عن الحدود المادية، وابتعد في غزله عن الجسد لأنها أم وكان

---

(١) الشابي، أبو القاسم محمد كرو، ص٩٧.

يقول: «... ولكنهم للآن لم يفهموا أسرار قلبها ومخبآت صدرها، لأنهم ينظرون إليها من وراء نقاب الشهوات فلا يرون غير خطوط جسدها أو يضعونها تحت مكبرات الكره فلا يرون فيها غير الضعف والاستسلام».

كما تمرد على الكهانة والرجعية الدينية، فكان يرى جبران «أن الكهانة هي الحرفة الأولى التي ابتدعها الإنسان بدون حاجة حيوية أو داع طبيعي لها»[١]. وهو بذلك كان يريد إعادة كرامة الإنسان وتحريره من تلك القيود، ثم يسلط نيران غضبه على رجال الدين الذين - باعتقاده - كانت تصور جميع صور الاستغلال ومحاربة التجديد، وهذا ما كان يراه بلية الشرق، وقد اتهم جبران نتيجة ذلك بالخروج عن الدين كما اتهم الشابي بالتطرف، وهذا ما كان له أثره البالغ في إحساسهما بالغربة فكان جبران يقول: «أنا غريب في هذا العالم، وفي الغربة وحدة قاسية ووحشة موجعة، غير أنها تجعلني أفكر أبداً بوطن سحري لا أعرفه... أنا غريب وليس في الوجود كله من يعرف كلمة نفسي. أنا شاعر أنظم ما تنثره الحياة، وأنثر ما تنظمه، ولهذا أنا غريب. وسأبقى غريباً حتى تخطفني المنايا وتحملني إلى وطني».

كما أحس الشابي بالغربة في بلده لأنه يعتقد أن الجمهور لم يفهم أناشيده التي يظهر فيها حائراً متردداً حين يقول:

إني أنا الروح الذي سيظل في الدنيا غريب
ويعيش مضطلعاً بأحزان الشبيبة والمشيب
يا صميم الوجود كم أنا في الدنيا غريب، أشقى بغربة نفسي
بين قوم لا يفهمون أناشيد فؤادي ولا معاني بؤسي
فالشابي كما تراه يشكو غربته.

ورغم ذلك فقد انطوى هذا التمرد عند الاثنين على معاني تقديس الطموح والدعوة إلى التطور، حتى نصب جبران نفسه حفاراً للقبور كما لخص فلسفته في قصة (البنفسجة الطموح) في قوله: «إنما القصد من الوجود الطموح إلى ما وراء الوجود» وقد قصد من ذلك محاربة الخضوع والاستسلام لفلسفة القضاء والقدر التي تعيق البشر عن اليقظة.

---

(١) دراسة للأستاذ خليفة التليسي.

والشابي كان يؤمن بالطموح ويسعى إليه بالبحث في شعبه ويتطلع إلى ما وراء الوجود ومن هنا كانت صرخته:

إذا الشــــعب يومــــاً أراد الحيــــاة فـــــلا بــــد أ يســـتجيب القــــدر

فهو يعلن أن الطموح حبيب الحياة وروح الظفر. وشعر الشابي حافل بهذه المعاني فهو شاعر الحب والثورة وشاعر الحب والحياة، الداعي إلى نور المستقبل الثائر على العيش في ظلام القديم.

والشابي وجبران يتشابهان في مصادر هذه الوطنية التي انطلقت من الاصطدام بالاستسلام إلى الجمود.

أما التشابه في الخصائص الفنية، فقد اتضح ذلك بينهما في تمجيد الفن والسمو به، حيث اتخذ جبران من الفن رسالة بعث وإحياء، فراح ينتقد التقاليد الأدبية التي تعنى بزخرفة الألفاظ والبديع، وقد آمن بأن نجاح الشاعر يحدده رصيده الفني وملكته الشاعرية، حتى ذهب إلى القول بأن قوة الابتكار، إنما تكمن في لسان الشعراء المخلصين لأنفسهم وفنهم.

تفرد جبران بقوة الإيحاء وبساطة التعبير والانفعال الحاد وصدق الشعور وانتزاع صوره من الطبيعة، وقد أسعفه إلى ذلك ملكته على خلق صور رائعة وهناك أمثلة كثيرة على ذلك تبين تأثر الشابي بجبران، فهذا جبران يقول:

مـــــن يهـــــوى النــــور فـــــالنور يهـــــواه

والشابي يقول:

ومــــن ناجـــت النـــور أحلامـــه يباركـــه النــــور أنــــى ظهــــر

وهذا الشابي يقول أيضاً «أضاع الرشاد في ملعب الجن فيا بؤسه أصيب بمس» عبارة قالها الشابي متأثراً بجبران حين أومأ رهط من الشيوخ قائلين: «هو مجنون أضاع صوابه في مسارح الجن والغيلان».

كما يظهر أثر جبران واضحاً في قصائد الشابي ومنها قصيدة «النبي المجهول» التي حملت أفكار التمرد الشابية والتي استوحاها من جبران، فقال الشابي:

في صـــباح الحيـــاة ضـــمخت أكـــوابي وأترعتهـــــا بخمـــــرة نفسيـــــ

ثـــم قـــدمتها إليـــك، فأهرقـــت حيقـــي ودســـت يـا شـعب ُ كـأسي
فتألمـــت .. ثـــم أســـكت آلامـــي وكفكفـــت مـــن شـــعوري وحسي
هــا أنــا ذاهــب إلى الغــاب يــا شــعبي لأقضيـــ الحيـــاة وحـــدي بيـــأسي

وليس بالضرورة أن نؤكد ما تغنى به جبران بنغمة الغاب والعيش بين طيور وأشجار الغابة مفكراً في أسرار الوجود.

لقد قدس الشابي يقظة الإحساس، وجعله كل شيء في حياته، فاليقظة عند جبران تجعل منه بطلاً غريباً بين الناس لا ينقاد إلى تعاليمهم وتقاليدهم، لأنه يحس بنفسه ويشعر بذاته. وهذه اليقظة أيضاً هي التي شعر بها الشابي حين قال: «ومن شعر بنفسه حق الشعور احترمها وسما بها عن مواطن الضعة والحقارة، ومن شعر بالحياة حق الشعور لم يستطع أن يكون بوقاً يردد صدى غيره».

فالمشابهة بين الشابي وجبران جاءت نتيجة دراسة عميقة لأدب جبران وفكره، وهذا واضح في شعر الشابي وتأثره بجبران وبالأدب المهجري، فأسلوبه النثري كما هو واضح متأثر بأسلوب جبران، كما هو في أسلوبه الشعري أيضاً.

غير أنني أؤكد أن البحث يحتاج إلى أكثر من هذا لتوضيحه، وإنما هي فكرة موجزة وملخص يبين تأثر الشابي بجبران وبأدبه وفنه وركونه إلى الطبيعة بتعبير بسيط وشعور صادق تتلمذ فيها الشابي على جبران.

بين الشابي والتجاني

قامت دراسات متعددة تتحدث عن الشابي مع أقرانه، وكان منها دراسة للدكتور عبدالمجيد عابدين وأثبتت في كتاب دراسات عن الشابي من إعداد أبي القاسم محمد كر ّو، تعرض فيها الكاتب حول ما أشيع من علاقة بين الشابي والتجاني «شاعر الجمال». واعتمد في الدراسة على ما ورد في كتيب للأستاذ أبي القاسم بدري بعنوان «الشابي والتجاني» كما اعترف الدكتور عبدالمجيد في غير هذا الكتاب. كما اعتمد في دراسته «الخيال الشعري عند العرب» ثم كتاب «الشابي حياته وشعره» وغير ذلك مما وقع بين يديه من مراجعوقد جاءت دراسة الكاتب مستفيضة، وضع فيها رأيه وبين ّ وجه الاتفاق ووجه الاختلاف بين الشاعرين. وفي بداية الدراسة قدم الكاتب لرأي الأستاذ (أبو القاسم بدري) والذي تناول وجوه الشبه بين الشاعرين في النشأة والثقافة وفي النزعات

النفسية والفلسفية، وفي النظرة القومية والاتجاه الفني، حتى أن الباحث يعتقد أن الشاعرين أخوان حيث نشآ في بيئة دينية محافظة، ونهلا من ثقافة عربية إسلامية ودرس كل منهما الترجمات الواردة من الكتب المترجمة عن الثقافة الغربية، لأنهما لا يعرفان غير اللغة العربية، ثم جاء إلى الجانب الصحي فكلاهما مريض وعاشا فترة قصيرة فكان الشابي قد قضى وهو ابن خمسة وعشرين عاماً والتجاني قضى في نفس العمر. وهما متشابهان أيضاً في نزوع كليهما النزعة الصوفية الزاهدة عن الملذات الجسدية من غير عزلة عن حياتهما الاجتماعية، وتأثرا بما يجري في بلديهما من جمود وفقر وانحطاط وجهل ومرض، ولذلك تبرما من قومهما وتشاءما من حياتهما وحاولا إصلاح المجتمع بالنقد وإن جاء من إحساس بالضعف والخضوع.

ويرى الأستاذ أبي القاسم بدري أن للشاعرين فلسفة متقاربة من روحهما بثورتهما على الأوضاع إلى جانب التقارب في النشأة والتطور. أما في المجال الشعري فقد تشابها في النظم والتعبير وتصوير الطبيعة والأحداث الوطنية والحب والجمال والعاطفة والوجدان وتصوير الحالات النفسية.

واعتبر الدكتور عبدالمجيد الدراسة بأنها تستحق التقدير، لكنه وضح بأن المقارنة بين شاعر وشاعر ليس بالأمر السهل ولا يتحقق إلا بدراسة واعية لشعر كل واحد من الشاعرين من جهة، ولحياة كل شاعر من جهة أخرى. ويرى أن مؤلف الكتاب ويعني أبا القاسم بدري رجع إلى مقالة كتبها حسن سباطة في مجلة الرسالة، وربما كانت هي المرجع الوحيد في الدراسة لأنه لم يذكر مراجع أخرى.

أما الأستاذ أبو القاسم محمد كر ّو فله كتاب فصل فيه حياة الشابي من خلال البيئة التي عاش فيها الشابي وأورد مجموعة من شعره، وقد وضح فيه فن الشابي ونظرته إلى الحياة بشكل يختلف عن فن التجاني ونظرته إلى الحياة، وهو يقول: «لقد حاولت جهدي أن أنشد من خلال ما كتبه الأستاذ الفاضل وجهاً واحداً من وجوه الشبه بين فني الشابي والتجاني، فلم يهدني إدراكي إلى شيء من ذلك يقنعني، وسوف أراني مضطراً إلى توضيح رأيي وهو يقوم على أن الشاعرين الشابي والتجاني مختلفان من حيث الاتجاه الفني والنزعة الفكرية، اختلافاً أساسياً».

أولاً: مسألة النظم والتعبير: وضح الدكتور عابدين أن التعبير عند الشاعرين مختلفاً في الأسلوب، فالشابي يؤثر في معظم قصائده العبارة التحليلية السهلة، فلا يوجد في شعره

معاظلة ولا تراكباً، وليس في تركيبه شيء من الغموض أو التعقيد، ويعتمد أسلوب الحكاية والسرد القصصي، ويمثل على ذلك بالأبيات:

وفي ليلـــة مـــن ليـــالي الخريـــف مثقلـــة بالأســـى والضـــجر
ســـكرت بهـــا مـــن ضـــياء النجـــوم وغنيـــت للنهـــر حتـــى ســـكر
ســـألت الـــدجى هـــل تعيـــد الحيـــاة لمـــن أذبلتـــه ربيـــع العمـــر
فلـــم يـــتكلم فـــؤاد الظـــلام ولم تـــترنم عـــذارى الســـحر
وقـــال لي الغـــاب في رقـــة محببـــة مثـــل خفـــق الـــوتر
يجـــيء الشـــتاء شـــتاء الضـــباب شـــتاء الثلـــوج شـــتاء المطـــر
فينطفـــئ الســـحر ســـحر الغصـــون وســـحر الـــثمار وســـحر الزهـــر

وبهذاالأسلوب الحواري يستمر الشاعر ليستفهم ويتلقى الجواب متدفقاً بعباراته في هدوء وتفصيل.

أما التجاني فيقرر الدكتور عابدين أنه يؤثر الحبكة القوية والعبارات المتراكبة المركزة باستثناء قصيدة (القمر المجنون) فكما جاء الفرق في الأسلوب الشعري بين تحليل العبارة عند الشابي والميل إلى الحكاية، فإن شعر التجاني تركيبي العبارة يميل إلى التركيز والإيحاء، ثم كان الفرق في الكتابة النثرية فالتجاني في مقالاته النثرية، يجنح إلى التماسك والحبكة ولا يميل إلى السرد القصصي، أما الشابي فقد كتب قصة (في المقبرة)، وقصة (جميل بثينة) كما كتب مسرحية «السكير». والتجاني لم يعهد له كتابة قصة أو مسرحية.

ثانياً: تصوير المناظر الطبيعية: قلما تخلو قصيدة من قصائد الشاعرين من وصف المناظر الطبيعية والمرئيات، ومع ذلك فهناك اختلاف في وصفهما، حيث اعتنى الشابي بالطبيعة والإكثار من تصويرها، وكانت ظروف حياته ومرضه تتدخل في ذلك، فقد كان الشابي مصاباً بتضخم القلب، ولذلك نصحه الأطباء بالعيش في الجبال وبين أحضان الطبيعة حيث الغابات والبساتين والأودية والأنهار، فمضى يجوبها صيفاً وشتاءً لمدة ثلاث سنوات يتغنى بأجمل قصائده وأروع نظمه فيها. ويختلف التجاني في هذا عن وصف الشابي، مع أنه قلّ أن ينظم قصيدة تخلو من وصف المناظر الطبيعية والمرئيات ورسم صور ما يراه.

ثالثاً: تصوير الأحداث الوطنية: يوضح الدكتور عابدين أن الشاعرين اختلفا أيضاً في هذا الجانب، ووجد أن التجاني له صيحات صادقة تتجه إلى بعض طبقات المجتمع

الذي يعيش فيه، أما الشابي فله مجموعة من الشعر الوطني الكفاحي تتجلى فيه نظرته إلى شعبه كله، وبين وسائل الخلاص ممن استعبد شعبه وأوجعه وقهره، وقد استمد الكاتب رأيه من المجموعات الشعرية لكلا الشاعرين.

رابعاً: تصور الحب والجمال: أوضح الكاتب أن الجمال عند التجاني كان مجاله أوسع وأكثر تنوعاً، وكانت مظاهر الجمال واضحة جلية في شعره، ويتجلى الجمال الإلهي في شعره الصوفي. أما الشابي فكان حب الطبيعة أبرز ما اتجهت إليه عاطفته، وقد وصف الجمال البشري، ويلاحظ الغزل البشري في قصيدتين هما: «الساحرة» و«تحت الغصون» ويتجلى الغزل الحسي حيث تفتنه مفاتن الجسد، وحركات المرأة وملامحها وهو بهذا يختلف عن غزل التجاني الذي يتجلى في السمو عن الجسد وينشغل بما وراء الحس.

ويُغلِّب الكاتب سبب ذلك، بأن حب الشابي للمرأة جاء في مرحلة مبكرة قد تجاوزها التجاني حتى وصل إلى الجمال الصوفي الأسمى، فحب الشابي للمرأة لم يتغلغل إلى أعماق نفسه حتى أورد أبو القاسم محمد كرّو أن الشابي لم يحب في حياته حباً عنيفاً. وقد أورد الكاتب قصيدة عنوانها «أيتها الحالمة بين العواصف» بأنها ليست غزلاً بامرأة كما جاء في كتاب الأستاذ بدري وإنما هي أبيات خاطب الشاعر بها نفسه وموهبته الفنية. وأن الشابي قد أحب إلى جانب الطبيعة فنه وموهبته وأعجب بهما فاتخذ من بعض قصائده متنفساً له في حياته الأليمة البائسة.

خامساً: التجديد عند الشاعرين: يعتبر الأدباء الشاعرين مجددين، والشعراء المجددون في عصر هذين الشاعرين كثيرون في الوطن العربي، فهل كانوا جميعاً متشابهون؟

الشابي تأثر بالأدب المهجري تأثراً مباشراً واضحاً من خلال قراءته لجبران ونعيمة وأبي ماضي، كما حفظ أشعارهم وردد حب الطبيعة الوادعة وتصوير الغابة وجمالها وتأثر بأسلوبهم السردي القصصي ووضوح العبارة.

أما التجاني فقد قرأ الأدب المهجري، لكن تأثره به كان قليلاً.

وفي ختام دراسته أوضح الدكتور عبدالمجيد عابدين أن التشابه بين الشاعرين قد اقتصر على صور وتعبيرات متناثرة هنا وهناك، «من تلك الحصيلة المشتركة التي تكاد تكون بين الشعراء المجددين على اختلاف مذاهبهم وشخصياتهم» وتبقى مشابهة أخرى بينهما في تقارب السن والمرض.

وعلى أي حال، فإن الشابي والتجاني شاعران متعاصران ومتشابهان، يفترقان في بعض الميزات لكنهما يلتقيان في كثير من المواهب. فكلاهما من أسرة عريقة لها جذور دينية وكلاهما اهتم في بداية حياته بعلوم الشريعة، وكلاهما وقفا عند اللغة العربية ولم يتعلما لغة أجنبية وكلاهما نهل من الترجمات الذي أطلق خياليهما، وكلاهما أصيب بالمرض الذي أعاق تقدمهما، فماتا في عنفوان الشباب، وكلاهما عاش وسط العقد الخامس ولم ينعما بطيب العيش ولذة الحياة، ثم تشابها بنظرتهما الفلسفية التي صبغت شعريهما التي نزعت إلى التصوف والزهد عن الملذات الجسدية والذي ظهر في التبرم والسخط على أحوال المجتمع والتطلع إلى الأحلام التي تخلصهما من واقع مرير وحاضر بائس، جراء الاستعباد والاستبداد، فأدى كل واحد منهما رسالته التي كان يرمي إليها من أجل تحرير بلده باستفزاز مشاعر الشعب بعد تصوير أحواله وتجسيم آلامه.

وباختصار: الشابي والتجاني شاعران معاصران ومتشابهان، يلتقيان في كثير من مواهبهما، ويفترقان في بعض الميزات. تشابها في وضع الأسرة والدراسة والبيئة الدينية والأخذ من الترجمات، وتقاربا في المرض، كما تشابها في الفلسفة التي صبغت شعريهما ونزوع كل منهما نزعة التصوف والزهد عن الملذات الجسدية دون أن يعيشا بمعزل عن الحياة الاجتماعية في بلديهما، كما نجد في شعريهما تبرماً وسخطاً على أحوال المجتمع والتطلع إلى مستقبل جميل بإطلاق خياليهما وكلاهما مات في عنفوان الشباب عندما بدأا يقدمان إنتاجهما المبدع وفكرهما الخلاق.

الرمز في شعر الشابي

جاء الرمز في شعر الشابي متداخلاً ومركباً، حيث كشف فيه عن صراع الأضداد، مستخدماً أكثر من رمز بدلالة واحدة، فقد ورد الليل والمساء بدلالة واحدة، أو الفجر والصباح أو الفجر والربيع أو الصباح والربيع، ثم كشف أيضاً عن تصارع الليل والحلم أو الخوف والربيع وهكذا، وتفهم هذه الدلالات من خلال القصائد الواردة فيها.

وقد عبر الشابي عن صورة الليل للظلم والحزن وقتل الأحلام واستخدمها للغربة والرهبة والضعف، كما استخدمها أحياناً رمزاً للحب والجمال وإن غلبت عليه دلالة الحزن والظلمة خاصة عندما يقول:

لست أبكي لعسف ليل طويل   أو ربيع غدا العفاء مراحه
إنما عبرتي لخطب ثقيل   قد عرانا ولم نجد من أزاحه

فقد ركب كما تلاحظ صورة الليل مع العسف الطويل والحديث في البيت عن المستعمر الذي طال بقاؤه على أرض تونس، مع وضوح ضعفه اتجاه هذا المحتل، وهو لا يملك إلا الدمعة، إذن هي رمز للظالم والظلم الذي يصرخ اتجاه بعض مظاهره.

وقد استخدم الشاعر وجوهاً كثيرة أو قل رموزاً لهذا الظلم بدلالة الحزن:

أزنبقة السفح ما لي أراك   تعانقك اللوعة القاسية
أأسمعك «الليل» ندب القلوب   أأرشفك الفجر كأس الأسى؟

فالليل يسمع ندب القلوب الحزينة الباكية المتوجعة، وأنات المقهورين:

فلربما كانت أنيناً صاعداً   في الليل من متوجع مقهور

والليل عند الشابي طيف كئيب، رهيب مريع مخيف، طويل:

إن ليل النفوس، ليل مريع   سرمدي الأسى شنيع الخلود

أو قوله:

نبثق الليل طيفاً كئيباً   رهيباً، ويخفق حزن الدهور

كما يمثل في طور آخر الغربة كوجه من وجوه الليل:

والسـعيد السـعيد مـن عـاش كالليـل غريبـاً في أهـل هـذا الوجـود

ومن قسوة الليل عند الشابي أنه يحمل في ظلامه الأشباح:

وكـم رأى ليلـك الأشـباح هائمـة مـذعورة تتهـاوى حولهـا الـرجم

ومن قسوة الليل أيضاً أنه يحمل الألم والرهبة والبؤس:

أيهـا الليـل يـا أبـا البـؤس والهـول يـا هيكـل الحيـاة الرهيـب
أنت يا ليل ذرة صعدت للكون من مـوطئ الجحـيم الغضـوب

وفي نهاية المطاف، يفقد الأمل من هذا الليل الأسود فيخاطبه:

أيها الليـل ، أنـت نغـم شـجي في شـفاه الـدهور بـين النحيـب

هذا وجه سوداوي لليل عند الشابي، لكن الشابي في جهة أخرى يحمل الليل دلالات السحر والحب والأحلام والهدوء والسكينة، هذا الظلام الجميل يمتلئ بالأحلام، فقد بنى حوله وحبيبته معبداً للجمال، وهي صورة مخالفة للصورة السابقة وهذه هي عاطفة الرومانسي:

وبنـى الليـل والربيـع حوالينـا مـن السـحر والـرؤى والسـكون
معبـداً للجـمال والحـب شـعرياً مشـيداً عـلى فجـاج السـنين

وما بين هاتين الصورتين لليل، بين سخطه وحبه لليل يبني الشابي صورة ثالثة مع ليالي الخريف لتحمل دلالة أعمق وأقوى فيها الذبول وسقوط أوراق الأشجار، ومع كل هذا فهو حريص أن تبقى الأزاهير والأعشاب قوية لا تستطيع الليالي إخفاءها:

ن في الغـاب أزاهـيراً وأعشـاباً عـذاب
اخضـراراً أبـدياً ، لـيس تمحـوه الليـالي

ومع ذلك فقد صور الشابي بين رموزه الكثيرة عن الليل، أنه لا بد أن ينقشع ظلامه أو قيده في صورة مركبة رائعة:

إذا الشـعب يومـاً أراد الحيـاة فـلا بـد أن يسـتجيب القـدر
ولا بـد «لليـل» أن يـنجلي ولا بـد للقيـد أن ينكسر

فلا بد لليل أن يزول، كما أنه لا بد لقيد المستعمر أن ينكسر، شريطة أن يطلب الشعب الحياة فيتحرر من المستعمر الظالم، وأمام قوة الشعب وعنفوانه فلا بد أن تأتي الحرية.

وأمام صورة الليل القاتمة غالباً يبزغ الفجر في شعر الشابي وقد حمل الفجر رموزاً ودلالات، فهو مشرق وجميل وفيه آمال وحرية وهو خالد لا ينتهي، وهو يتغزل بالفجر:

وتغزلـــت بـــالربيع وبـــالفجر فـــماذا ســـتفعل الـــريح بعـــدي

ثم يقول:

غننـــي أنشـــودة الفجـــر الضـــحوك أيهـــــــا الصـــــــــــداح
فروحـــاً بفجـــر الخلـــود البهـــيج ومـــا حولـــه مـــن بنـــات النجـــوم

ثم يأتي بالضدين في بيت واحد:

في رقـــــة الفجــــــر الوديـــــع وفي الليــــــــالي الحالمـــــــــة

لأن الفجر ساطع واضح في نوره لا ينتهي بل هو مستمر مع الزمان:

ولـــه فجـــر عـــلى طـــول المـــدى ســــــــاطع الأنـــــــــوار

والفجر في نفس الشابي هي الحياة، فإذا انقضى الفجر ضاعت الحياة:

وانقضى الفجـر فانحـدرت في الأفـق ترابـــاً إلى صـــميم الـــوادي

وهو رمز الخلاص من أسر الليل ولذلك فإنه يترقبه:

أعـــده فجـــري الجميـــل، إذا أدلهـــم عـــليّ دهـــري
خـــذني فقـــد أصـــبحت أرقـــب في فضـــاك الجـــون فجـــري

والفجر رمز الحرية التي تسعى إليها تونس.

طبق أجفانك النيرّات عـن الفجـر ، والفجـر عـذب ضـياء

وفي المحصلة فإن الفجر عند الشابي ربيع الحياة وأولها، وهو واهب الأمل وهو الفرحة والابتسامة ولذلك فإنه يحلم بعودته وهو دائماً يتأمل السماء ليرى مبسم الفجر المنتصر دائماً على الليل، وكان أحياناً يستخدم رمز الصباح موازياً للفجر:

وصـــبح الحيـــاة لا يـــوقظ المـــوتى ولا يـــرحم الجفـــون الكليلـــة

والصباح يقابل النواح عند الشابي في قوله:

مــــات عهــــد النــــواح وزمــــــان الجنــــــــون

وأطـــــــــــــل الصـــــــــــــباح مــــــــــــــن وراء القــــــــــــــرون

ويستخدم أحياناً النور موازياً للفجر والصباح فيقول:

يـــــا أيهـــا النـــــور النقـــــي وأيهـــا الفجـــر البعيـــــد
أيـــن اختفيـــت ومـــا الـــذي أقصـــاك عـــن هـــذا الوجـــود
آه ! لقـــــد كانـــــت حيـــاتي فيـــك حالمـــة تميـــــد
بـــــين الخمائـــــل والجـــــداول والـــــترنم والنشـــــيد

وكان الشابي يضفي على صوره الشعرية ورموزه إيحاءات قدسية كقوله:

ومـــن تعبـــد النـــور أحلامـــه، يباركـــه النـــور أنـــى ظهـــر

وكان الشابي يحلم كثيراً، وله إيحاءات جديدة في استحضار الأمل الذي يأمله، فكان الحلم عنده رمزاً من رموزه، وقد أسقط على أحلامه صفات الجمال والسحر والوداعة، لأنه المتنفس الوحيد له الذي يهرب به إلى خياله الذي يعوضه عن المرارة ولو للحظات فيقول:

تمشي حواليـــه الحيـــاة كأنهـــا الحلـــم الجميـــل خفيفـــة الأقـــدام

والحلم عنده بسمة تتهادى كالجداول:

يتمايـــــل الحلـــــم الجميـــــل كبســـــمة القلـــــب الثمـــــل
قـــد كـــان لي مـــا بـــين أحـــلا مـــي الجميلـــة جـــدول

والحلم فيه سحر تبدل التعاسة إلى سعادة، وطعم الحلم يغري الحالم في تذوقه وهو أمل يحبه الناس:

مـــا قـــدس المثـــل الأعـــلى وجملـــه في أعـــين النـــاس إلا أنـــه حلـــم

فالسعادة عند الشاعر حلم، والطفولة تلك الفترة المعسولة الجميلة هي حلم، وكان الشاعر يشتاق إلى الحلم بلوعة لأنه رؤيا جميلة يصوغ بها الشاعر واقعاً جديداً وهو يحفز قلبه ويذكره بآماله ليحيا حياة جديدة:

أيـــن أحلامـــك يـــا قلبـــي لقـــد فـــات الفـــوات

أو قوله:

لا تـــرى غـــير فتنـــة العـــالم الحـــي وأحــــــلام قلبهــــــا المســــــحور
ودعونـــا هنـــا تغنـــي لنـــا الأحـــلام والحـــــب والوجـــــود الكبـــــير

ثم يعود إلى الفجر وهو رمز من رموز الأمل المطرز بالأحلام:

كنـــت في فجـــرك الموشـــح بـــالأحلام عطـــــراً يـــــرف فـــــوق ورودك

ويعود إلى الغاب ليطرز صورة جديدة في أحلامه:

فـــأعيش في غـــابي حيـــاة كلهـــا للفـــــن، للأحـــــلام، للإلهـــــام

أو قوله:

ويـــوشي الوجـــود بالســـحر والأحـــلام والزهـــــر والشـــــذى واللحـــــون

ولذلك فإنه يعتبر الحياة بدون أحلام هي موت مقيد بالسلاسل.

والحيـــاة التـــي تخـــر لهـــا الأحـــلام مـــــوت مثقـــــل بـــــالقيود

وهذه الأحلام كما نراها عند الشابي هي آمال يحيا بها لأنها أدواته وهدفه فهي ناي وهي شجرة وهي عروس وهي الثورة على الشر وهو الشباب والربيع والحب، وعلى المجمل فهي الحياة بكل نوازعها.

أما الربيع فهو دليل الخصب والنماء والجمال وواهب الحياة، وهو الفنان المفتون:

والربيـــع فنـــان شـــاعرها المفتـــون يغـــــري بحبهـــــا وهواهـــــا

فهو الفنان الذي يرسم بصورته جمال الطبيعة الساحرة الذي يحيل الأرض الجرداء إلى الحياة، لكنه في نظره ساذج غرير.

وإلا ربيـــع الوجـــود الغريـــر ورقـــص الأشـــعة فـــوق الظـــلال

ولأن الربيع ساحر وجميل فقد أشاد الشاعر به وأنشده:

نحـــن نشـــدو مـــع العصـــافير للشـــمس وهــــذا الربيــــع يــــنفخ نايــــه

ثم يقول:

فسرت إلى حيث تـأوي أغـاني الربيـع وتـذوي أمـاني الخريـف

وهنا يبدأ الشابي في تعرية المستعمر، بأن ما يقدمه ليس ربيعاً وإنما هو خداع، لأن ما يقدمه من إغراءات فإن العاصفة قادمة:

رويـــــدك لا يخـــــدعنك الربيـــــع   وصـــحو الفضـــاء وضـــوء الصـــباح

ثم ينتقل إلى مقارنة الربيع بضده، فيرمز بالربيع إلى الحياة كما يرمز إلى الخريف بالأسى والجمود كما هو في الشتاء:

وســـوف يمضي ـــ شـــتاء الأســـى ويـــأتي ربيعـــك

أو قوله:

فسرت إلى حيث تـأوي أغـاني الربيـع وتـذوي أمـاني الخريـف

وهكذا يسير الشاعر لينتج من أشعاره رموزاً شعرية وصوراً جميلة لها دلالاتها وإيحاءاتها، فالربيع رمز التجدد والعطاء والخريف رمز الذبول والزوال وهو شاحب ملول:

فيـــك يبـــدو خريـــف نفسيـــ ملـــولاً   شـــاحب اللـــون عـــاري الأملـــود

وهناك رموز أخرى متعددة، وإنما أسوق هذه كأمثلة على رمزية الشاعر وشاعريته التي تعددت فيها فنون الشابي وأغراضه المتنوعة وصوره الشعرية التي تقوم بأكثر من دور داخل القصيدة. لبناء التشكيل الجمالي وتنامي المواقف لتعكس جوهر موقفه الشعري.

خصائصه الفنية

الشابي شاعر وجداني، وهو على فترة حياته القصيرة فقد كان مكثراً مجيداً، وقد أجمع الدارسون على أنه شاعر مطبوع على المذهب الرومانسي، وقد برز شاعراً ناضجاً إذا ما قيس بأنداده من الشعراء المعاصرين له، ويرى الأستاذ مصطفى رجب أن الخصائص الرومانسية تبرز عند الشابي في اللفظ والعبارة والأسلوب والقالب والدعوة إلى الطبيعة والاستماع إلى النفس وتوسيع دائرة الشعر وابتكار الموضوعات ومسايرة روح الموضوع في النزعة الإنسانية، وكان صادق التعبير دقيقاً في التصوير، مما كان يجيش في فؤاده من حب للحياة والطموح إلى الخلود في نغمات هادئة وطمأنينة وسلام. فكان كل بيت من قصائده قطعة من قلبه ومزيجاً من العبقرية والإلهام وهو لا يتصنع ولا يتكلف، بل جاءت أشعاره أنغاماً تفيض على وجدانه وتنساب من أحاسيسه، ومشاعره، ولذلك أحبه الناس ورددوا أشعاره وتغنوا بها فكان ذلك سر خلوده وخلود شعره وانتشاره.

وقد جمع الشابي في شعره بين التمرد والتصوف بعاطفة رقيقة ودعوة إلى الإصلاح الاجتماعي، كما دعا إلى التحلل من قيود الرجعية والجمود وإلى حب الطبيعة. كما ثار على عمود الشعر وأعلن تحرره على قيود اللغة والقافية، فسار بذلك في ركب شعراء المهجر، واتصل بجماعة أبولو وكان بينه وبين أبي شادي وإبراهيم ناجي رسائل جريئة في النقد الأدبي، وقد برع في عرض شعره وتصويره ومتانة أسلوبه وسعة لغته وقوة خياله وجمال تراكيبه وروعة تشابيهه واستعاراته.

وعالج في شعره الفلسفة فبحث في أعمق موضوعاتها دون أن يخشى ما حوله، لأنه كان يقصد أن يصل إلى كنه الأسرار الغريبة التي ينطوي عليها عالم ما وراء الموت، ولذلك نجده يمر في طور من أطوار حياته بحالة من الحيرة والشك والغموض. ونظر إلى الشعر نظرة قداسة فترفع عن الأغراض الصغيرة الباهتة فلم يمدح أحداً ولم يرث أحداً وإن وجدنا قصيدة واحدة هي أقرب إلى النواح فيها على الرثاء، ذلك لأنه استطاع أن يخط لنفسه منهاجاً يسيرعليه خاصة في بداياته الشعرية، فكان شاعراً صادقاً شامخاً يسمو فوق كل ضعة.

وقد جرى في شعره على أسلوبين: أسلوب متين النسج خص به شعره في الحكمة والفخر، وأسلوب لين سلس في الأغراض الوجدانية الخيالية.

وكان الشابي مثل غيره من المجددين الذين ابتعدوا عن عمود الشعر العربي فتجنب بعض المفردات، ويوضح الدكتور عمر فروخ في كتابه الشابي شاعر الحب والحياة أن الشابي «من الناقمين على عمود الشعر العربي، وعلى الحياة العربية الأصيلة، أراد أن يتجنب الألفاظ الإسلامية ذات النفحة العربية الملامح ليتبدل بها ألفاظاً وثنية الأصل عامية الاستعمال وخصوصاً في طوره المتأخر»[١] وقد وضح الدكتور عمر فروخ ما يقصده بأمثلة منها مع استعمال هذه المفردات وعدد مرات استعمالها كما بين بعض الأخطاء النحوية والصرفية.

لكن التليسي ذكر في كتابه بين «الشابي وجبران» أن الشابي ذو «ثروة من الألفاظ اللونية والصوتية ... ومن قوة الإحساس هي التي تخلق ألفاظه ومعانيه المتمردة المتحررة في مواضع السخط والتمرد، وهي التي تتدفق بالألفاظ اللينة الوديعة في مواضع اللين والضراعة».

ونورد هنا هذين المثلين لنبين وجهات النظر عند الأدباء والنقاد لتوضيح الألفاظ عند الشابي.

وللإنصاف فإني أورد ما قاله الأستاذ مدحت سعد محمد الجبار في كتابه حول الصورة الشعرة عند الشابي حين تحدث عن دور التكرار في بناء الشابي لصوره الشعرية حيث وضح: أن التكرار بعدة أدوار ظاهرة موجودة عند الشابي. وتمثل الكلمة المكرورة المركز الدلالي الذي ينطلق منه الشاعر ليخلق في كل مرة علاقة لغوية جديدة أو صورة شعرية جديدة وهذا دأب الشعراء ومنهم أبو القاسم الشابي، لأن تكرار الكلمة يؤدى إلى وظيفة جمالية مختلفة ذات دلالة وإيحاء جديد في كل مرة، والتكرار يساعد الشاعر على تشكيل موقفه وتصويره. وهذا يعتبر من باب القوة لا من باب الضعف، لأن الدلالة الشعرية تنتج من علاقة قائمة بين الكلمة وما حولها، والشابي في كثير من الأحيان كان يعمد إلى تكرار الكلمة، وقد يكرر عناوين كاملة للقصائد أو يكرر مقطعاً أو يبني صورة جديدة بالتكرار. ففي قصيدته «الكآبة المجهولة» كرر كلمة كآبة أربع مرات ليخلق في كل مرة صورة شعرية جديدة، أما مادة الكآبة فقد كررها ثلاث عشرة مرة مصراً بها على إظهار موقفه وشعوره والأبيات هي:

(١) عمر فروخ، الشابي شاعر الحب والحياة، ص١٨٠.

كآبـــة النـــاس شـــعلة ، ومتـــى   مـــرت ليـــال خبـــت مـــع الأمـــد
أمـــا اكتئـــابي فلوعـــة ســـكنت   روحـــي وتبقـــى بهـــا إلا الأبـــد

وكما نرى فإن التكرار هنا جاء للإضافة أو التخصيص ليبين حزنه الشديد ويقارن بين كآبة الناس وكآبته، فكآبة الناس شعلة تزول، أما كآبته فلوعة دائمة تسكن روحه. وفي موضع آخر:

ولـــــيس في عـــــالم الكآبـــــة   مـــن يحمـــل معشـــار بعـــض مـــا أجـــد
كـــآبتي مـــرة وإن صرخـــت   روحـــي فـــلا يســـمعنها الجســـد

صورة جديدة في مقطع جديد يتحدث فيه عن كآبته بتصوره أن للكآبة عالم منفصل. وفي صورة أخرى يطرح حزنه وكآبته محاولاً التجديد للمفردة:

كـــآبتي ذات قســـوة صـــهرت   مشـــاعري في جهـــنم الألم

تجربة قاسية، لأن كآبته قاسية تصهر مشاعره في نار الألم المحرق، ولكنه يحاول أن يخفيها تحت الرماد:

كـــآبتي شـــعلة مؤججـــة   تحـــت رمـــاد الكـــون تســـتعر

ومقارنة أخرى بين كآبته المؤججة وكآبة الناس شعلة تخمد مع الزمن. ثم يسير في القصيدة حتى يصل إلى الأمل المنتظر الذي يعلقه على كآبته، آملاً أن تتحول إلى فجر مضيء، ثم يكرر الشاعر نفس المقارنة السابقة لأهميتها عنده:

كآبـــة النـــاس شـــعلة ومتـــى   مـــرت ليـــال خبـــت مـــع الأمـــد
أمـــا اكتئـــابي فلوعـــة ســـكنت   روحـــي وتبقـــى بهـــا إلى الأبـــد

وكما نرى فإن لفظة الكآبة عنده تكررت، وفي كل مرة يرسم لنا صورة أو يُكوِّن علاقة يجعلها عاملاً مشتركاً بينه وبين الناس ومقارنة بين كآبته وكآبة الآخرين. وهذا مثال والقصائد عند الشابي فيها كثير مثل هذا، مثل كلمة الليل فيجعله مرة كئيباً ومرة جميلاً غريباً، ومثل كلمة الأمس التي كررها سبع مرات وهو يلح عليها فحياته أمست واجمة، وكل شيء جميل كان أمس، والأمس جرفته يد المنون، وظل الأمس، وزالت ظلال الأمس أو كلمة الشتاء: يجيء الشتاء، شتاء الضباب، شتاء الثلوج،شتاء المطر وربما كان يحتاج إلى مثل هذا التكرار للتفريغ والتنويع، ومثل هذا التكرار في كلمة الكون: الكون – كون شقاء، الكون – كون التباس، الكون – كون اختلاق.

أما كلمة الموت مع تجاوز ما فيها من التكرار فقد كررها مرتين في البيت الواحد وقد صوره بأنه روح جميل، وجام روي، ومهد وثير، وهذا يعكس نفسية الشابي حول الموت الذي كان يراه مخلِّصاً من عبث الحياة وهو يريد إقناع القارئ أو السامع بالتنبيه إلى الموت وفي موضع آخر يتجاوز الصور ليخصص وظيفة كلمة الموت فيقول:

واليـــــأس مـــــوت ولكــــــن مــــــوت يثـــــير الشـــــقاء

فاليأس موت ولكن هذا الموت يثير الشقاء، لأنه يتصور كرهه لليأس، هذا وقد أثبت الدكتور عمر فروخ ص١٨٢ وما تلاها المفردات المكرورة عند الشابي، وربما كان تكرار بعضها لداع وربما كان لغير داع، وفي قصائد مختلفة أو جاء التكرار في نفس القصيدة.

لكن قصيدة «الدموع» جاء التكرار فيها لكلمة النفس، لنجد أن في كل تكرار صورة شعرية وانظر إليها:

ﻢ أجـــد في الحيـــاة لحنـــاً بـــديعاً يتبنـــى ســـوى ســـكينة نفسيـــ
أن في روضـــة الحيـــاة لأشـــواكاً بهـــا مزقـــت زنـــابق نفسيـــ
تتهـــاوى مـــا بـــين غصـــات قلبـــي بســـكون بـــين أوجـــاع نفسيـــ

نفس الكلمة (نفسي) وشكلها فهي سكينة وزنابق وأوجاع وهي وعاء لأحزان الشاعر، فهي في البيت تتبنى سكينة نفس الشاعر وفي الثانية مزقت الأشواق زنابق نفسه، ولكنها في البيت الثالث تتهاوى بين غصات قلب الشاعر وتسكن بين أوجاع نفسه. هذا بالنسبة للمفردات لكن الشابي كان يكرر الحروف كالكاف أو حرف النداء أو حروف العطف وكان يكرر الضمير، وفي قصيدته (قلبي التائه) يكرر الضمير (أنت) توكيداً للمشبه ليقدم صوراً عديدة للمشبه به، وهذا يعكس حالته النفسية في لحظة من اللحظات، وهو عندما يكرر الضمير عشر مرات في لحظة واحدة وفي قصيدة واحدة فإنه يستعيد صورة محددة لخلق علاقات بين معطيات جديدة للأحزان على قلبه.

أنـــت يـــا قلبـــي قلـــب ، أنضـــجته الزفـــرات
ـــت يـــا قلبـــي عـــش ، نفـــرت عنـــه القطـــاة
أنـــت حقـــل ، مجـــدب ، قـــد هـــزأت منـــه الرعـــاة
أنـــت ليـــل ، معـــتم ، تنـــدب فيـــه الباكيـــات

أنـــت كهـــف ، مظلـــم ، تـــأوي إليـــه البائســـات
أنـــت صرح ، شـــاده الحـــب عـــلى نهـــر الحيـــاة
أنـــت قـــبر ، فيـــه مـــن أيـــامي الأولى رفـــات
أنـــت عـــود ، مزقـــت أوتـــاره كـــف الحيـــاة
أنـــت لحـــن ســـاحر يخـــبط في التيـــه المـــوات
أنـــت أنشـــودة فجـــر ... رتلتهـــا الظلـــمات

الشاعر يخاطب بهذه الأبيات قلب إنسان يجسده ليعطيه الدلالات التي يحس بها فكرر المشبه وهو الضمير «أنت» ليأتي بصور المشبه به حسبما يفيض به صدره، وهو بهذا يعكس واقعه وأحاسيسه.

وقد فعل مثل هذا في قصيدته «إلى الله» التي يعدد فيها صور معاناته وعذاباته من خلال ما يعانيه البشر، من غربة القبور.

أما في قصيدته «صلوات في هيكل الحب» فتكرار الضمير يختلف عن هاتين القصيدتين، فهو يكرر الضمير في البيت الواحد، مرة بالاستفهام ومرة بالتقرير ويجعل من الضمير مساعداً لإيجاد صورة جديدة، وهو في تكراره هذا يثور ثم يهدأ ثم يعود إلى الثوران للتوكيد على المشبه بإيقاع موسيقي متغير ليستحضر بتكرار الضمير صورة المحبوبة، حتى إذا ما وصل إليه جاء مباشرة دون تكرار: (أنت روح الربيع)، (أنت تحيين في فؤادي)، (أنت أنشودة الأناشيد)، وبإمكانك الرجوع إلى القصيدة في الكتاب.

التراكيب

جاءت تراكيب الشابي على محورين: محور جاء على أساليب العرب في الترتيب والتقديم والتأخير وفي الإضمار، والمحور الآخر غاير فيه الشاعر أساليب العرب وقد وضح الأستاذ التليسي وهو صديق الشاعر ذلك بقوله: «أناقة التعبير ورصانته وأصالته هي الدعائم الأولى التي يقوم عليها أسلوب الشابي الذي امتاز ببعده عن (الركة) التي أخذت على كثير من شعراء المدرسة الحديثة وخاصة شعراء المدرسة المهجرية، فهو أسلوب يجري في عفوية وبساطة». لكن الدكتور عمر فروخ علق على قول الأستاذ التليسي بقوله: «إن بعض شعر الشابي كذلك (ويعني العبارة وأن شعره لمن الوضوح بحيث لا يحتاج إلى شرح – ولكن سائره مخالف لهذه الأحكام واستشهد بشعر من قصائد الشابي مثل قصيدة (غرفة من يم) أو قصيدة (نظرة في الحياة).

وقال: «ليست أنيقة، ولا بعيدة عن الركاكة ولا تفيض عفو الخاطر في سهولة ووضوح كما يريد التليسي» واستشهد بأبيات أخرى من قصيدة «إلى عذارى أفروديت»:

وسبيل الحياة رحب وأنتن ّ اللواتي تفرشنه بالورود
إن أردتُنَّ أن يكون بهيجاً رائعَ السحر ذا جمال فريد
أو بشوك يدمي الفضيلة والحب ويقضي على بهاء الوجود
إن أردتن أن يكون شنيعاً مظلم الأفق ميّت التغريد

يقول: «نحن نرى هنا حرف الشرط وفعل الشرط، ولكننا لا نرى جواب الشرط، ثم أننا لا نرى في هذه الأبيات أناقة ولا وضوحاً».

وأنا بدوري احترم رأي أستاذي الدكتور عمر فروخ، لكنني أجد في هذه الأبيات عفوية في مفرداته وتراكيبه، فالدكتور عمر فروخ أخذ جزئية من القصيدة، وجاءت القصيدة على شكل قصة سهلة واضحة وفيها تشبيهات وكلمات قريبة من النفوس مع تراكيب إبداعية «أو بشوك يدمي الفضيلة والحب» أو «شنيعاً» أو «ميت التغريد» وهذا ما كان يقصده الأستاذ التليسي حين تحدث عن العفوية والوضوح والبساطة بحيث لا يحتاج القارئ إلى عناء الشرح. لأن الشابي يسلك في شعره عرض تجاربه ومشاعره لإثارة الوجدان المماثل للآخرين.

أما تراكيبه النحوية، فلا تكاد تخرج عن التقديم أو تأخير ما حقه التقديم أو الفصل بالجار والمجرور بين الفعل ومفعوله، غير أن أكثر ما يلاحظ في شعره أسلوب النداء بسبب توجيه شعره إلى شعبه ومجتمعه. فمرة ينادي النيام ليستيقظوا من غفلتهم ومرة ينبههم للانتباه إلى جمال الطبيعة في بلادهم وقد كان يستنهض أفكارهم بأسلوب الخطاب كقوله:

أيها الحب أنت سر بلائي وهمومي وروعتي وعنائي
أيها الحب أنت سر وجودي وحياتي وعزتي وإبائي

أو حين يخاطب القمر:

يا سميري في أويقات الكدر والضجر

أو يخاطب تونس:

ـــا يـــا تـــونس الجميلـــة في لُـــجٍّ ـــوى قـــد ســـبحت أيّ ســـباحة
تلـــــو ســـــحاباً ركامـــــاً تتلـــــو قتامـــــاً مثـــــارا

وهذا ناتج عن مناجاته التي يتحدث في أكثر الأحيان بها عن نفسه، وهنا لا بد من الحديث عن طريقة استعماله للمقاطع الطويلة أكثر من القصيرة لأنها تلبي حاجاته في الملامح الصوتية في شعره وانظر إلى قوله:

إن هـــــذي الحيـــــاة قيثـــــارة الله وأهـــــل الحيـــــاة مثـــــل اللحـــــون
نغـــــم يســـــتبي المشـــــاعر كالســـــحر وصـــــوت يخـــــل بـــــالتلحين

وهذه تراكيب تكاد تكون جديدة في استعمالها، جميلة في تصويرها أو قوله في قصيدة (الذكرى):

كنـــا كزوجـــي طـــائر في دوحـــة الحـــب الأمـــين
نتلـــو أناشـــيد المنـــى بـــين الخمائـــل والغصـــون
متغـــردين مـــع البلابـــل في الســـهول وفي الحـــزون

أليست هذه تراكيب بسيطة سهلة ولكنها جديدة، قد تخطر ببال من يسير في الغابة ولكن تحتاج إلى من يركبها فيخرجها في صورة جميلة «دوحة الحب الأمين»، «أناشيد المنى بين الخمائل والغصون».

وقد زاوج الشاعر في بعض قصائده بين الحروف، فكانت سلسلة عذبة مثل حرف السين لتكون ذا أثر في الموسيقى الشعرية مثل قوله:

وسرت نشـــوة ســـحر الوجـــود وتبـــذر شـــوك الأســـى في ربـــاه

هذا إلى جانب المقابلة والجناس والطباق، التي تنتشر هنا وهناك دون تكلف وقد جاءت متماسكة في البناء.

الأوزان والقوافي في موشحات الشابي

نظم الشابي مجموعة من الموشحات، وكان لموشحاته أشكال، وقد صنفها الدكتور عمر فروخ في كتابه الشابي شاعر الحب والحياة وأول هذه الموشحات نظام قصيدته «في الظلام» التي تألفت من ستة مقاطع من بحر الرمل على تفعيلة (فاعلاتن فاعلاتن فاعلات) وجاء كل قسم منها على حرف روي خاص بها فكان القسم الأول على روي

حرف الميم ثم القسم الثاني على حرف القاف والثالث والرابع على حرف النون أما الخامس والسادس فكانا على حرف الراء وكان الموشح مقسوماً إلى قسمين متساويين، أحدهما شطر تام كما ورد سابقاً أما الثاني فهو جزء من شطر من بحر الرمل وتفعيلته: «فاعلاتن فعل»، وجاء الترتيب في الأشطر والقوافي مطّرد في المثاني الست على النحو التالي:

رفرفـــــت في دجيـــــة الليـــــل الحـــــزين   زفـــــرة الأحـــــلام
فـــــوق سرب مـــــن غمامـــــات الشـــــجون   ملؤهـــــــا الآلام

وهكذا يستمر في القصيدة حتى نهاية القسم السادس من القصيدة.

ثم كان الشكل الثاني وهو من الموشحات التي برع فيها الشاعر بترتيب موسيقي في ستة مجاميع بعنوان «مأتم الحب».

ليـــــــــــت شـــــــــــعري
أي طـــــــــــــــــــــير
يســـــمع الأحـــــزان تبكـــــي   ـــــين أعـــــماق القلـــــوبْ
ثـــــم لا يهتـــــف في الفجـــــر   ـــــات النحيـــــــبْ
بخشـــــــوع واكتئـــــــاب

وهذه الموشحة جاءت على تفعيلات مجزوء الرمل (فاعلاتن فاعلاتن)، وكما نرى فإن المطلع مؤلف من شطر مقسوم قسمين مصرّعين على الراء المكسورة ثم جاء ببيتين عجزيهما على الباء الساكنة بعد حرف لين ثم يختم المجموعة بباء ساكنة بعد ألف.

وللشابي موشحة مثناة على بحر مولّد في «الكآبة المجهولة» وتفعيلاتها (مستفعلاتن مستفعلاتن).

أنا كئيب
أنا غريب
كآبتي خالفت نظائرها
غريبة في عوامل الحزن
كآبتي فكرة مغردة
مجهولة في مسامع الزمن

بزيادة شطر في المجموعين الأول والسادس، وسترى شكل الموشح في شعر الشابي في القسم الأخير من الكتاب.

وللشابي شكل آخر من أشكال الموشحات تتألف من أربعة مجاميع في قصيدة «شكوى اليتيم» حيث جاء مطلع الموشحة على مجموعين ثم جاء بعدها أربعة أغصان على النحو التالي:

ـلى سـاحل البحـر حيـث يضـجّ صراخـه الصـباح ونـوْح المسـا
ـدتُ مـن مهجـة أتْرِ عـتْ بـدمع الشـقاء وشـوك الأسـى

فضـاع التنهـد في الضـجة
بـما في ثنايـاه مـن لوعـة
سرت وناديـت ، يـا أمّ ، هيـا
يّ فقـد سـئمتني الحيـاة

ويستمر الشاعر في موشحته، ولكنه في نهاية الموشحة يخالف أقسامها الأولى حيث أنه ترك القفل فكان على الشكل الآتي:

ولمـا نـدبت ولم ينفـع
اديـتُ أمـي فلـم تسـمع
جعـتُ بحـزني إلى وحـدتي
ردّدت نـوحي عـلى مسـمعي
وعانقـت في وحـدتي لـوعتي
وقلـت لنفسيـ: «ألا فاسـكتي»

هكذا ورد الموشح في القسم الأخير منه بدون قفل.

أما موشحة «أغنية الأحزان» فقد جاء الموشح طويلاً ويتألف من أحد عشر مجموعاً أو بيتاً، حافظ فيه الشابي على ترتيب الأشطر مع أنه خالف ترتيب القافية في كل مجموع منها.

غنني أنشـودة الفجـر الضـحوك
هـا الصـداحْ !
قـد جرّ عنـي صـوت الظـلام

لمـــــاً علّمنـــــــي كـــــره الحيــــــاة
قلبـــــي مـــــل ّ أصـــــداء النـــــواح
ننـــــــــي ، يـــــــــا صــــــــاحْ !

ومن موشحاته التي أثبتها في ديوانه أغاني الحياة قصيدة «أغاني التائه» والتي تألفت من ثلاثة مجاميع من البحر الرمل رتبها الشاعر أربعة أبيات في كل مجموع ثم تلاها بثلاثة أشطر، وهي مثبتة بين القصائد في نهاية الكتاب بإمكانك الرجوع إليها.

وقد وجدت الشاعر في المقطع الأول يخالف في القافية، لكنه عاد وضبط القافية في باقي الموشحة، ومن هذه الموشحة:

كـــــان في قلبـــــي فجـــــر ونجـــــوم		بحـــــار لا تغشــــــيها الغيـــــومْ
وأناشـــــــيد وأطيـــــــار تحـــــوم		بيـــــع مشرــــــق حلـــــو جميـــــلْ
كـــــان في قلبـــــي صـــــباح وإيـــــاه		وابتســـــامات ولكـــــن واأســـــاه
مـــــا أهـــــول إعصـــــارَ الحيـــــاة		آه مـــــا أشـــــقى قلـــــوب النـــــاس آه

كـــــان في قلبـــــي فجـــــر ونجـــــوم
فـــــإذا الكـــــل ظـــــلام وســــــديم
كـــــان في قلبـــــي فجـــــر ونجـــــوم

أما موشحته والتي بعنوان «الأشواق التائهة» فجاءت في مجموعين كل واحد منها يتألف من قسمين:

القسم الأول وتألف من أربعة أبيات على روي واحد، القاف في المجموع الأول والسين في المجموع الثاني.

أما القسم الثاني فقد تألف من أربع مثنيات جاءت قوافيها على ما يلي: ورودك، نشيدك، الورود، الوجود، الهادي، الآباد، باد، الوادي. أما الجزء الثاني من هذا القسم فتألف من رباعية ومثناتين قوافيها: مضمحلة، صداها، أساها، المملة، ثم ليل، حولي، جفوني، سجين.

أما موشحة «الصباح الجديد» فقد تألفت من ثلاثة مجاميع وتشكل كل مجموع من مطلع ومن قسمين، وقد تكرر المطلع في رأس كل مجموع:

اســـــكتي يـــــا جـــــراح واســـــكني يـــــا شـــــجون

وبإمكانك أن تعود إلى الموشحة بين أشعاره في نهاية الكتاب ولم أثبتها هنا لعدم التكرار، ومن الجدير بالذكر أن الشابي كان يميل في قوافي موشحاته إلى حرف الروي الساكن وهكذا أيضاً في كثير من أشعاره.

نماذج من قصائد الشابي للشرح والتحليل

هذا فصل في تحليل بعض قصائد أبي القاسم الشابي، لتوضيح قدرته الشعرية وتأثره بغيره وبيان أسلوبه الذي تحس وأنت تقرأ البيت الواحد وكأنك تقرأ قصيدة تقطر من فكره، كما تحس بأن شعره صور وأنغام تفيض على وجدانه وتنساب في تيارات مشاعره، ولذلك أحب الناس شعره وهزهم بمشاعره، وهذا سر خلود شعر الشابي لأن شعره قوة زاخرة ومشاعر متدفقة وشعور ملتهب وعاطفة فياضة بضروب الإبداع والجمال. وقد اخترت ثلاث قصائد للشرح والتحليل كنماذج من أشعاره:

١- الصباح الجديد

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ ١٣ ذو الحجة عام ١٣٥١هـ، الموافق ٩ نيسان عام ١٩٣٣، وكان يحاول مقاومة المرض بشجاعة، جاهداً في أن يزيح عن كاهله الحزن والألم، وذلك قبل منتصف العقد الثاني من حياته، وقد قسم القصيدة إلى ثلاثة مقاطع، بينما جاءت القصيدة في الديوان على شكل رباعيات وثلاثيات، والقصيدة عبارة عن موشحة في مجاميع، المجموع الأول ويتألف من ثلاثة أبيات، وتألف الثاني والثالث من أربعة، أما الرابع فيتألف من ثلاثة ثم تألف الخامس والسادس من أربعة، وتكرر الخامس في فكرة الأول وجاء المجموعان الأخيران من أربعة أبيات.

ومطلع الموشحة:

اســـــكني يـــــا جـــــراح	واســـــكتي يـــــا شـــــجون
مـــــات عهـــــد النـــــواح	وزمـــــــان الجنـــــــون
وأطـــــــل الصـــــــباح	مـــــــن وراء القـــــــرون

وقد اعتبره الدكتور عمر فروخ الشكل السابع من أشكال الموشحات عند الشابي واعتبره من ثلاثة مجاميع وكل مجموع يتألف من مطلع وقسمين، وقد ورد المطلع مكرراً على رأس كل مجموع.

الشرح والتحليل:

١- حاول الشاعر التكرار في الفقرة الأولى مرتين ليوحي إلى نفسه بالصبر والتجلد مخاطباً جروحه طالباً منها السكون، لينفذ من ستار الحزن وليل العذاب الذي لفّه، مبشراً روحه بإشراقة فجر جديد بدأ يطل من وراء حجب الزمان.

٢- وإذا كان الشابي يتمسك بإرادة الحياة، فلا بد له أن ينبذ كل معوقاتها ويطرح عن كاهله كل أثقالها ليزيل العقبات من طريقها، ويصنع ما تمليه عليه هذه الإرادة، إذن عليه أن يدفن آلامه ويأسه ويملأ بالحب قلبه. وفعلاً بعثر الشاعر دموعه وعذابه لتحملها رياح الفناء بعيداً. نظر إلى الحياة بمنظار جديد، فخفق صدره بالسرور، فإذا الدنيا مليئة بالجمال والأنغام حافلة بالورود والظلال والشباب.

٣- وتحاول الأحزان العودة من جديد حين يطبق عليه العذاب مروعاً كالظلام مفزعاً كهدير الموج ويشتد المرض الذي يؤذن بقرب انطفاء شعلة الحياة، ولكنه لا ينحدر إلى حفرة الموت المظلمة، بل راح يطمئن روحه بأنه لا بد من الرحيل، ولكن إلى عالم صباحه الضاحك وربيعه الدائم الخضرة ملتجئاً إلى الصباح الجديد غير عابئ بالهموم التي تحف بشاطئ زورقه ولا مكترث بالحزن الذي يحدق به كالضباب المطبق.

التعليق:

أول ما يلفت النظر في هذه القصيدة هو بناؤها الموسيقي في المقطوعات الثلاثية أو الرباعية والتي تكررت على طريقة الموشحات لضرورة نفسية أو حالة شعورية يعيشها الشاعر أو يحس بها، وهي ضرورة الإيحاء بالصبر والتجلد. أما القافية فقد تحرر الشاعر من وحدتها في القصيدة، واستخدمها بصورة يربط بها بين مقطوعاته المتتابعة المتدافقة برباط موسيقي مرهف، وقد لاحظنا أن آخر بيت في المجموعة الرباعية الثانية تقفية للفظة الأخيرة من الرباعية التالية كما هو في لفظتي «الزمان» و «الحنان» وكذلك في «البقاع» و «الوداع» وهذا اللون من الموسيقى جديد في موسيقى الشعر العربي.

وتعكس هذه القصيدة شخصية الشابي بصورة واضحة. فهي نابضة بحرارة الانفعال وقوته، وجيشان العاطفة وتدفقها، إضافة على ثورة الروح وتمردها، وهي سمة بارزة في شخصية الشابي، فهو الذي تمسك بإرادة الحياة وقاوم الحزن والألم وتحدى المرض والموت ولذلك فلا بد للقارئ إلا أن يتجاوب مع ا لشاعر ويشاركه أحاسيسه ويتأثر بها.

ثم عمد الشاعر إلى استخدام التصوير البياني الذي يجنح إلى الخيال، ويعتقه من أسر الواقع،حتى كأن الصباح الذي يتخيله الشاعر ينزف ألماً وحزناً في حياته، فحوله الشاعر إلى عالم يفيض بالحيوية والشباب، ويتألق بالجمال ويتضوع بالعطر. وقد عمد إلى تجسيد ما كان معنوياً في صورة استعارات عديدة كقوله:

في فجـــــــاج الهـــــــــوى قـــــــــــد دفنـــــــــــت الألم

فقد جعل الهوى وهو شيء معنوي، شعاباً يدفن فيها حزنه، وهو معنوي أيضاً.

والشابي صاغ قصيدته بلغة سهلة، سلسلة، سائغة لا تكلف فيها، ولا ابتذال، وإن لجأ أحياناً إلى تكرار الكلمات أو مرادفاتها، وهذه ميزة من ميزات الشابي الذي أراد أن يوصل فكرته إلى القارئ بيسر وسهولة.

٢- إرادة الحياة

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ ٢٦ جمادى الأولى ١٣٥٢هـ الموافق ١٦/ ٩/ ١٩٣٣، وقد كان للقصيدة ضجة كبيرة بين الأوساط الدينية من جهة وبين الأوساط الأدبية من جهة أخرى، كما كان لها أثر فعال وشديد في أوساط الجماهير التي أحبت شعر الشابي. وقد رددها أبناء الشعوب العربية، وتغنى بها المطربون. وقد افتتح الشاعر القصيدة بقوله:

إذا الشـــــعب يومـــــاً أراد الحيـــــاة فـــــلا بـــــد أن يســـــتجيب القـــــدر

وتتألف القصيدة من ثلاثة وستين بيتاً وتتضمن سبع أفكار رئيسية، وقد نظمها الشابي، حين كان الشعب التونسي يرزح تحت الاحتلال الفرنسي، مما أزعج الشاعر أن يرى شعبه مستسلماً لقدره، فنهض يحث شعبه على تحطيم قيود المحتل، وبين أن الحياة تتمثل في إرادة الشعب وما يريده، لأن المحتل ليس قدراً على الوطن، والثورة عليه واجب لتتحرر تونس من قيود المحتل وظلمه.

وقد استطاع الشابي أن ينقل أفكاره وأحاسيسه ومشاعره لجمهور تونس بأسلوب رومانسي ينبعث من تجربته التي طبعت بطابعه الخاص ومعاناته الذاتية لواقع الظلم والطغيان.

وقد احتذى فيه حذو جبران خليل جبران وغيره من الرومانسيين، ونجح في المواءمة بين غرضه وما هيأ له بموسيقى داخلية مرافقة، ليزيد من أثر النص على النفوس. فتفتحت معانيه كالأزهار في أعماق ضميره، فجاءت القصيدة إنسانية النزعة، ليرتفع بها فوق الأحداث، وبدت وكأنها نموذج دائم لتجارب الناس الذين يتوقون للحرية. أما كلماته فكان معظمها عربية فصيحة سهلة، منتقاة بعناية لتعبر عن أحاسيسه، كما جاءت الجمل قوية متماسكة، فلم يلجأ إلا نادراً للجمل المعترضة.

وقد زاوج بين الإنشاء والخبر ليبتعد بالقارئ أو السامع عن الملل، وقليلاً ما لجأ إلى التقديم والتأخير، ولذلك بقي أسلوبه واضحاً متماسكاً، تفرد به عن غيره، كما لجأ إلى الحكمة العامة، وكأنه يخاطب شعبه في تونس، وغيره من الشعوب التي ترزح تحت الظلم في كل زمان ومكان.

كما لجأ الشاعر إلى التشخيص الذي يحيي ما لا حياة فيه، فجعل القدر كالإنسان القوي يستجيب لمن يستدعيه، فالكون يتحدث عن الخفايا، والريح تدمدم والأرض تجيب على تساؤلات الشاعر وكذلك الحديث مع الغابة في رقة، وهذه ميزة من مميزات الشاعر الرومانسي الذي يركن إلى حديث الجمادات ويحاورها ويثق بها، وهذا إيمان منه إلى أن غاية الشعر هو تلمس روح الأشياء الجامدة لإثارة الدهشة.

هذا إلى جانب استخدام الاستعارات في أسلوبه والذي اعتمد عليه من خلال التجسيد كمشي الزمان وانطفاء السحر ومجيء الربيع بأحلامه وصباه النضر، كما لجأ إلى استخدام التشبيهات والكناية.

وقد وضح إيليا حاوي دور الخيال والانفعال في تلك التشبيهات والاستعارات فقال: «يبدو أن الشابي كمعظم الرومانسيين، يعانق معاني الأشياء بالحلم والرؤيا والسراب والوهم، ينفعل ويتولى خياله إظهار انفعالاته موحداً بين الشيء وما يماثله ... فعالم الشابي خلال هذه القصيدة هو عالم بعيد وراء حدودنا تشيع به الأرواح في كل شيء ومن كل شيء» وهو يعني بذلك وصف خيال الشاعر الجدي الخالي من الترهات، وهو خيال رصين يصهر الأشياء بالانفعال حين يصغي لعزف الريح وقصف الرعد ووقع المطر، كذلك ليلة الخريف التي أثقلها الأسى، وقد غلب الوصف على القسم الأخير من القصيدة.

الشرح:

قدم الشاعر للقصيدة بمشاعر فياضة تنزع إلى الإيحاء بعمق فكرته ورصانتها، فخاطب الشعب:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة ... فلا بد أن يستجيب القدر

وهذا لا يصدر إلا عن حكمة وشاعرية وإيمان وانفعال بالواقع الذي يعانيه الشاعر ومعه كل أفراد وطنه، ليوضح بأن إرادة الحياة هي من إرادة الشعب، فإذا كانت هذه

الإرادة قوية، فيها إصرار على تحطيم القيود فلا يكون أمام القدر إلا أن يستجيب لقوة إرادة الشعب، وإذا كان ظلام الليل يغشي هذه الإرادة، في زمن ما، فلا بد أن يبزغ الفجر ويزيل هذه الظلمة لتنكسر قوة المحتل أمام إرادة الشعب.

ويعلن الشابي أن مصير الشعب بيده، لا بيد محتله، وذلك بعزمه وصموده لأن الحياة حتماً ستخضع له إذا كافح وبذل العرق والدم، وكشف الخنوع والذل عن نفسه. لأن الذي لا يشخص على مسرح الحياة يموت ويندثر، والشعوب التي يقتصر همها على العيش الميسور تتبخر، ولم يعد لها وجود، وأما المنتصرون فهم الذين يعانقون شوق الحياة.

ثم يرتفع الشابي بنبرته حين ينتقد أولئك المتقاعسين عن الصعود، ولم يستيقظوا من صفعة الدهر، فسيبقون خاملين لا أثار لهم ولا كرامة، وهذه سنة الحياة، وبهذا حدثت الكائنات الشاعر.

وينتقل الشاعر إلى حديث الريح ودمدمتها بين الوهاد، وفوق قمم الجبال وتحت الشجر، لأنها قوية تسعى إلى تحقيق هدف. وبين أن من يطمح إلى تحقيق غاية فعليه أن يكون مثل تلك الرياح، فلا بد له أن يغامر وأن يخلع الحذر من نفسه، فكما أن الريح تخوض غمار الشعاب وتجتاز المناطق الوعرة دون أن تهاب أذى اللهيب المشتعل، فعلى من يريد الحرية أن لا يخشى لهيب الحر الشديد المحموم، ومن لا يغامر في الوصول إلى الذرى والقمم العالية فإنه سيبقى في الحضيض وفي حفر الهوان والمذلة، فلا يتنسم الحرية والكرامة.

ثم يقول: وهنا طاف بخيالي ثورة عارمة، وضجت في صدري أفكار شديدة، فأطرقت مصغياً إلى صوت الرعود المخيفة التي تقصف كالمدافع، وشاركها عزف الرياح وجاء انهمار المطر التي تحمل في ثناياها السيول القوية لتدفعه إلى الثورة على الواقع المؤلم من أجل الخلاص من المحتل ونيل الحرية، لتصبح الحياة أجمل. ويستنطق الشاعر الأرض التي هي أم البشر، فإذا بها تؤثر من أبنائها أصحاب الطموح الذين لا يستسلمون ولا يحنون الرقاب، وفي الوقت نفسه تلعن الخانعين الذين هم ليسوا من أبناء الحياة، لأنهم قاعدون مكتفون بالقليل من العيش، وكأن الواحد منهم حجر أصم لا يهتم بمسايرة الزمان في حركته المستمرة، فالكون حي يحب الحركة الدائمة ويكره السكون ويحتقره مهما عظم وكبر، فالأفق لا يحتضن الطير الميت، والنحل لا يقبل الزهرة الذابلة، وهكذا

الأرض فلن تقبل الأموات في أحشائها لولا حنانها على أبنائها. ولذلك فقد قدمت النصيحة لأبنائها من البشر بأن يغامروا وأن يناضلوا، وإلا فالهلاك والويل لمن لم يغامر ولم يناضل في سبيل حياة فضلى، والويل لمن يضعف أمام تقلبات الدهر ولم يعارض أو يحتج.

ثم يخاطب الشاعر ليلة من ليالي الخريف ليعبر عن الحيرة واليأس ومما يعتري الأشياء في هذه الحياة، فليل الخريف مليء بالأحزان والملل، مع أنها ساكنة وصامتة بعد أن كانت نجومها مضيئة، فغنى الشاعر لهذا الحزن ومن اجله، فسكر هذا الحزن من غنائه المؤثر والمعبر.

ويحار الشاعر فيسأل الدجى: هل تعيد الحياة والشباب لمن مات؟ أو هل تعيد من ذبل عمره إلى الربيع؟ وكيف تجيبه شفاه الظلام وقلبه لا يتكلم ولا يرد جواباً، وحتى هذه الأسئلة لم تَرُقْ عذارى السحر، لأن ذلك لا ينطوي على قدرة الإيحاء، فالدجى يغشى الأشياء وينحصر عنها. فيتولى الغاب الإجابة نيابة عن الدجى في رقة وعذوبة تشبه لحن الوتر فيقول: يأتي الشتاء ومعه الضباب، وتأتي الثلوج ويأتي المطر، فيزول السحر، سحر الغصون التي سقطت عنها أوراقها وتعرت، وسحر الزهور التي ذبلت وانطفأت، ثم سحر الثمار الناضجة فزال عنها جمالها، فهوت الغصون وتبعثرت الأزهار، فتلاعبت بها الريح ونقلتها من واد إلى آخر، وغشيها السيل فساقها معه، وأصبحت كالحلم فزال جمالها بعد أن تألق فترة من الزمن.

لكن جذورها بقيت في البذرة تحت التراب، وهذه ظاهرة طبيعية ليدرك الشاعر أن التغير الذي يحزنه لا ينال منه إلا القشور، أما جوهر الأشياء فباقية مهما حصل من تغير، والجذور تبقى في رحم التراب التي تكمن فيه الحياة ثم تولد من جديد لتعيد سيرتها عندما تواتيها الفرصة المناسبة عبر تتابع الفصول.

وينمي الشابي رومانسيته، فتنمو معها الجذور في أحوال متنقلة مع أحوال البشر في الأحلام الذاتية والذكريات، فإذا كانت البذور تحلم بجمال الفصول وروعة الحياة وتغيرها الذي يبعد السأم وهي تتذكر الغيوم في الأفق كما يتذكر الأليف أليفة، فالأولى بالإنسان أن يتذكر وأن يحلم بجمال الحياة، فمن أعماق التراب ومن تحت الضباب والثلوج والمطر وقساوة الشتاء تظهر الحياة، ويأتي الربيع بجماله وشذا عطر أزهاره واخضرار المروج فيه.

وحتى يوضح الشاعر تطور الزمن وتغيره يرمز إلى ما ينتاب المرء من صروف الزمان الذي يسير بصحبة الصروف والمصاعب والمشاق الكبيرة، ولا تكاد تزول واحدة حتى تعقبها أخرى، ومع ذلك فالأمل باق وشهوة الحياة لا تنقرض، بل تظهر أحداث جديدة يسطرها تاريخ الكون فتنمو وتتجدد وتعانق أضواء الصباح موشحة بغموض السحر.

ويحار الرائي حينها ! أهو حلم أم حقيقة؟ أم هي أحلام يقظة؟ فيسأل أين الضباب الذي كان في الصباح؟ وأين جدول الماء بسحره الخلاب؟ بل وأين ضوء القمر في الليالي الهادئة؟ ثم تتتابع التساؤلات عن أسراب الفراش بألوانه الشفافة الزاهية، وعن النحل بطنينه، وعن الغيوم وهي تمر، وعن أشعة الشمس وعن الكائنات، ليأتي التساؤل الكبير عن الحياة التي كان ينتظرها.

لقد عادت شمس الربيع الحانية رقيقة لا تؤذي الكائنات التي صبرت على برد الشتاء لأنها انتظرت معانقة الربيع الجميل الوديع، ومن أجل ذلك جاء رد الطبيعة للربيع وقد اشتاقت إلى النور، إلى الحرية فوق الغصون، إلى ظل الشجر، إلى النبع بين المروج يغني ويراقص الزهر، إلى ألحان العصافير، وهمسات النسيم في الصباح، إلى لحن المطر، اشتاقت إلى الكون كله والوجود بما فيه، هذا الكون الذي ساده السكوت والجمود، هذه كلها عطشى للحرية وللحياة من قيود الشتاء لترى كون الربيع الجميل وهو يعيد الشباب وتعود معه بسمة الكون، هكذا يمشي الزمان وتتغير الحياة، بسرعة خفق جناح الطير، لتنتصر الحياة على العدم عندما تصدعت الأرض وخرجت الحياة من البذرة في باطن الأرض، بألوان زاهية فأعاد الشباب الذي غشيه الذبول، ليحدث الأرض فيقول ها أنت قد منحت الحياة وخلدت في نسلك المدخر داخل البذور.

المرء الذي يعمد النور ويحبه، فإن النور يباركه أينما وجد، فهذا هو الفضاء بفجاجة، والضياء بسعته، وهذا هو الوجود الواسع النضر، فإليك الجمال المستمر، فميدي أيتها الحياة في جمال الربيع كما شئت فوق الحقول بالثمار الناضجة والزهر المتفتح وناجي النسيم وناجي القمر لتعود الحياة بأشواقها وفتنتها، ولنعد إلى الحياة نتأمل حقائقها لنعرف قدر جمالها وسحرها الفتان الذي يشهد بقدرة وعظمة الخالق سبحانه وتعالى.

ويؤكد الشاعر في نهاية قصيدته، بأن ظلام الليل يخفي تحت ستاره الشفاف جمالاً عميقاً ومؤثراً يمدنا بالصور الجميلة التي تغذي خيالنا ويذكي أفكارنا بعظمة الخالق

الذي صنع هذا الكون بهذه الروعة الساحرة، فأضاء الكون بكواكب لامعة وضاءة لنهتدي بها في الليل، وخلق لنا الزهر الجميل ليصنع الإنسان منها عطره الشذي، وخلق الطير المرفرف بأجنحته ليزيد جمال الكون، وخلق القمر ليزيد جمال الليل ونستأنس بضوئه، ليعلن في عليائه أن الحياة هي للطموح القوي الذي يتحمل ويصبر لينال في النهاية حريته وكرامته، وهكذا يستجيب القدر لإرادة الأقوياء، الذين يناجون الحرية فتلبي طلبهم وتقبل عليهم من رحم البؤس والعذاب، لأن النفوس الطامحة للحياة الكريمة لا بد أن يستجيب لها القدر.

الأفكار في القصيدة:

١- **الأبيات (١-٥)**: يوضح الشاعر فيها حتمية انتصار الإرادة الحرة مهما واجهتها من تحديات، ومصدر هذه الفكرة الأحداث التي عاصرها الشاعر.

٢- **الأبيات (٦-١١)**: يجري الشاعر حواراً بينه وبين الريح، وهو صراع من أجل البقاء، ويؤكد بأن الأماني لا تتحقق إلا بالعمل والجهد.

٣- **الأبيات من (١٢-١٨)**: يحاور الشاعر فيها الأرض التي تؤكد وقوفها مع الأقوياء وأصحاب الإرادة والعزيمة القوية، وأنها تحتقر الضعفاء.

٤- **الأبيات من (١٩-٣٤)**: يؤكد الشاعر أن الطبيعة ترفض الضعفاء ولا تكترث بما يحل بهم من ويلات، وأن الحياة متجددة عبر البذور.

٥- **الأبيات من (٣٥-٤٤)**: يصور الشاعر أحاسيسه حول مسيرة الكون، ويؤكد أنه لا شيء أجمل من الحياة الحرة الكريمة.

٦- **الأبيات (٤٥-٥٦)**: يناجي الشاعر الطبيعة ويحاورها، ويبين ما في الكون من سحر وجمال متأثراً بجمال وطنه منبهاً الشعب التونسي إلى سر هذا الجمال والذي يستحق منه صحوة تقاوم المحتل ونيل الاستقلال.

٧- **الأبيات (٥٧-٦٣)**: الطلب من الشعب، التمسك بحقه وطموحاته المقدسة لتحقيق الهدف الكبير بنيل الحرية والاستقلال عن طريق الدم، الذي هو أهون من الذل في ظل الاحتلال.

٣- نشيد الجبار

هذه القصيدة على البحر الكامل وتفعيلاته:

ب ب – ب – /ب ب – ب – ب – /ب ب – ب – ب – /ب ب – ب – /ب ب – ب – /ب ب – ب –

وقد جاءت القصيدة بقطع متفاعلن لتصبح «مُتْفاعلْ» أي بحذف الوتد المجموع من الآخر، أو دخول زحاف مضمر وهو تسكين الثاني المتحرك، فتصبح التفعيلة مكونة من سببين خفيفين ووتد مجموع «مُتْفاعلن أو مستفعلن»

سـأعيش رغـم الـداء والأعـداء ـ فـوق القمَّـة الشـمَّاء

ب ب – ب – / – – ب – / – – – – – ب – / – – ب – / – – – –

متفاعلن متْفاعلن مُتْفاعلْ متْفاعلن متفاعلن متْفاعلْ

شرح الأبيات

١- الأبيات من (١-٦): حملت الأبيات فكرة مضمونها ثقة الشاعر بنفسه أمام قوة المستعمر وظلمه، وما يتأتى من ذلك من ألم. ويقول:

سأحيا قوياً شديداً رغم المرض الشديد ورغم ظلم الأعداء كالنسر عالياً مرتفعاً فوق قمم الجبال متطلعاً إلى الشمس المرتفعة المشرقة بضوئها، ساخراً من السحب التي تغطي الحقيقة والأمطار الشديدة والأنواء، ولا أنظر بطرف عيني إلى الظلال ولا إلى الحفر البعيدة السوداء ولن تنكسر همتي، وسأبقى سائراً حالماً مغرداً إلى الحرية مصغياً لموسيقى الحياة وإلهامها لأسيل الوجود المطلق في قصيدتي مستمعاً إلى صوت الحق والكرامة الذي يحيي القلوب الضعيفة.

٢- الأبيات من (٧-١٣): يتحدى الشاعر في هذه الأبيات الأعداء من خلال القدر، حيث شخص القدر وحاوره وتحدث إليه وهو يرى:

أن القدر يحارب آماله التي يود تحقيقها بكل ما فيه من ظلم وجبروت ويرسل عليه شتى صنوف المصائب، لكن الشاعر يقف أمام هذا القدر ليرد عليه بعدم قدرته إطفاء جذوة النار المؤججة في دمائه مهما كثرت مصائبه ومهما هاج موجه وعواصفه. ثم يتحدى القدر في مرض أو مصيبة لأنه يرضى بقضاء الله.

ومن خلال هذا التحدي فلن يذل الشاعر ولن يستكين ولن يبكي ويتضرع دون أن يضعف أو يستسلم، بل سيظل يحيا حياة الجبارين وهو يتطلع إلى بزوغ الفجر الجديد

الجميل وإن كان ما يزال بعيداً، وحتى يطل الفجر فلن يخيفه الظلام الذي يعترض طريقه أو الأشواك المؤذية أو الحجارة، لأنه قادر على تجاوز كل ما يعترضه، ويؤكد الشاعر أنه يتحدى الخوف كما يتحدى الردى والموت وكل ألوان البأساء التي وصفها بالصواعق. وقد طعم الشاعر أبياته هذه بالاستعارة حين خاطب القدر في البيت الأول كما استخدم التشبيه في (حرب آمالي) وكنى في البيت الثامن عن الثورة الكامنة في صدر الشاعر، كما جاءت الاستعارة المكنية في الأفعال: اهدم - أملأ - انشر، وكلها حملت معنى التحدي، وهذه من الجماليات التي انتشرت خلال الأبيات.

٣- الأبيات (١٤-٢٢): وتحمل الأبيات فكرة تفاؤل الشاعر بالمستقبل، والسعادة بالخلاص من مآسي الحياة.ويستمر الشاعر في تحديه بأنه سيبقى مستمراً صامداً، وسيظل صادحاً بشعره مترنماً بقصيده، مستمراً في إصراره على الصمود كالنجم المتوقد في الظلام أو من خلال آلام المرض، فالأمل يحدوه في قلبه وبين ضلوعه، ولذلك لن يخشى السير في الظلماء، وسيبقى حياً بنايه وأنغامه التي لا تتوقف ولا تنتهي، وهو يشبه نفسه بالبحر الواسع الذيتتلاطمه الأمواج وشدتها ولكنها لا تزيده إلا إصراراً وعزماً.

أما إذا قضي الأمر وانتهت حياته، وتوقف نايه، وانطفأ القلب الذي كان حياة مشتعلة قوية، فهو سعيد لأن الموت انتقال من حياة الآلام والبغضاء ليذوب في فجر الجمال الخالد والسعادة الدائمة والنور الساطع.

٤- الأبيات (٢٣-٣٥): السخرية من المستعمر وتحديه.

يخاطب الشاعر أعداء الأمة، ويبين لهم فضائحهم للشعب المقهور من احتلالهم بأن هذا الظلم لن يستمر طويلاً ونهب الخيرات لن يدوم، فكل هذه الأفعال لن تفتر عزيمته ولن توقف حماسه، وستأتي العاصفة لتأخذ في وجهها كل ما يعترضها، وسيختفي المحتل ومن يسير في دربهم، ويعود الأمان إلى الوطن، وسيكون الجواب من الشعب قاسياً وواضحاً. وقد جاءت خاتمة القصيدة قوية بعنفوان الشباب وتحدي المستعمر، والأبيات مليئة بإشارات التحدي عامرة بالإيمان الذي يتحدى الأوضاع المؤلمة.

فنون الشابي الشعرية

الشابي شاعر وجداني، لكن أشعاره الوجدانية كانت قليلة، فقد ورد له شعر في الغزل والوصف والشكوى، والقصيدة التي رثا فيها والده هي وجه من وجوه الشكوى التي كثرت في ديوانه، بل وتغلب على أشعاره، لكن الشابي له ميزة خاصة في شعره قلما نجدها في الشعر العربي منذ أقدم العصور، وهي خاصية سعة الخيال، وشبوب العاطفة، وموسيقى ساحرة، لكن الموت كان له بالمرصاد، فموته المبكر لم يتح له الفرصة في المزيد من أغراض الشعر. وتكاد تنحصر فنونه في ثلاثة جوانب: الشعب والحب ووصف الطبيعة، أما الشكوى فمجالها كبير في شعره تحتاج إلى أن نفرد كتاباً خاصاً بها لأنها تدخل في معظم قصائده ويشتمل ديوانه أغاني الحياة قصائد متعددة في باب الشكوى.

الشابي والشعب

إن من يستعرض ديوان الشاعر ورسائله ومذكراته، فإنه يقف على حقيقة ما ينفعل به من أحداث عن طريق عاطفته، ويتمثل هذا الشعور في الشفقة والحسرة تارة وإبداء العطف والحنان تارة أخرى، وهذا واضح في إثارة الشعب ضد الظلم والطغيان وفساد الأوضاع، كما يتمثل في تهديد المحتل بثورة الشعب وسيله الجارف، ويظهر هذا واضحاً في قصيدته «إرادة الحياة» التي بدأها بقوة حين جعل السبيل الأول حركة الشعب في قوله:

إذا الشـــعب يومـــاً أراد الحيـــاة   فـــلا بـــد أن يســـتجيب القـــدر

وهو يحترم شعبه ويثق في قدرته حين يقول:

ِفي صـيحة الشـعب المسـخر زعـزعٌ   رَّ لهـا شـمَّ العـروش وتهُـدم

لكنه مشفق على الشعب ويتعاطف مع أحاسيسه ومشاعره في قوله:

كلـــما قـــام في الـــبلاد خطيـــب   مـــوقظ شـــعبه، يريـــد صـــلاحه
أخمـــدوا صـــوته الإلهـــي بالعســـ   ـــف، أمـــاتوا صـــداحه ونواحـــه

هذا الشعب الذي فقد الرائد والمنقذ، وانشغل المصلحون بسفاسف الحياة ومظاهر الدنيا وعاش الشعب تائهاً:

الشـــاعر الموهـــوب يحـــرق فنـــه   هـــدراً عـــلى الأقـــدام والأعتـــاب

والشــعب بيــنهما قطيــع ضــائع   كالــدود في حمــم الرمــاد الخــابي

وكان الشابي يعيش مع الناس كالغريب الوحيد أو كالمأسور، ولذلك نراه يريد الحياة بعيداً حتى عن أمته وأهل بلاده، ويحاول أن يستنهض همة الشعب ويستثيره بدعوته للثورة وتحطيم الأغلال، يدعو الشعب صارخاً بحكمته منادياً عله يبدل الأوضاع:

أيــن عــزم الحيــاة ؟ لا شيء إلا الــ   ــموت والصمت والأسى والظلام

ثم يتساءل عن حقيقة الشعب الذي عشق الحياة وتشبث بها:

أيـن يـا شـعب قلبـك الخـافق الحسـاس   أيــن الطمــوح والأحــلام ؟
أيـن يـا شـعب روحـك الشـاعر الفنـان   أيــن الخيــال والإلهــام ؟
أيـن يـا شـعب فنـك السـاحر الخـلاق   أيــن الرســوم والأنغــام ؟
إن يــم الحيــاة يــدوي حواليــك   فــأين المغــامر المقــدام

وما زال ينادي الشعب، ويمعن في العتاب، لعل الشعب يستيقظ من غفلته الثقيلة، فيدعو إلى نبذ القيود، فالصخور تنشق أمام عزم الحياة ويظهر منه النبات الضعيف:

لا يـنهض الشـعب إلا حـين يدفعـه   عـزم الحيـاة إذا مـا اسـتيقظت فيـه
والحــب يخــترق الغــبراء منــدفعاً   إلى الســماء إذا هبــت تناديــه
والقيــد يألفــه الأمــوات مــا لبثــوا   أمــا الحيــاة فيبليهــا وتبليــه

فالحياة لا تتأتى ليائس أو ضعيف أو ميت، فهي لا تقبل الحلول، فإما إقبال وإما فناء وشقاء:

وللشــعوب حيــاة   حينــاً وحينــاً فنــاء
واليــأس مــوت ولكــن   مــوت يثــير الشــقاء

فهو يطالب الشعب بالإرادة القوية الصادقة التي يساندها الجد ويدفعها العزم لأن الليل مهما طال، فإن الفجر قادم والصبح منبلج:

ولا بــد لليــل أن يــنجلي   ولا بــد للقيــد أن ينكســر

ومرشد هذا كله الطموح رغم العقاب:

إذا طمحــت للحيــاة النفــوس   فــلا بــد أن يســتجيب القــدر

ثم يلتفت بعد ذلك إلى الطغاة الذين استغلوا الشعب، فينذرهم بالثورة التي تجرف كل ما يعترضها وهي مندفعة بشدة، ينذر المستبدين بالنار الكامنة تحت الرماد:

ألا أيهـــــا الظـــــالم المســـــتبد   حبيـــب الظـــلام عـــدو الحيـــاة
ســـخرت بأنـــات شـــعب ضـــعيف   وكفـــك مخضـــوبة مـــن دمـــاه
ســـيجرفك الســـيل: ســـيل الـــدماء   ويأكلـــك العاصـــف المشـــتعل

ويكمل الصورة في تهديد المستبد المتجبر فيقول:

لـك الويـل يـا صرح المظـالم مـن غـد   إذا نهـض المستضـعفون وصـمموا
إذا حطـم المسـتعبدون قيـودهم   وصـبوا حمـيم السـخط أيـان تعلـم

هذه هي ثقة الشاعر بالشعب، فهو غافل خائف، ولكن الأمل يحدوه حين ينفض الشعب غبار الاحتلال، ويأتي يوم الثأر يوم يهب الشعب بإرادته وعزيمته، وسيثأر من المحتل:

ســـيثأر للعـــز المحطـــم تاجـــه   رجـال إذا جـاش الـردى فهـم هـم
ـال يـرون الـذل عـاراً وسـُـبّة   ولا يرهبـون المـوت والمـوت مقـدم

لكن إحساس الشاعر المرهف ينفعل مع أعصابه المكدودة وجسمه العليل فيغضب ويثور، لأن آماله في الشعب لم تتحقق، فيشعر بالإحباط، فيسخط، ويعتزل الشعب ويهرب إلى عالمه العاطفي الذي شاده من آماله وآلامه.

يئس الشاعر وهو معذور في ذلك خاصة وأن عمره كان قصيراً، أو أن إحساسه بنهاية حياته قد اقترب، فلجأ إلى الغضب الصاخب، حتى تمنى تحطيم هذا الشعب انتقاماً، وقد بنى ثورته وسخطه على الشعب لإحساسه بأن هذا الشعب يكره النور، لأنه لا يدرك الحقائق، إنه كالطفل الصغير يلعب بالتراب وسط الظلام.وقدّم النصيحة، لكن الشعب لم يسمعها ولم يصغ إليه، فينسحب تاركاً شعبه في ضلاله وينفرد في الغاب يعيش مع يأسه في الطبيعة ومفاتنها، «هكذا كانت رسالة الشابي قد انتهت بسلبية بغيضة ويأس قاتل، ولهذا العمر القصير أكبر الأثر في بتر تلك الرسالة التي لو قدر لصاحبها أن يعيش أكثر مما عاش، لكانت رسالة تامة لا تنتهي بتلك الخاتمة المفجعة»[١].

(١) دراسات عن الشابي، أبو القاسم محمد كرون بقلم محمد العروس المطوي.

أيهـــا الشـــعب ليتنـــي كنـــت حطابـــاً | فـــأهوي عـــلى الجـــذوع بفـــأسي
ليتنـــي كنـــت كالســـيول إذا ســـالت | تهـــد القبـــور رمســـاً بـــرمس
ليتنـــي كنـــت كالشـــتاء أغشي | كـــل مـــا أذبـــل الخريـــف بقـــرسي
إننـــي ذاهـــب إلى الغـــاب يـــا شـــعبي | لأقضي الحيـــاة وحـــدي بيـــأس
ثـــم أنســـاك مـــا اســـتطعت فـــما أنـــت | بأهـــل لخمـــرتي ولكـــأسي

المرأة في شعر الشابي

تعني المرأة للشاعر الرومانسي الشيء الكثير، ومعروف أن الشابي كان شاعراً رومانسياً بأصدق المعاني وأعمقها. وقد تمثلت المرأة عنده مسرحاً لخياله طريقاً لعواطفه، عروساً لشعره.

وقد تحدث الدارسون عن هذا الجانب وأفاضوا في شعر الشابي ومنهم الأستاذ التليسي الذي عقد في كتابه «الشابي وجبران» فصلين حول المرأة عند الشابي وجبران، كما تحدث الأستاذ زين العابدين السنوسي عن عواطف الشابي في «حب المرأة الرؤوم» حين تحدث عن حب الشابي الأول الذي سبق زواجه.

لقد وقف الشابي إلى جانب «الطاهر حداد» في دعوته إلى تحرير المرأة الذي ألف كتاباً بعنوان «امرأتنا في الشريعة والمجتمع» وإن لقيت دعوته استنكاراً وسخطاً من المجتمع والمفكرين إلا أنها لقيت الرضا والتأييد من الشابي. فقد كان الشابي ساخطاً من وضع المرأة في المجتمع التونسي، كما كان ثائراً على وضع المرأة في الأدب العربي القديم، لأن الشاعر القديم في رأيه لم يكن يفهم من المرأة إلا أنها «جسد يشتهى، ومتعة من متع العيش الدنيء» وحسب اعتقاده أن الشاعر العربي القديم لم يعرف تلك النظرة الفنية التي تعد المرأة كقطعة فنية من فنون السماء، وهذا واضح في كتابه «الخيال الشعري عند العرب» وبغض النظر عن آرائنا في عدم موافقتنا للشابي في هذه النظرة أو تجاهله للحب المثالي عند عنترة وغيره من شعراء العصر الجاهلي أو الحب العذري عند الشعراء في العصر الأموي، فالذي يهمنا هو ثورته على وضع المرأة العربية وخاصة في تونس، حيث حاول أن يعبر عن ثورته العقلية وأن يستجيب لظمئه الروحي بوضع المرأة في مثال رفيع يملأ قلبه ووجدانه ومشاعره.

ولهذا فإننا نحس أنه يعبر عن المرأة من جانب إنساني، يحمل معنى القداسة، ويربط بينها وبين أجمل ما في الطبيعة ويغني لمعنى الحب، ليجد في ذلك عالماً سحرياً رقيقاً يزوده بصور من الحياة ما يفوق الجمال الحسي.

يؤكد من عاصر الشابي ومن كان قريباً منه أن الشابي عرف الحب وهو يافع، فكانت فتاته الأولى التي تربى معها في بلدته الشابية، ثم اختطفتها يد المنون غضة يافعة، فحزن عليها حزناً عميقاً، حتى كان رحيلها سبباً من أسباب مرضه في رأي صديقه زين العابدين السنوسي، ثم زوّج الشابي بامرأة أنجب منها طفلين، هما محمد الصادق الذي عمل ضابطاً في سلاح المشاة بالجيش التونسي، وجلال وعمل مديراً لإحدى شركات الحديد في تونس. ولكن رغم ذلك فقد كانت للشابي خصوصية في حياته العاطفية، ربما لم يطلع عليها أحد وما كان من تحليلات حول هذاالموضوع إنما كان من باب التخمين غالباً.

ورغم ذلك فقد بقي يتغنى بالحب حتى آخر لحظة في حياته، غناء الذي يؤمن أن الحب هو معنى الحياة. وظلت المرأة التي يحبها من صنع خياله، فهي امرأة مثالية تكونت من روح لا من جسد، ولذلك جاءت خيراً مطلقاً، وحباً روحياً شفافاً يسمو فوق نداء الغريزة، وهذه ظاهرة مشتركة بينه وبين الرومانسين إنه حب «شيلي» و«وردز ورث» و«دي موسيه» وغيرهم.

ولعل قصيدة «صلوات في هيكل الحب» مثالاً لصورة المرأة الشفافة الرقيقة وكأنها جاءت من عالم آخر، ملائكي سحري لم يعرفه البشر:

عذبــة أنــت كالطفولــة كــالأحلام ... كــاللحن كالصــباح الجديــد
كالسـماء الضـحوك، كالليلـة القمـراء ... كــالورد كابتســام الوليــد
يــا لهــا مــن وداعــة وجمــال ... وشــباب مــنعم أملــود
يــا لهــا مــن طهــارة تبعــث التقــديس ... في مهجــة الشــقي العنيــد

كما نجد مثل هذه الصورة أيضاً في قصيدته «أيتها الحالمة بين العواصف» حين يقول:

أنــت كــالزهرة الجميلــة في الغــاب ... ولكــن مــا بــين شــوك ، ودود
والريــاحين تحســب الحســك الشرــير ... والــدود مــن صــنوف الــورود
فــافهمي النــاس إنــما النــاس خلــق ... مفســد في الوجــود غــير رشــيد
ودعــيهم يحيــون في ظلمــة الإثــم ... وعيشيــ في طهــرك المحمــود
كــالملاك الــبريء كــالوردة البيضــاء ... كــالموج في الخضــم البعيــد
كأغــاني الطيــور كالشــفق الســاحر ... كالكوكــب البعيــد الســعيد

ويستمر الشابي في رسم أحاسيسه وتصويره الفني في صور المرأة الملائكية الكاملة التي تجمع أجمل ما في العالم لأنها تمثل المعاني الإنسانية الراقية:

أنـــت مـــن ريشـــة الإلـــه فـــلا تلقـــي بفـــــن الســـــما لجهـــــل العبيــــد
أنـــت لم تخلقـــي ليقربـــك النـــاس ولكـــــن لتعبــــدي مــــن بعيــــد

ويربط حديثه بالحب، لأنه يمثل عاطفة مقدسة تتجه إلى مقدس، هو المرأة تحمل صورة جديدة هي صورة الأم التي تحمل أقدس عاطفة وهي عاطفة الأمومة، ومع كل هذا التقديس فإن غلالة سوداء تكنف حديثه حين يتحدث عن موت طفل ونسيان أمره، عاطفة تتوشح بالحزن والألم بسبب الفاجعة التي تحول هذا الحب إلى مأساة:

كـــــل نســـــوك ولم يعوجـــــوا يـــــذكرونك في الحيـــــاة
والـــــدهر يـــــدفن في ظـــــلام الليـــــل حتـــــى الـــــذكريات
إلا فـــــؤاداً ظـــــل يخفـــــق في الوجـــــود إلى لقـــــاك
ويـــــود لـــــو بـــــذل الحيـــــاة إلى المنيـــــة وافتـــــداك

وربما اصطدم الحب بعقبة من العقبات فيصبح أيضاً حباً حزيناً فبعد أن كان مع الحبيبة كزوجي طائر تجده اختفى خلف الغيوم وذلك في قصيدته «الذكرى»:

كنـــا كزوجـــي طـــائر في دوحـــة الحـــب الأمـــين
نتلـــو أناشـــيد المنـــى بـــين الخمائـــل والغصـــون
متغـــردين مـــع البلابـــل في الســـهول والحـــزون
حتـــى إذا كـــدنا نرشـــف خمرهـــا ، غضـــب المنـــون
ثـــم اختفـــى خلـــف الغيـــوم كأنـــه الطيـــف الحـــزين

نظرة حزينة وحب وصل مداه ليختفي أو يقترن الموت بالحب ليعبر الشاعر عن مأساة:

قـــد كـــان لي مـــا بـــين أحلامـــي الجميلـــة جـــدول
يجـــري بـــه مـــاء المحبـــة طـــاهراً يتسلســـل
قـــد كـــان ذلـــك كلـــه بـــالأمس ! بـــالأمس البعيـــد
والأمـــس قـــد جرفتـــه مقهـــوراً يـــد المـــوت العتيـــد

ذبل الزهر على يد الخريف الذي يحمل رياح عاصفة، فقضت على كل ما فيه حياة ورغم ذلك فإن معنى الحياة عنده هو الحب، والموت لا يكون موتاً إلا لأنه يقضي على هذا الحب، ويوضح ذلك في قصيدته «أنا أبكيك للحب» حيث يقول:

إنـــما أبكيـــك للحـــب الـــذي كـــان بهـــاه
يمـــــلأ الـــــدنيا فـــــأنى سرت في الـــــدنيا أراه

إذن يصور الشاعر المأساة بفقدان الحب.

وكان الشابي يستدعي في شعره الحب ليغمره ويفيض عليه ليكبله ويدرك سعادته وفنه من خلال هذا التكبيل لعلها تنتج شيئاً جديداً.

كـبلي يـا سلاسـل الحـب أفكـاري وأحـلام قلبـي الضـليل
كبلينـي بكـل مـا فيـك مـن عطـر وسـحر مقـدس مجهـول

وهو يتمنى مقابلة الحبيبة وهي أحلام وأماني لا تلامس أيد ولا شفاه.

ليتنـــــي كنـــــت زهـــــرة تتثنـــــى بـــين طيـــات شـــعرك المصـــقول
و فراشـــــاً أحـــــوم حولـــــك مســـــحوراً غريقـــــاً في نشـــــوتي وذهـــــولي

وما أظن قول الشاعر إلا عاطفة رومانسي وخيال جانح لا تغور ولا تبلغ أقصى مدى العواطف، وهذه مثالية تشرق مع الخيال في شفافية متكاملة وائتلاف بين عناصر الجمال والسعادة، وهذا يتجلى حين يعرض لعيني الحبيبة:

أي دنيـــــا مســـــحورة أي رؤيـــــا طـــالعتني في ضـــوء هـــذي العيـــون

ويلاحظ الدارس أن الشابي وحّد بين الطبيعة والمرأة، وهذا مبثوث في معظم قصائده، فالحب مشرق كالصباح وينمو كالورود وتشخص فيه السماء ورقة الربيع وطهر الثلوج وسحر المروج:

ِاك فتحلـــــو لـــــديّ الحيـــــاة ويمـــــلأ نفسيـــــ صـــــباح الأمـــــل
وتنمـــــو بصـــــدري ورود عـــــذا ب وتحنـــــو عـــــلى قلبـــــي المشـــــتعل
ويفتننـــــي ســـــحر تلـــــك الشـــــفاه ترفـــــرف مـــــن حـــــولهن القبـــــل
فأعبـــــد فيـــــك جمـــــال الســـــماء ورقـــــة ورد الربيـــــع الخضـــــل

هكذا كانت رقة المعاناة وعذوبة العاطفة وحنانها، فالحياة تبدو أجمل عندما تطالعه الحبيبة لأنها تخلع من ذاتها على الوجود، تغشاه بالصور النفسية.

كما أن للحب قدرة عجيبة في الإحياء والبعث:

اك فـــأ ُخلق خلقـــاً جديـــداً ـــأني لم أبْـــل ُ حـــرب الوجـــود

وفي موضع آخر يقول:

أراك فتخفـــق أعصـــاب قلبـــي ويهتـــز مثـــل اهتـــزاز الـــوتر
فتخطـــو أناشـــيد قلبـــي ســـكرى تغـــرد تحـــت ظـــلال القمـــر

هذا الحب هو الذي يوحي له بالقصيد والنغم الجميل.

هكذا نظر الشابي إلى المرأة، وربطها بالحب تارة وبالطبيعة والكون تارة أخرى، فهي الملاك الذي يهبط من عالم الخيال السحري ليشفي الجراح ويحمل رحيق الوجود المقدس، وقد كانت النظرة الرفيعة للمرأة والحب خير مساندة لدعوة تحرير المرأة في تونس، وقد تركت هذه الدعوة الشعرية أثرها في المجتمع التونسي. كما كانت نظرة الرومانسيين للحب توضح العلاقة بين الرجل والمرأة. وهكذا رسم الشابي لوحة للمرأة لتظل في ضميره خيالاً بريئاً ملاكاً تعيد للطبيعة أضواءها وعطرها في نفس الشاعر وفي عالمه، متولدة من عذريته وصوفيته التي أشرقت في نظرته للمرأة والحب.

دراسات حول الشابي

أعد أبو القاسم محمد كرو كتاباً، فيه مجموعة من الدراسات مختارة من أقلام عدد من المهتمين بحياة الشاعر وآثاره، ومن هذه الأقلام ما كتب عن الشابي المصلح، أو من كتب عن أثر أدباء المهجر في أدب الشابي، وغير ذلك مما سيأتي لاحقاً، وقد جاءت بعض هذه الدراسات مثالاً للبحث العلمي أو مقالات فيها خلاصة آراء الباحثين والدارسين، وتوزعت هذه الدراسات بين أدباء ونقاد المغرب العربي، وبعض هذه الدراسات كانت مشرقية. وسوف أضع هذه الدراسات بشيء من الإيجاز على النحو الآتي:

ا- الشابي وتجربة «الفجر البعيد» للأستاذ الشاذلي القليبي:

قدّم الباحث لدراسته عن العقبات التي تواجه الدارس لشعر أبي القاسم أو التوفيق بين النزعات المتضاربة في شعره.

ثم تحدث عن بعض القصائد التي تعبر عن حب الشاعر للحياة وفتنتها، والتي سرعان ما تتحول إلى كآبة وتبرم، ثم يلتفت إلى الجمال الذي لا يكون إلا مظهراً خلاباً وسحراً مزوراً، واستشهد الباحث بأبيات من قصيدة «الجمال المنشود» التي يتغنى الشاعر فيها بجمال العذارى، ثم إذا هو التقى بالحياة في بعض آياتها الفاتنة أعرض عن ذلك التشاؤم القاتم وتغنى بها في نشوة العاشق الولهان.

ويبين الأستاذ الشاذلي أن الشيء الذي يلاحظ في شعر أبي القاسم عامة هو رفضه للحياة البشرية على أنها مظلمة مزيفة، وأن الشاعر في بدايته ارتقى بشعره إلى النغمات الكبرى الخالدة. ورجع إلى توق الإنسان إلى الغيب وتجاوزه نحو المطلق. ثم أوضح أن الشاعر قد رمى إلى ما وراء هذه الحدود المادية ورمز إلى ذلك بالنور والصباح، ومع ذلك فلم يستطع أن يتخلص من ظلماته، ولذلك كثرت في شعره الصور التي تمثله على طريق موحشة. وهذه الثورة هي المحرك العاطفي لحياة الشاعر الباطنة، وهي إشارات كثيرة في قصائده، كما أشار الباحث إلى الثنائية الغريبة لوجه الحياة عند أبي القاسم الشابي، وهنا ينكشف الوجود الحقيقي، الوجود السرمدي الروحاني الطاهر الذي سيكون له بعد خلاصه من قيود المادة. هذا الوجود الذي رمز إليه الشابي بالفجر البعيد والصباح الجديد كما بين أن الشاعر أحب الحياة، ولذلك كثرت ثورته على هذا الوجود الذي لا يقدم للحي

الصورة الجميلة الكاملة التي ينشدها، وهو يدعو الشعب إلى إرادة الحياة كما يدعو إلى الثورة على الحاضر.

٢- ميلاد الشابي للأستاذ أبو القاسم محمد كرو:

وضع الأستاذ محمد كرو دراسته هذه وقد مضى نصف قرن تقريباً على ميلاد الشابي، وبعد أن سجل صاحب الدراسة لمحات عن حياة الشابي، قال: «لا .. لا .. إن الشابي لم يمت ولن يموت .. وإن دفن جثمانه في أعماق الثرى وغاب كيانه المادي عن أبصارنا ... وكيف يمكن أن يموت من عاش قيثارة تتغنى ... »وقال أيضاً: «كيف يموت من علمنا أغاني الحياة، وأنار طريق الشباب بالحب والإيمان والنضال». ثم تحدث عن دعوة الشابي لشعبه للنهوض من كهوف الماضي ليسير نحو المجد، ولما لم يستجب الشعب لصيحته صرخ منددا بالخوف والاستسلام لتلك الظلمات وتلك القيود، واستشهد على ذلك بأبيات للشابي، كما تحدث عن بيئة الشابي المحافظة ودراسته وعن غربته داخل وطنه وبين شعبه، وتحدث عن سخطه، ومرضه وموته وهو كالزهرة الغافية في أحلام الحياة، مات ليحل في تجربة جديدة، وفي عالم تحدثت عنه الأديان وتغنى به الشعراء، وبهذا تحققت أمانيه بسكوت جراحه واختفاء شجونه، فأقبل على الموت قرير العين نحو شاطئ الأبدية في فرح كبير بالحرية، وغبطة بالفجر الجديد، مودعاً عالمه الصغير، عالم الآثام والبغضاء وكأن حياته على الأرض حلم ليلة ساحرة.

الـــــــــــوداع الـــــــــــوداع   يـــــــا جبـــــــال الهمـــــــوم
يـــــــا ضـــــــباب الأســـــــى   يـــــــا فجـــــــاج الجحـــــــيم
قـــــــد جـــــــرى زورقـــــــي   في الخضـــــــم العظـــــــيم
ونشرـــــــت القـــــــلاع   فـــــــالوداع ... الـــــــوداع

٣- كيف ندرس الشابي للدكتور محمد فريد غازي:

ألقى الدكتور محمد فريد محاضرة بعنوان «هل الشابي رجعي» وقوبلت محاضرته بمزيد من الاهتمام وفتحت باباً للنقاش بين الأدباء والنقاد والشعراء.

وقد قدم لبحثه بالحديث عن الباحث النزيه المتعقل، سيما فيما يعود إلى شاعر تونس أبي القاسم الشابي.

ثم تحدث عن خطة منهجية لدراسة الشابي بوصفه شاعراً فردياً، ووضح طريقة أخرى لدراسة الشابي التي تكمن في أنه فرداً من أفراد مدرسة شعرية كاملة، وهي المدرسة الرومنطيقية ووضع مقارنة بين أفراد هذه المدرسة وأصحاب المذهب الكلاسيكي. ووضع مقارنة بينهم وبين من جاء بعدهم وهو ما أطلق عليه بالمدرسة الرمزية، ويستمر الباحث في دراسته حتى يصل إلى القول: «... فإن المتأمل النزيه والباحث المتجرد لا مناص له من أن يعترف بأننا لم نتقدم تقدماً ملموساً في بحوثنا عن الشابي، ولكن النزاهة أيضاً أن نعترف بأننا قد بدأنا نقترب من معرفة حياة الشاعر التونسي أبي القاسم الشابي اقتراباً يبعث السرور في النفس». ومن هذه الدراسات التي تحدث عنها الباحث فقد تحدث باختصار عن:

١- بحث نشره الأستاذ عامر غديره.
٢- دراسة وافية نشرها أبو القاسم محمد كرو.
٣- دراسة نشرتها - كراريس تونس.
٤- دراسة نشرت بعنوان «مرض أبي القاسم الشابي».

ثم تحدث عن دراسات قام بها الدكتور عمر فروخ وأبو القاسم محمد كرو والشاذلي بو يحيى ومحمد الحليوي ومصطفى خريف وغيرهم، وهو يكبر عملهم وإخلاصهم، ولكنه أردف يقول إن هذه دراسات ارتسامية تبحث في الشاعر بطريقة حرة غير مرتبطة بمنهجية علمية مضبوطة. ثم كانت له دعوة للباحثين في تونس والبلاد العربية للتعاون في وضع تخطيط مضبوط لبحث الشابي في الميادين التالية:

١- القيام ببحث عام يمكن أن يؤرخ فيه لقصائد الشاعر بطريقة مضبوطة.
٢- جمع رسائل الشابي وتنظيمها وتبويبها وشرحها.
٣- الرجوع إلى يوميات الشابي ومذكراته.
٤- نشر بقية مؤلفاته وخاصة الطبعة الثانية من «الخيال الشعري عند العرب».
٥- الاطلاع على مسودات للشابي ومحاضرات لم يطلع عليها الناس.
٦- الرجوع إلى شهادات معاصريه عن حياته وآرائه وتطوره.

٤- الشعب في شعر الشابي للأستاذ محمد العروسي المطوي:

هل للشابي رسالة في الحياة؟ وما هي إن كانت؟ وما هي معالمها في شعره؟

تحدث الباحث عن شعور الشابي نحو شعبه الذي تمثل في الإشفاق والحسرة وإبداء العطف والحنان، ثم في إثارة الشعب ضد الظلم والطغيان وفساد الأوضاع وباطل التقاليد ثم في تهديد الظالمين والطغاة بثورة الشعب وطغيانه، وبين أن هذا تمثل بالشعور المتشائم عند الشابي ويأسه، وصب جام غضبه عليه، ثم الاعتزال والهروب إلى عالم خيالي اختاره ليعيش فيه مع عالمه العاطفي الذي شاده من آماله وآلامه.

وقال: لقد حبا الشابي شعبه بالنصيحة والإرشاد، لكن الشعب لم يسمع النصيحة ولم يصغِ إلى الإرشاد، وداس ما قدمه إليه الشاعر وحطمه، فتحطمت قوة الشابي وخار عزمه وانسحب من بين شعبه تاركاً إياه يتخبط في ضلاله يهيم بعزلته وانفراده، ثم يعود ليحاول أن ينسى هذا الشاعر الناكر الجحود، لتنتهي رسالة الشابي بسلبية بغيضة ويأس قاتل، ووضح أن سبب هذا هو العمر القصير الذي كان له أكبر الأثر في بتر تلك الرسالة التي يقول فيها:

أيها الشعب ليتني كنت حطاباً ... فأهوي على الجذوع بفأسي
ليتني كنت كالسيول إذا سالت ... تهد القبور رمساً برمس
ليتني كنت كالشتاء أغشي ... كل ما أذبل الخريف بقرسي
إنني ذاهب إلى الغاب يا شعبي ... لأقضي الحياة وحدي بيأس
ـــي ذاهب إلى الغاب علِّي ... في صميم الغابات أدفن بؤسي
لم أنساك ما استطعت فما أنت ... بأهل لخمرتي ولكأسي

٥- الشابي وجبران للأستاذ خليفة محمد التليسي:

تحدث صاحب الدراسة في بداية مقالته حول ما عرف بأن الشابي تلميذ نابغ لجبران، ووضح ذلك من خلال مفاهيم الحب والحرية والتمرد، ثم تأثر الشابي بجبران حول فصل عقده للمرأة في شعره، كما بين ما أصاب الشابي حين اتهم بالخروج على الدين واتهام جبران بالتطرف ومحاربة الكنيسة له، وقارن الكاتب بين غربة جبران وغربة الشابي وأوضح العلاقة بين الغربتين.

ثم تطرق إلى القصيدة المشهورة إرادة الحياة للشابي وكأنه يقارنها بقصيدة جبران في قصة (البنفسجة الطموح).

وقد قدم أبياتاً شعرية يوضح فيها أثر جبران في شعر الشابي سواء في قصيدة النبي المجهول أو القصائد التي تتحدث عن الغاب والطبيعة.

وأخيراً بينت الدراسة أن الشابي قد تأثر بالأدب المهجري وكان تأثره خاصاً بجبران. ووضح أن على الباحثين أن يلتفتوا إلى جبران أكثر من أي أديب آخر، وهم في غنى عن التخبط والتعسف والتأويل على الظن والتخمين، وهو يعلن أن هذا البحث محاولة، لأنه يوصي «أنه إذا أريد فهم الشابي والمدارس الأدبية التي أثرت فيه وعملت في أدبه فإنه يجب أن نلتفت إلى جبران بصفة خاصة. ذلك لأن النقمة على الرجعية، ومحاربة الكهانة، وتقديس الحرية، واحترام الشخصية الإنسانية، والإيمان بالطموح، وعبادة الفن، والركون إلى الطبيعة، وبساطة الأداء في التعبير، والصدق في الشعور، والعبارة التصويرية، كلها أشياء تتلمذ فيها الشابي على جبران».

٦- محاولة جعل إطار لترجمة الشابي للأستاذ عامر غديرة:

هذا بحث جدير بالاهتمام، فهو قيم لأنه يحقق في كل حدث من حياة الشابي. وقد تحدث الباحث فيه عن أشياء كثيرة، وما كتب عن الشابي من خلال الأدباء والكُتّاب ومن خلال ترجمات وجعلها في إطار حقيقي، متبعاً التحقيق العلمي المرتكز على إعمال الرأي ومشاهدة الوثائق.

تحدث عن حياة الشاعر وعن أبيه ودراسته وأهم الأحداث التي حصلت مع الشاعر أثناء وجوده بالعاصمة، ثم انتقل إلى القراء الذين بدؤوا يطلعون على قصائد الشابي، كما تحدث عن رحلات الشابي مع والده في تونس، ثم انتقل إلى زواجه واعتبر هذا الحدث مشكلة صعبة لمن أراد دراسة حياة الشابي مستشفعاً بما جاء في مقالات السيد كرو والدكتور عمر فروخ وبعض من عرفوا الشابي. ثم تعرض لمشكلة مرض الشابي الذي مات فيه حتى يصل الكاتب إلى ملف الشاعر المرضي في المستشفى، وودّ في الختام لو تظفر حياة الشابي بالاهتمام ومقابلتها بالوثائق وأنه يرغب بالعودة إلى الموضوع إن شاء الله.

٧- أبو القاسم الشابي للأستاذ محمد بدرة:

هذه الدراسة كانت في لحظة تأبين الشابي، ولفت الكاتب النظر بأنها أول مرة تحتفل تونس بتخليد ذكرى أحد شعرائها، وبين أن الشابي نبع مستقل تدفق وحده، وبين ّ منزلة

الشاعر من خلال دراسات وصلت من الشرق والغرب. وقد وضح الباحث أن الشابي «حافظ على تراثنا اللغوي أشد المحافظة وسبكه في قوالب جديدة من عقله الجديد، وخلع عليه ظلالاً من أشعة روحه التي كانت تحيا بيننا، على أنه بين مجددي الأدب في هذا العصر يعتبر المثل الأعلى فلم يتكلف نظم قصيدة في الآلهة «أزيس» أو ينظم أخرى في البكاء على (الأكربول) المتصدع، ولكنه كان عربي الدم والملامح واللسان يشعر بأنه قطعة من قومه لا يعني غيرهم في كل ما يقول». ثم تحدث عن أهم مظهر للتجديد الذي توخى فيها البساطة مع قوة ومقدرة، ثم بين ّ أنه خالف المجددين الذين يطلعون على شعوبهم ساخطين ساخرين. ثم بين عذر الشابي في تأثره بأحد الشعراء السابقين لعدم معرفته لغة أجنبية. وانتقل الباحث في دراسته إلى موضوعات الشابي الشعرية، وأظهر أنه شاعر الشعب وشاعر الوطن ثم قال: «لم نحتفل قبل اليوم بذكرى مثل ذكرى هذا الذي خلد نفسه بشعره ... كسيل جارف يريد أن يروي الأرض المجدبة وقد رواها».

٨- في ذكرى ميلاد الشابي للأستاذ الهادي العبيدي:

أثنى الكاتب في البداية على شباب الاتحاد الصفاقسي الزيتوني الذي نظم الاحتفال بالذكرى. لأنها في رأيه أنفع الذكريات وأجداها وأعظمها فائدة، ثم تحدث عن عصر الشابي وما فيه من تململ للنهضة واليقظة، ثم بين أن الشابي لم يكن رجل سياسة أو قيادة عسكرية، ولكنه كان شاعراً لا يملك إلا قلبه، ومع ذلك فقد تقدم الطليعة واستغل مفعول الشعر وسحره في تنبيه قومه وهذه أولى خطوات الإصلاح. وشن الكاتب هجوماً على الذين سماهم المشلولين الذين لم يستطيعوا مسايرة خطواته في دروب الأدب وتساءل بعد ذلك: ما الذي جناه هذا البطل؟

دعا قومه أن ينفضوا غبار الغفلة وبناء المستقبل المجيد، فجاء رد الشعب مسايرة المنتفعين والدجالين والسخرية والشتيمة من آرائه، فتأثر من موقفهم وغضب وصور ذلك شعراً في قصيدة «النبي المجهول» صور حقيقة الشعب بكلمات قاسية كانت ردة فعل قوية منه، ولما ضاق ذرعاً أصبح لا يدرك الحقائق ولا يفقه الزور من الصدق وسقط عليه جدار الجمود الذي شاء تحطيمه. وفي الختام قال الكاتب «... رغم الداء والأعداء بمبادئه وآثاره. وينفخ في الشباب روح التوثب والانعتاق. فليرحم الله الشابي وليكن قدوة للشباب فيما ينتظره من كفاح جد شديد».

٩- الشابي وهذه الحياة للدكتور عبدالله شريط:

تساءل الكاتب في مقدمة دراسته: «... ما السبب أو الأسباب التي جعلت الشابي يتبرم بالحياة في أشعاره وينفر من المجتمع والناس في حياته العملية والفكرية؟ قد يكون غريباً أن نشك في ذلك ويكون من الأغرب أن نؤمن بعكس ذلك وأن نزعم بأن الشابي لم يكن يبغض الحياة ولم يكن نافراً من المجتمع ولا متبرماً منه ولا حاقداً عليه، بل الأقرب إلى الواقع أن نقول إن الشابي كان يحب الحياة حباً مثالياً رفيعاً، كما كان يحب الناس حباً خالصاً سامياً ويرنو إلى الكون وما فيه بعين ملؤها الشوق الصادق والتعبد والنزهية».

ويستمر في حديثه فيقول: إنه لم يعرف الشابي إلا من خلال شعره وآثاره وبعض ما حدث به الأصدقاء والمعجبون، ولا يملك إلا أن يعتقد أن الشاعر كان ناضجاً برغم صغر سنه، وأنه عرف الحياة وبلاءها وتحدث عنها وهو يعرف ماهيتها. وأنه فهم الحياة فهماً عميقاً بفضل إحساسه وروحه النيرة.

كما تحدث الباحث عن شعر الشابي ونظر فيه إلى «الحياة» وأنه ارتفع إلى مستوى احترامها وضرب أمثلة من شعر الشاعر على ذلك ونفى أن يكون الضعف واليأس والدموع تبقى مع الحياة لأن الشابي كان يؤمن بقوانين الحياة ويخضع لها وينقاد. وتساءل فيما إذا كان متناقضات في شعر الشابي؟ وأجاب بأن الشابي عاش الحياة بكل ملء وقوة وتدفق، ولا نفهم ذلك إلا إذا نظرنا إلى عامل الزمن من خلال عنصره النفسي، وقد سلك إلى فهم الحياة عن طريق الشعور الملهم. وبين أن الشابي لم تكن الحياة عنده غاية في ذاتها ففشل فيها وخاب حتى يمقتها، بل كانت مطية حملته في سرعة كالحلم ليصل في النهاية إلى الإحاطة بجوهر الحياة، وهو ينتبه بكل قواه إلى أنه إن قدر له أن يتألم في حياته فلا يعني ذلك أن الحياة لا قيمة لها، لأن في الحياة جوانب أخرى خليقة بأن تجعلنا نصدق بنوتنا لها وتعلقنا بصدرها الرؤوم.

١٠- نفس الشابي للأستاذ عبدالخالق البشروش:

بدأ الباحث دراسته بأقوال الشاعر ثم قال: كان الشابي شاعراً عاش بالشعر وللشعر وحياته حياة من لا يحيا لغير قلبه.. ثم تحدث عن حياة الشابي فقال: «يغري بالزهد في الأدب ويمهد لإخماد كل صوت يلفظه الفؤاد، ولكن عزيزنا الراحل، ظل كالطائر يهتف ويغني، يفيض كل يوم بالرائع تتدفق نفسه مع الأيام بالساحر والجديد. ذلك لأن قلبه هو

حياة بعيدة نائية» هكذا تحدث الباحث عن الشاعر، وبهذه العبارات وضح رأيه في الشابي ثم قال: يغني بآلام الحياة وأفراحها ... ومضت نفسه تتمايل بين آصال الوجود وأسحاره، ومثل الكاتب على ذلك بأبيات شعرية، ثم بين ّ أن الشاعر اطمأن إلى عالم الخلود، وهو العالم الذي طالما ظمأ إليه، لأنه كان زاهداً في الحياة متشائماً بما فيها، لا تهتز نفسه أو تتحرك بغير النياحة والنديب، ويعلق على بدايات حياته التي تفتحت فيها للحب فعلق قلبه بفتاة، ر ُزئ بها، فتغنى الشابي بالألم ، لأن القدر لم يهادنه، فأبدع في شعره مع أنه غريب ثم تحدث عن مرضه، فيتحطم هناء الحياة ويستسلم استسلام المتبرم بالحياة، فيثور كالعاصفة، ويصارع القدر.

ويقارن الكاتب بين الشابي وبين «كماريوس سكليزي»، وأوضح أن بين الشاعرين صلة رحم وقرابة، فكلاهما ارتوى في حياته من الدموع، وكلاهما أكل التراب إلى الملالة، وكلاهما دخل المستشفى وحيداً وزهقت نفسه في المستشفى ذاهبة إلى ربها.

ثم تحدث في الخاتمة عن رحلة الشاعر الأخيرة إلى الريف بسبب الهموم وحيداً بين النخيل مفترشاً برنسه يستمع إلى أصوات الطيور ورقرقة الماء شاخصاً إلى دنيا من المتعة واللذاذة، ثمل النفس يقظ المشاعر حتى أنضى الغاب عن قلبه الشقاء. وكانت روح النقمة شائعة في أشعاره، والتشاؤم طالع حياته، وهو تشاؤم مصدره حياة الشابي وما لاقاه من عنت الأقدار وصلابة الدهور.

١١- حياة أبي القاسم الشابي بقلم الأستاذ إبراهيم أبو رقمة:

قدم الكاتب لدراسته عن حياة الشاعر، ثم وضح ما قاله الشاعر له فقال: «... وقد حدثني أبو القاسم عن نفسه فقال: إن الطور الأول الذي قطعه من حياته الفكرية هو التنسك والانقطاع إلى العبادة، وأنه كان يقضي اليوم واليومين لا يخرج من معبده، وربما مكث الزمان الطويل بلا طعام ولا شراب تعذيباً للنفس وكرهاً لهذه الدار، وهو يؤمل أن يأتيه في وحدته تلك طائف يخبره بالغيب ويبشره برتبة القطب أو الغوث».

هذا ما حدثه به الشاعر، وقد أخبرنا الباحث عن طريقة تناول الشاعر للكتب في المكتب، واجتماعه به في جنازة تلميذ من الجريد، وجرى حديث بينهما فاطلع الكاتب على جوانب متعددة من حياة الشابي، كما وجد الكاتب نثراً لأبي القاسم أكثر من شعره، ثم يعدد بعض خصائص الشابي النفسية والشخصية، ولدى سؤاله عن عدم نشره لبعض

أعماله، وحينها وجده مرتاباً في نضوج تحريراته يخشى أن يقابل عمله بالسخرية كما يخشى غضب والده. وبين الكاتب أنه لم يفارق الشاعر حتى تسلم منه قطعة شعرية نشرت في جريدة النديم تحت عنوان «شاعر الوجدان أبو القاسم الشابي» ثم أخبرنا بترجمة للشاعر.

ووضحت الدراسة أن أبا القاسم فارق الطور الأول من حياته عندما دخل جامع الزيتونة، وبقي في نفسه أثر من تعاليم الغزالي والشمس التبريزي وابن عربي، وألم بأدب الغرب ومذاهبه وتراجم من الأدب الفرنسي والإنكليزي.

وينتقل الكاتب إلى الطور الثالث الذي أصبح فيه الشابي شاعراً عالمياً مثل طاغور ولامرتين وغيرهما من الشعراء العالميين، وبذلك «فاق أبو القاسم طبقة الشعراء المحليين مثل شوقي وحافظ وغيرهما من شعراء الشرق ...».

وتحدث الكاتب في معرض حديثه عن الشابي إلى أقوال بعض من ترجم للشابي أمثال السيد زين العابدين السنوسي وخطأه لأنه نسب للشاعر مديحاً ورثاءً معللاً بقوله: «والحقيقة هو أن أبا القاسم لم يمدح ولم يرث مدة حياته الشعرية أحداً ... ولما مات والده بين ذراعيه عام ١٩٣٠ لم يقدر على رثائه وقد كاشفني بذلك إلا عدة أبيات قالها فيه بعد الممات بسنوات» ومنها البيت الذي يقول فيه:

قد كنت أحسب بعد موتك يا أبي ومشاعري عمياء بالأحزان

ويقرر الكاتب أن أبا القاسم يرى الشعر أعلى منزلة من أن ينزل به إلى درجة النياحة والمديح، وقدم في رأيه ومن خلال قصائد الشابي النواحي والأغراض التي يجب على الشاعر الحقيقي أن ينظم فيها.

وتحدث في آخر دراسته عن سبب شهرة الشاعر ومسامرته المشهورة التي أسماها «الخيال الشعري عند العرب» وما كان لها من دور في الأوساط الأدبية.

١٢- أبو القاسم كما يجب أن يقال عنه في حياته وبعد موته للأستاذ البشير الفورتي:

صدر الكاتب دراسته بالحديث عن صفات الشاعر الشخصية والأدبية، ثم انتقل بالحديث عن علاقته بجبران حين كان الشابي في المهد وهما الآن في اللحد «فكان يتلهف لذكر أخباره وكله آذان لسماع الكلام عن جبران» ويكمل الحديث حول تلك المقابلة مع

جبران، وتمنى الكاتب سماع ألحانهما الفردوسية، ووصفهما جنة النعيم وما فيها من جنان خلد وخمر وفاكهة ورمان وحور عين وولدان وأودية عسلية وجبال زبرجدية وقصور ذهبية وبحور زئبقية. وكأني بالكاتب يطلب أن يعرف كيف تكون الرومانسية عند هذين الأديبين. ثم تحدث عن الشابي فقال: «للمرحوم الشابي عينان مختلفتان، كانتا تنظران لهذا الوجود نظر الناقم الهازئ الساخر من الحياة. وكنت أداعبه بذكر مذهب العراة الذي ظهر ولم يكن المعري موجوداً لنأخذ رأيه فيه فيبتسم ويقول: سأذهب إليه وآخذ رأيه» ثم يكمل الكاتب بأن من عارض الشابي في حياته، عرف فضله بعد مماته.

١٣- ما يجب نحو الشابي: بقلم الأستاذ أبو القاسم محمد كرو:

صدر الكاتب دراسته بالإعراب عن فكرة أعلنها للناس ونادى بها وهو الآن يوجه نداء جديداً عن الفكرة نفسها.

ثم تحدث عن زيارة للمشرق العربي التي وجد من خلالها مقدار الغموض والخطأ التي تكتنف كل شيء يصلهم عن المغرب العربي، محاولاً إزالة ما يمكنه من الغموض وتلك الأخطاء، ثم يعترف بقوله: «بأن كل أحاديثي ومقالاتي ومحاضراتي وكتبي التي ألقيتها ونشرتها هناك، لم تحقق إلا جانباً يسيراً مما يجب تحقيقه... وذلك بسبب تراكم تلك الأخطاء واتساع ذلك الغموض». ويعترف أيضاً أن في زيارته إلى المشرق العربي، وجد الأدباء والكُتّاب مدفوعين بشوق للأدباء في المغرب وحريصين على التعرف إليهم وعلى آدابهم.

وينتقل بعد هذا إلى الحديث عن الشابي الذي كان هو الشاعر الوحيد الذي يعرفه الأدباء في المشرق، ولكن أكثرهم - يعني أدباء المشرق - لم يكن يعرف إلا اسمه وبلده وأبياتاً من شعره، وقدم مثالاً من رسالة أرسلها إليه ميخائيل نعيمة يصرح فيها بأنه لا يكاد يعرف الشابي إلا بقوله:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة   فلا بد أن يستجيب القدر

وهذا الأستاذ سلامة موسى ينسب إلى الشابي كتابي «العمال التونسيون»، و«امرأتنا في الشريعة والمجتمع» وهما كتابان للطاهر الحداد. وقد جاء خطأ سلامة موسى بعد أن قرأ الكتابين اللذين وضعتهما عن الشابي.

ثم يتساءل: ... إذا كان ذلك مع الشابي الذي عرفته مجلات الشرق وإذاعاته وكتبه ونواديه ...فكيف الحال يا ترى بالنسبة لغيره من شعرائنا وكُتّابنا؟

ويستمر الكاتب في دراسته مبيناً بعض السلبيات التي وقع فيها الأدباء في المغرب حتى كتب مقالاً بعنوان «تراثنا الأدبي في خطر» بسبب الإغلاق أو الانغلاق الذي وقع عليهم، ولذلك دعا أدباء تونس إلى إدراك خطورة الحالة التي هم فيها والتي سماها المأساة التي ينبغي أن لا تستمر أكثر مما هي عليه.

ثم تحول بعد ذلك بالحديث عن الشابي، وأن خير تمجيد وتعظيم له أن تنشر آثاره ويستعرض أمام الحاضرين ما كتبه عن الشابي، ويهيب بشقيق الشاعر أن ينشر تراث أخيه على الناس ونشر ديوانه، ثم توجه إلى أسرة الشابي وزملائه وأصدقائه الذين يملكون آثاره الأدبية إلى الإسراع بنشر هذه الآثار وأولها ديوانه «أغاني الحياة».

ويؤكد أن شقيق الشاعر استجاب لندائه فنشر ديوانه الخالد الذي فتح للباحثين والكُتّاب آفاقاً جديدة بتقديم الحقائق والمعلومات التي لم يكونوا يعرفونها من قبل، وفي ختام دراسته اقترح ما يلي:

١- تأليف لجنة تشرف على نشر مؤلفات الشابي في وقت قصير وأن تكون تونسية محضة.
٢- إقامة جناح خاص بالشابي بدار الكتب التونسية أو بمتحف باردو.
٣- إقامة تمثال للشاعر في العاصمة.
٤- إطلاق اسم الشاعر على شارع كبير في العاصمة وفي كل مدينة تونسية.

١٤- أبو القاسم الشابي بقلم الأستاذ محمد مزالي:

صدر الكاتب دراسته بالحديث عن إحياء اتحاد الكُتّاب الذكرى الأربعين لوفاة الشاعر الشابي، ثم أثنى على أبي القاسم الشابي بوصفه شاعر متوهج الحس، صادق الهاجس، وانتقل بالحديث عن أصالة الشاعر وعلاقته بشعبه ووطنه، والإصداع بمحبته والإيمان بمصيره رغم قوى الظلام وقسوة الدهر.

ثم تحدث عن شعور الشاعر بغربته بسبب رسالته التي يحملها والاطلاع بواجب التجديد في المفاهيم الماورائية والمواقف الأدبية والمقاييس الجمالية. وتحدث عن غضبة الشاعر واستيائه من بعض ما يرى فيقول: «ولا شك أنه استاء أشد الاستياء عندما لاحظ

سراة القوم وأكابر العلماء والفقهاء يشاركون الفرنسيين احتفالاتهم في تونس العاصمة بالمؤتمر الأفخارستي، والذكرى الخمسينية لانتصاب الحماية عام ١٩٣١»، واستمر يثني على الشاعر لأنه كان قد شام فجر الاستقلال وتنبأ لهذا الشعب بالحرية حين أنشد قصيدته «إرادة الحياة» بين أثر قصائده على الشعب التونسي من أجل كرامته وحريته «وكأنها بعثت بعثاً تتحدى الاستعمار وتفرض إرادتها على الأشياء فينهزم تاريخ مفروض ويُكتب تاريخ جديد بأحرف من نار ونور».

ويؤكد بأنه:هكذا يكون الشعر الحق رؤية وحلماً وخيالاً جامحاً، تستحيل واقعاً ملموساً بفضل كفاح الشعب البطولي وطموح الإنسان إلى تحقيق الذات والخلق المتجدد ثم قال في الختام: «وسيظل أبو القاسم الشابي شاعراً كبيراً لأنه كان - كما قال هو نفسه - عن جبران:فكراً قوياً ... يجوب أعماق الحياة».

١٥- الغربة في أدب الشابي بقلم الأستاذ أحمد خالد:

بدأت الدراسة عن معاني الغربة في ديوان «أغاني الحياة»، ومثل ذلك في بيتين من الشعر عن الغربة التي برزت في صورة (غربة روحية) حاول الشابي التخلص منها برحلة الخيال إلى فردوس مفقود عن طريق التجربة الصوفية متأثراً بفكرة الخطيئة الأولى ثم بفكرة الإسراء والمعراج.

وهذه الغربة لم تكن هروباً من الشاعر، وإنما هي أمنية تصنعها لإثارة شعبه وتحريك سواكنه، وهي رسالة الدنيا التي هي عند الشاعر رسالة الحرية ومقاومة الاستبداد ومصارعة قوى الشر مثلما فعل (بروميثيوس). وقد تقمص الشابي شخصيته في قصيدة «نشيد الجبار» فيصدع بصيحة الحر ويجهر بإرادة الحياة. وقد كثرت التعبيرات الرمزية في أغاني الحياة لوجود أزمات اجتماعية وسياسية واقتصادية وثقافية. ثم وضح مواضع تألم الشاعر بسبب استحواذ المقلدين الذين لا يفهمون شعر الشابي وقدم الكاتب أمثلة على ذلك من كتابات الحليوي صديق الشاعر، وهذا سبب قساوة الشابي على الجامدين، لأنها قساوة واجه بها الشاعر خصوصاً في غير الحق مع دعاة التجديد رافضين الحوار معهم منحرفين عن منهاج النقد الموضوعي. وإلى جانب الغربة الروحية تحدث صاحب الدراسة عن الغربة الفكرية التي ذاق الشابي مرارتها.

وقد تحدث الكاتب عن قصيدة «النبي المجهول». كما أحس الشاعر أيضاً إحساساً فاجعاً حين لاحظ تخلف البيئة الثقافية في زمن التيارات الفكرية والأدبية التجديدية في المشرق خاصة وفي العالم عموماً. كما تحدث عن إلحاح الشاعر في رسائله ومذكراته وديوانه على تعليل غربته الفكرية بسبب تغاضي الشعب رسالته التي حملها.

ووضح صاحب الدراسة الشكوى المريرة التي حار فيها الشاعر أثر مسامرته «الخيال الشعري عند العرب». ويطلب الكاتب العودة إلى ديوان الشاعر وإدراك ما تغنى به الشاعر لفهم سر اختياره لعنوان ديوانه، ويقرر الكاتب أن للشاعر مفهوماً عصرياً للوطن وهو: «كل مكان ينبت العز بأمنه وحريته». وأوضح الدارس بأن الشابي اعتقد في الثلاثينيات بأن مسؤولية الأديب الحق لا تختلف عن مسؤولية السياسي.

ثم تحدث الكاتب عن الجمال في نظر الشاعر وحيرته كما وردت في «نشيد الجبار»، فلم يكن ضبابياً منفصلاً عن واقع بيئته مهما حلق بخياله في أجواء الأساطير وقد جاء ذلك بأسلوب قصصي رمزي أحياناً للإيحاء بتلك الحيرة.

وانتقل الكاتب في مقالته الطويلة إرادة الحياة وبين ّ القصائد التي وردت فيها كلمة «الحياة» كإحصائية دقيقة قائلاً: «بمثل هذا الشعر تبوأ الشابي منزلة الشاعر القومي في بلاده، واحتل مكانة مرموقة في الأدب العربي وعرفته الشعوب الأجنبية بترجمات شعره، لأنه تجاوز به حدود المكان والزمان وأكسبه أبعاداً إنسانية خالدة».

١٦- الشابي ناقداً ومنظراً بقلم الأستاذ خليفة محمد التليسي:

بدأت الدراسة بالحديث عن أثر أزمة الضمير العربي الحديث على الشاعر المعاصر الذي بدأ يعكس شعره بمغامراته على هذه الأزمة، التي أصبحت أكبر من أن تستوعبها بسهولة ويسر، ومع ذلك فقد كانت الأعمال جيدة والنتائج مفيدة.

وبين ّ الباحث أن الشابي كان من أوائل الذين سعوا للبحث عن فكرة شاملة تستوعب تجاربه ونظراته إلى الوجود وفكرته عن الفن والحياة.

وقد كتب الكثيرون عن الشابي، لكن الحديث كان قليلاً عن الشابي الناقد والشابي المُنَظِّر. ويكمل الباحث دراسته عن تغير العصر اختلاف نظرة الشابي إلى الشعر، حتى كان رائداً من رواد التجديد في الشعر والوجدان الحضاري، فواجهته من أجل ذلك

صعوبات شتى في سبيل تأكيد مفاهيمه سواء في شعره أو في نثره، حتى أصبحت آدابه قضية تستوعب التزامه وثورته الحضارية. فكان الشابي تياراً هادراً كاسحاً، حفر مجراه بعمق في الوجدان العربي، وكان علامة في تاريخ الكلمة العربية الشاعرة، وأنه «كان شاهداً من شواهد عصره ومن شهود اليقظة العربية الحديثة».

ومن بين القضايا التي أبدى رأيه فيها هي:

١- مفهوم الشعر ومقياسه الصحيح.
٢- مفهوم الشاعر ورسالته وصلته بالوجود.
٣- مشكلة الحداثة والتراث.
٤- تقييم لنظرة التراث للأسطورة والطبيعة والمرأة والقصة الشعرية.
٥- صلة الشعر بالفكر والفلسفة.
٦- الفنون والنفس العربية.
٧- يقظة الإحساس وأثرها في الفرد والجماعة.

وأكمل الباحث دراسته ببحث القضايا وإخلاص الشاعر لنفسه وصدقه في التعبير عنها، وفي ختام دراسته وضح الكاتب «على أن ثورة الشابي لا ترفض أن تتجاوز حتى مبدعها عندما يتحول إلى نموذج ثابت وقالب من القوالب أو صيغة من الصيغ التاريخية التي فقدت صلتها بالواقع وذلك حين يقرر (بأن لكل أدب حياته التي يحياها، ولكل حياة أدبها الذي تنفخ فيه من روحها القشيب)».

١٧- الشابي يقظة إحساس قومية بقلم الأستاذ أبو زيان السعدي:

صدر الكاتب الدراسة بالحديث عن النفوس المبدعة، ومنزلتها في حركة الشعوب، ونبه إلى أنه على علم بأن فكرته في بحثه عن أدب الشابي قد يعده البعض ضرباً من ضروب الإسراف المنهجي لأن فترة حياته قصيرة لا تكفي لبلورة فكرة كبرى أو تقرير حقيقة عبقريةبين ّ أن الحديث عن مفتاح شخصية الشاعر يتوقف في نظره عند أمرين هامين:

أولهما: إيمان الشابي بمهمته الخطيرة في الحياة والمجتمع وأنه صاحب رسالة علوية.

ثانيهما: وعيه الكامل بحدود هذه الرسالة ومحاولة رسم منطلق فكري يتخذه مقياساً في سير الحركة الاجتماعية والفكرية عند أمة من الأمم أو شعب من الشعوب. ثم وضح أن نبوغ الشابي لم ينشأ في فراغ. فقد كان رمزاً وتعبيراً عن جيل ومرحلة تاريخية، خاصة وأن المرحلة التاريخية التي ظهر فيها كانت مليئة بالأحداث الجسام وحافلة بمحاولة التغيير والإصلاح، وكما كانت هذه المرحلة في بلاد المشرق العربي فقد كانت تونس تجتاز أزمة حقيقية بعد صحوتهم على واقع الاحتلال الفرنسي البشع. وأن الشابي عاش هذه الأحداث واختبر بعض مراحلها بالمعايشة حيناً وبالمطالعة حيناً آخر، وعبر عنها في أشعاره التي أرادها أن تكون يقظة تهز الكيان وتغير النفوس. ومن هنا «جاء دوره بارزاً في كل ذلك وجاءت نظرته الواضحة العميقة التي يصدر عنها في كتاباته الشعرية والنثرية، والتي فسر بها الوثبة والنكسة في تحرك الشعب».

ووضح الباحث: «أن الشابي دعا إلى ضرب من الوجود الروحي ... تتنزل به القيم من عالمها الأجوف إلى أرضية صلبة من واقع الإنسان المعذب، أو هو امتلاء النفس بالقيم الإنسانية»، وبهذا نستطيع القول: إن الشابي لم يكن شاعر خاطرة عابرة أو فكرة سالبة نشأت بمعزل عن الأحداث، وإنما هو شاعر يحاول أن يستشف ما وراء الظواهر، بل إنه ليستبصر بفكره الملهم روح الشاعر الحق ودوره الممتاز في صنع الحياة. ثم تحدث الكاتب عن ثقة الشاعر بالشعب، وبهذا الصوت كان يتوجه إلى الطغاة بثورة تعيد للكرامة عزتها وللمجد تاجه، وإن نقد في فترة الشعب على صمته فإن هذا يجب أن لا يشككنا بإيمان شاعرنا بهذا الشعب أو يدعونا إلى تفسيرات غريبة كانحباسه في حدود آلامه الضيقة. ومن هنا جاءت قصائده دعوة إلى الحرية. أما الشكوى والألم والدموع والعزلة والانفراد إنما مرده إلى مصدرها الأول في فكر الشابي الذي عبر عنه بيقظة الحس، وهو نتاج طبيعي لنهضة وطنية وقومية شملت تونس وكل البلاد العربية.

وختم الباحث دراسته بقوله: «لقد تألم الشابي من جمود وتقليد معاصريه، ولكنه لم ييأس من المستقبل والشباب، هؤلاء الذين سيحققون الجديد البنّاء الذي دعا إليه وضحى في سبيله بصحته وشبابه ...» .

١٨- من مصادر الشابي ومراجعه، إعداد الأستاذ أبو القاسم محمد كرو:

قدّم الباحث هذه المصادر في دراسة خاصة بمناسبة مرور أربعين سنة على وفاة الشاعر، في مهرجان أدبي بتونس ونبه الكاتب على الأمور التالية:

١- بين أنه سبق للباحث نشر قائمة مبوبة عن المصادر والمراجع التي كتبت عن الشابي من سنة ١٩٢٦-١٩٦٠ وذلك في كتابه (آثار الشابي وصداه في الشرق).
٢- يبين الباحث أنه كتب هذه القائمة على عجل لجعلها بمثابة الدليل.
٣- هناك عدد آخر من الوثائق لم يتمكن الباحث ذكرها هنا بسبب البُعد عن المكتبات الخاصة.
٤- الاقتصار في هذا الدليل على ذكر الكتب فقط.
٥- الاقتصار في هذه الوثيقة على أبواب خمسة.

وسوف أرجئ الحديث عن آثار الشابي إلى عنوان خاص في الكتاب، رغبت أن يكون باباً أو عنواناً منفرداً في الكتاب.

هذا ما كان من دراسات في الجناح الغربي من الوطن العربي، وليست هذه كل الدراسات ولكنها كانت الأهم، فكيف كانت الدراسات في المشرق العربي؟

ا- الشابي: روح ثائرة، بقلم الدكتور محمد مندور:

مهد الدكتور مندور لدراسته عن الدكتور أبي شادي زعيم جماعة أبولو وجماعته من الشعراء الذين اتسمت أعمالهم بسمة الشباب وخصائصه الروحية وعرض لشعر إبراهيم ناجي في دواوينه.

وانتقل بعد ذلك إلى بلورة شخصية الشابي على أنه كان روحاً ثائرة، ومن هذه الروح استمد شعرهالذي امتلأ عاطفة وثورة، وقد مرّ الشابي في سماء الشعر العربي الحديث مرور الشهاب، ومع ذلك ترك فيها ضوءاً خالداً، ويكاد أن يكون الشاعر المغربي الوحيد الذي شاعت معرفته في مصر والإعجاب بشعره والتسليم بعبقريته الممتازة.

ثم تحدث الكاتب عن الذين تعرضوا بالكتابة عن الشابي وقال: «... ومن الغريب أنني عندما طالعت عدداً من قصائد الشابي ومقالاته النقدية كدت أجزم بأن هذا الشاعر قد كان يجيد لغة أجنبية تمكنه - لا من الإلمام بآداب الغرب فحسب - بل من تذوقه لتلك الآداب وإحساسه بها وتمثله لها. ثم عدت إلى ما كتبته عن تاريخ حياته فأخذتني الدهشة

كل الدهشة عندما علمت أنه لم يكن يعرف أية لغة أجنبية وأنه تخرج من جامع الزيتونة، عندئذ أدركت أنني أمام إحدى تلك العبقريات التي لا يستطيع البشر لها تفسراً لأنها هبة من اَّلله، ثم أصبحت أشك في أنه مدين ديناً حقيقياً لأحد الشعراء، ولذلك لم أقتنع الاقتناع كله بحديث الأستاذ كر ّو عن تأثر الشابي تأثراً كبيراً بشعراء المهجر. كما أنني خرجت بالنتيجة نفسها بعدما قرأت للدكتور أحمد زكي أبو شادي مقالاً مخطوطاً عن الشابي أرجو أن ينشر قريباً، في كتاب للمرحوم أبي شادي عن شعراء العرب المعاصرين، وفي هذا المقال ينكر الدكتور أبو شادي تأثر الشابي بشعراء المهجر ويشير إلى تأثر الشابي أو احتمال تأثره ببعض قصائده لأبي شادي نفسه».

وبعد أن تحدث عن الشابي وحياته وروحه الأثيرية مع التمثيل على ذلك بالشعر تحدث عن قصيدة «اسكتي يا جراح» وفيها لا يقنع في استخدام اللغة بالتعبير التقريري ولا بالتصوير البياني الذي يريح الخيال ويطلقه من أسر الواقع، وإنما يجنح مع كل هذا إلى استخدام أصوات اللغة استخداماً موسيقياً منقطع النظير وأخيراً تحدث عن سحر شاعرية الشابي على نفسه، وأكد الباحث أنه لم يحاول البحث عن تاريخ دقيق لقصائده، لكن ما تأكد منه الباحث أن الشابي قد اختتم حياته القصيرة الرائعة بقصيدة «في ظل وادي الموت» وكأنها كانت «قرار» حياته الذي سيظل عشاق الشعر الرفيع يرددونه أبد الدهر.

٢- التقرير والإيحاء في شعر الشابي، بقلم الدكتور مصطفى بدوي:

صدر الكاتب دراسته بالحديث عن الوحدة الفنية الحية، وعلى التقرير والإيحاء وبمثل هذا من الشعر العربي الحديث تتحقق فيه هذه الوحدة. وتستخدم فيه الألفاظ بإمكانياتها الإيحائية. ثم انتقل بالحديث عن زمن نشأة الشابي وقال: «والذي يهمنا في هذا المجال أن مدرسة التجديد في الشعر العربي في ذلك الوقت كانت متأثرة إلى درجة كبيرة بمدرسة الرومانتيكيين الأوروبيين، وكانت الشخصية ذات الأثر الكبير في نشر الأفكار عن طريق الكتب والمجلات والدواوين، وعن طريق النقاش والحديث، الاتصال الشخصي هي شخصية المرحوم أبو شادي الذي تعرف على الشعر الغربي في إنجلترا في وقت كانت فيه الرومانتيكية لا تزال هي المدرسة المهيمنة على عقول الناس ...» .

وتحدث عن المفهوم الرومانتيكي للشعر الذي يكاد أن يكون نقيض المفهوم العربي التقليدي. إن الشعر الرومانتيكي الأوروبي شعر الإيحاء التام بينما أغلب الشعر العربي هو شعر التقرير العام.

واختار الكاتب قصيدة «الصباح الجديد» للتعليق عليها، واعتبرها من أروع قصائد الشابي لأنه اعتقد أنها قصيدة ناضجة أكثر من غيرها، لأن الشاعر تمثلها تمثيلاً كاملاً فامتزجت واتحدت اتحاداً عضوياً حياً مع غيرها من العناصر ومطلعها:

اســــــــكني يــــــــا جــــــــراح	واســــــــكتي يــــــــا شــــــــجون
مــــــــات عهــــــــد النــــــــواح	وزمــــــــان الجنــــــــون
وأطــــــــل الصــــــــباح	مــــــــن وراء القــــــــرون

وهذه القصيدة تمثل انتصار الشاعر على الألم، وتمثل توكيده القيم الإيجابية في الحياة. لكن القراءة اليقظة الواعية التي يتطلبها الشعر الإيحائي تبين «لنا خلاف ذلك، وأول دليل على أن القصيدة لا تمثل تغلب الحياة على الموت هو النغم الشعري الخاص الذي تتميز به حقاً. إنه دليل غامض إلا أنه في الحقيقة أصدق دليل، لأن النغم في الشعر الجيد جزء لا ينفصل عن التجربة».

٣- أبو القاسم الشابي: نظرة في شعره عامة، بقلم الأستاذ حسن محمد محمود:

وهذا مقال طويل فيه مختارات كثيرة، وقد صدر الكاتب مقالته بتعريف الشاعر المطبوع وخصائصه الفنية وتفسير أحاسيسه.

ثم تحدث عن موت الشابي وما خلفه هذا الغياب حتى استحق أن تفخر به الأجيال. واستمر في الحديث عن شاعرية الشابي بطرح أسئلة متنوعة مما يدور في خلد الكثيرين، ومنها: من هو الشاعر؟ وما فائدته للعالم؟ ماذا تكون حالته لو خلا منه؟ ويجيب الباحث عن الأسئلة مع ضرب أمثلة من الشعر.

ثم انتقل إلى قصيدة «ألحاني السكرى» وعلق عليها بقوله: «أحس القارئ في العنوان نفسه شيئاً من الابتكار، وروعة التجديد في المعنى وتلك من المميزات التي طبع عليها أبو القاسم، أن هاتين الكلمتين فحسب لتصوران لسامعهما وادياً سحرياً تتغنى فيه ملائكة الحب وتدوي فيه أغاريد الشباب المعسول... ونمضي إلى جوهر القصيدة». الذي أحس

الكاتب فيها روح الثورة والتمرد، ثورة على كل ما في الوجود وتمرد الساخر بالحياة بل والعطف والحسرة على من فيها. ثم انتقل إلى الحديث عن حب الشابي الذي يراه أنه أسمى هبة يهبها الله للشاعر ويتساءل لماذا يكون الأمر لو نضب معين الحب وجفّ ورده؟ وتحدث عن أبي القاسم الفيلسوف الذي ينظر إلى الحياة نظرة فيها شيء من اللذة ونواح من الألم، وربما كان الشاعر قد أحس بقرب منيته عندما نظم قصيدته «الصباح الجديد».

وتناول الكاتب قصيدتان هما: «قلب الأم»، و«في ظل وادي الموت» وعلق عليهما بصور الموت، وصور الآمال المبعثرة في أباديد الحياة، وتصوير النواحي النفسية. وتحدث عن علاقة شعر الشابي بالطبيعة ووقوفه خاشعاً أمام مظاهرها القوية وقفة تستعصي على الكثيرين. كما يظهر الشاعر الفيلسوف نسك الذي خبر الحياة عن قرب، وهنا لا تفوته الحكمة الرائعة التي يستمدها من صميم نفسه ووجدانه، ومن مظاهر الطبيعة التي وقف عليها مرأى المساء وسكونه، ثم بث شكواه من دائه العضال الذي استحكم فيه ونثره في قصائد متعددة.

ثم تحدث الكاتب عن طريقتين في نظم الشعر وهما:

١ - محاكاة القدامى فيأتي قصيده على روى واحد وقافية واحدة.

٢ - الانطلاق من أسار التقليد فتحس بالروح الهائمة في جنان الخيال.

ويختم حديثه بالقول: «ومما امتاز به أبو القاسم وحدة القصيد، ومطالع شعره يلمس ذلك فيرى أن القصيدة كلها متحدة الأجزاء، قوية التركيب، ثابتة الدعائم. فلا تحس في أبياتها نفوراً أو في معانيها تشتتاً، وذلك أمر يتطلب في القصيدة».

٤- فن الشابي، بقلم الأستاذ نظمي خليل:

صدر الكاتب دراسته بالحديث عن الطبيعة وعن الآلهة ثم تحول إلى رسالة الشاعر فقال: «كل إنسان له في هذا العالم رسالة يؤديها ورسالة الشاعر هي أسمى أنواع الرسائل، فهي رسالة العالم الأسمى للعالم الأرضي، وما الشاعر إلا رسول أمين، يحمل هذه الرسالة فهو الشخص الوحيد الذي يتصل بالعالمين عالم السماء بروحه وإحساسه وعالم الأرض بجسمه ومادته. فما رسالة الشابي إذن؟ ما الموضوع الذي اتخذه مادة لشعره؟ أو بمعنى

آخر: بماذا نسمي الشابي» ويميل الكاتب إلى الاعتقاد بأن رسالة الشابي هي رسالة القلب الإنساني إلى عالمنا الإنساني، ولكنه يحس بشيء من القلق لهذا الاعتقاد، ولا يكاد يظفر برسالة كاملة لهذا الشاعر الشاب.

ويؤكد الكاتب أن الشابي شاعر من طراز روسو وبيرون وشاتو، لأنه عندما يتغنى بالطبيعة إنما يتغنى بمظاهرها العامة، وأنه يقدس الطبيعة، وحينما يأوي إليها إنما يفعل هذا زهداً في دنيا الإنسان وهروباً بمشاعره من أن تصطدم بحياة اليوم العادي.

والشعور بالألم النفسي عند الشابي هو بعينه الذي لازم بيرون طول حياته والشابي شاعر الطبيعة الظاهرة، شاعر مناظرها وجبالها وأصدائها وليس شاعر أسرارها. أجل لقد أفصح الشابي عن أنغام الطبيعة المسموعة، ولكن للطبيعة أنغاماً صامتة لم يصل الشابي إليها.

ثم تناول الكاتب قصيدة «صلوات في هيكل الحب» التي تذكر الكاتب بقصيدة «بانديمون» لجون كيتس، ويرى الشابي في هذه القصيدة ما يراه كيتس في مستهل أنديمون أن الحب مأوى آمن من قسوة هذا العالم ومن شروره.

والآن «حقاً لقد قدم لنا الشابي صوره الشعرية في أسلوب شعري جميل حتى أصبح له أسلوب خاص مطبوع به نستطيع أن نميزه على شعراء هذا العصر: هذا الأسلوب الشعري الخاص هو صوره وتشبيهاته الجميلة. وهذه بحد ذاتها مقارنة بين الشابي ونفر من الشعراء الغربيين».

وفي ختام الدراسة يؤكد الباحث أن هذا كله خطرات سريعة تعاوده إذا ذكر الشاعر الشاب الذي لم يفسح له الزمان من العمر فعصف به عصف الريح العاتية بأوراق الخريف الساقطة وهو يقول: «ولست أدعي أني قمت بشيء نحو هذه العبقرية الشابة التي هوت من سماء مجدها كما تهوى جبابرة الملوك وأعاظم الدول ...» .

٥- بين الشابي والتجاني، للدكتور عبدالمجيد عابدين:

تصدرت الدراسة بوجوه الشبه بين الشاعرين في النشأة والثقافة، وفي النزعات النفسية والفلسفية، وفي النظرة القومية والاتجاه الفني، وقد ذكر صاحب كتاب «الشاعران المتشابهان» أبي القاسم محمد بدري أن الشاعرين متشابهان في النظم والتعبير وفي تصوير

المناظر الطبيعية وفي تصوير الأحداث الوطنية وفي تصوير الحب والجمال وفي تصوير الحالات النفسية والعواطف.

وقد تقدم هذه الدراسة فصل خاص عن العلاقة بين الشابي والتجاني وبإمكانك الرجوع إليه في الكتاب «الشابي وأقرانه من الشعراء».

٦- الخيال الشعري عند العرب لأبي القاسم الشابي للدكتور شوقي أبو شقرا:

الخيال الشعري عند العرب محاضرة ألقاها المؤلف في تونس عام ١٩٢٩، حين كان الوقوف أمام الحاضرين فروسية وجرأة نادرتين، وحين كان عمر الشابي عشرين عاماً.

وقد أوضحت هذا في بحث خاص في فصل من فصول الكتاب وقد كان الموضوع مطولاً، وبإمكانك الرجوع إليه في موضعه «أثر الأدب المهجري في شعر الشابي».

٧- أبعاد الزمان والمكان في شعر الشابي، للباحثة سلمى الخضراء الجيوسي:

تحدثت الباحثة في هذه الدراسة عن أثر المكان في شعر الشابي، وبينت أنه على الناقد أن يتعرف على أسماء الأماكن والتي اعتبرتها من أهم أركان القصيدة العربية فقالت: «وليس في شعر الشابي إلا فيما ندر، ذكر لتونس وتخصيص لمعالمها الجغرافية المتعددة ... ويدهشنا أن نقرأ قصائد الشابي التي استوحاها من ذكرى حبيبته الأولى التي توفيت وهو فتى يافع، فيذكر لقاءات كثيرة لهما في عدوة الوادي ... ويقف الناقد متأملاً إزاء هذه الظاهرة، ولعلها هي ثورة الشابي على الجمود والرجعية والجهل في شعبه بتلك اللهجة المريرةالغاضبة الساخرة أحياناً».

ثم انتقلت إلى علاقة الشابي بالوطن، فبينت أنه كان يميل إلى التجرد والتعميم أكثر من ميله إلى التخصيص، وأن شعره يزخر بالصور الحسية البعيدة عن التجريد، ولكنها تظل صوراً ذات معانٍ تجريدية مطلقة أكثر مما هي ذات إشارات حسية معينة.

ولعل هذه الخاصية في شعر الشابي تأتي نتيجة للرومانسية التي تسمح بالتجريد دون أن يكون التجريد شرطاً ملازماً لها، ورومانسيته هي التي تدفع به إلى الغاب وتنفره من المدينة وحياتها.

ثم تحدثت الباحثة عن أبعاد الزمان في شعر الشابي، وبينت أن أسهل أنواع التقسيم للزمن هو النظر إليه باعتباره ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، كما تحدثت عن الماضي البعيد والتاريخ في شعره، وبينت أن الفترة الزمنية عند الرومانسيين ترتبط بأمكنة كانت مراكز للحضارة والإشعاع. كبغداد ودمشق والأندلس، وأعطى هذا التوحيد بين المكان والزمان معنى واقعياً لهذا التطلع الرومانسي.

وفي ضوء هذه المعرفة نفهم موقف الشابي من الماضي البعيد، وأوضحت هجوم الشابي على الموقف الكلاسيكي العربي من المرأة وإن كان في شعره أقل احتفاء بالهجوم على الماضي الكلاسيكي. وتقول الباحثة: «لقد قطع الشابي شجرة الزمن من جذوعها، وتغاضى عن الجذور الضاربة في الأرض».

ثم انتقلت في دراستها إلى الماضي القريب والماضي الشخصي. وأوضحت أن ذاكرة الشابي احتفظت بألق ماضيه الشخصي وأحزانه، ومنذ حداثته بدأت الذكريات تعني له شيئاً مهماً، فراح الشابي يبكي أمسه الذي ضاع منه ويرثي لسعادة حب شعر قد انفلت منه إلى الأبد. «إن هذا الماضي الشخصي الدائم الحضور في نفسه من أهم المظاهر التي تصف علاقته بالزمن ولعلها تميزه عن عدد غير قليل من الشعراء المعاصرين».

وانتقلت الباحثة إلى الزمن وعنصر التغيير، ثم إلى الحاضر والمعاصر كما وضحت رؤيا المستقبل في شعر الشابي، وأخيراً توقف الزمن في شعرا الشابي، عندما فقدت بعض قصائده مرور الزمن وخاصة ما جاء في قصيدة «الغاب» حيث يعطيك إحساس أنه قد حول الغاب إلى مكان سرمدي صباحه ومساؤه، وأنه قد قلب الأشياء الواقعية الملموسة الفانية.

وفي الختام تحدثت الكاتبة عن إيماءات في قصيدة «ألحاني السكرى»، «إذ تهرب اللحظة القريرة، فالشاعر يمسك بها في قصيدته إلى لأبد. إلا أنه لا يطيق أن يرى التغير المحتوم الذي يحمله الزمن في قلبه يغزو التجربة الممتلئة ويسلمها إلى النقصان والتفسح، ويفضل عليه الموت، لأن الموت وحده هو الذي يستطيع أن يحمي التجربة من التغير ويحافظ عليها في توهجها وجمالها واكتمالها ليصبح هنا هو الحامي والواهب للحياة». وتحدثت خلال المقال عن همه الوطني وعن خاصية التعميم والإطلاق والارتفاع بالحالة النفسية

عند الشابي وعن غزله بالطبيعة وعن أسهل الطرق في تقسيم الزمن وتحدثت عن معالجة الشابي الأسطورية للتاريخ، وكانت دراستها طويلة ومتعددة الجوانب ومفصلة ومكتملة.

٨- لحظة الإبداع عند الشابي، بقلم الدكتور إحسان عباس:

صدر الدكتور إحسان عباس دراسته بالقول: إن الشابي لم يحدثنا كثيراً عن لحظة الإبداع في حياته الشعرية، وهو في حديثه عن الخيال الشعري عند العرب يستشهد بتجارب غيره، ولا يقف عند تجربته الذاتية في هذا المجال، وتدل آراؤه في الخيال الشعري عند العرب على أنه كان يرى الإبداع الشعري ثمرة مباشرة لنشوة مستغرقة في الجمال وبخاصة جمال الطبيعة.

ثم تحدث الدكتور عن ظاهرة التكثيف في شعر الشابي التي تخدم أغراضاً كثيرة، وأنها مبثوثة في شعره على نحو متميز، غير أنها ترتد في الاتكاء عليها إلى تلك «الحمى» التي تواكب التبجس لحظة الإبداع، وهذا يشير إلى أن خيال الشابي يتولد من ذاته «ولهذا لا يمكن أن يقال إن خيال الشابي تلفيقي ... ومهما تحدث النقاد عن المؤثرات في شعره ... فإن تلك المؤثرات تظل لقاء عاماً في حومة الرومنطيقية»

ثم أوضح: «وكي يصح لي ما أريد استنتاجه لا بد أن أفرض أن الشابي قرأ هذه القصيدة – قصيدة لأبي العلاء المعري – ودارت نغمتها في نفسه، وليس لدي شاهد يثبت ذلك على نحو يقيني».

٩- الطبيعة والزمن أو رموز الحياة والموت في شعر أبي القاسم الشابي، للأستاذ إيليا الحاوي:

مهد الباحث لموضوعه بالحديث عن العبقرية المبكرة، وقارن بين الشابي في ذلك بالشاعر الفرنسي «أرتير رانبو».

ثم انتقل الباحث إلى موضوعات الشابي وخاصة شعر الطبيعة، وتحدث عن اللحظة القائمة واللحظة القادمة ومظاهر الكون في شعر الشابي ثم مزاوجة الأشياء في ضميره، كما بين أن شعور الكآبة والغربة، إنما هي كآبة لا تفسير لها ولا تبرير، وأن الشاعر كان يشخص أمام الشيء ونقيضه في لحظتي وجوده وهمومه، وهناك دائماً موجودان في الموجود الواحد وبينهما تكمن الفاجعة.

ويرفض الكاتب بأن الشابي ارتدى أسمال الحزن والقنوط من الخارج، وذلك لأن نفسه بكل قواها الواعية واللاواعية تتنفس في شعره، وفسر أيضاً شعلة العذاب المتأججة في شعر الشابي والشعور بالغربة والتوحد، لكنه انتهى إلى تجربة روحية ميتافزيقية تفصح عن عذاب الروح الأسيرة.

«يتأكد من جديد أن مشكلة الشابي الدائمة كانت مشكلة الخلود أي مشكلة الحياة والموت والزمن الذي هو أبو الصيرورة وناشر ألوية الزوال والعبث على مطارح الوجود».

وقد تحدث الكاتب عن النظرة التفاؤلية العامة وعن علاقة الشابي بالشعب وعن التناقضات واللبس وتمثيل الطبيعة بمعبد الحب وعن معنى الشباب وملازمته للحب وتضاعف النزعة العدمية وفي الختام قال: «هكذا تحرر الشابي من حتمية العدم وانتصر عليه بالذوبان فيه وحلوله في قلبه، وبذلك عاد كل ما هو مادي عابراً طارئاً ولا حقيقة إلا في الذات الأخرى، الذات الروحية التي يتصل بها الشاعر في لحظات عبر الشعر والحب وفوق نواميس القهر والقدر». وأوضح «أن قيمة الشابي في فنيته التي انطلق بها إلى عالم بكر من الرؤى والصور وفاض فيها بألفاظ وكأنها ابنة نفسه .. وفي النغمية الشجية التي تعزف على أوتار الروح ... كان الشابي في شعره هو الذات والموضوع والمضحي والضحية أو الجرح والسكين ...» .

آثار الشابي

وُلد الشابي عام ١٩٠٩ ودُفن عام ١٩٣٤، وخلال هذه الحياة القصيرة عاش مريضاً يصطاف بأمر الأطباء، وكان شاعراً عربياً خالصاً، لم يعرف لغة أجنبية واحدة، ورغم ذلك فقد ترك لنا روائع شعرية كثيرة، ووثائق ونصوص خطها بقلمه تدل على وجود الشابي في صفحات يومياته، توضح نبوغه وعبقريته، التي طالما حاضر المحاضرون، وألف المؤلفون وكتب الأدباء والكُتّاب عنها. وقد وردت آثاره على النحو الآتي:

١- الخيال الشعري عند العرب، وقد طبع في حياته، وفي الأساس هو محاضرة ألقاها الشاعر وطبعها في تونس سنة ١٩٢٩ ثم أعيد طبعها في تونس عام ١٩٦١.

٢- أغاني الحياة، أو ديوان أبي القاسم الشابي، وهو الديوان الذي استند إليه الدارسون، وقد أعده الشابي ليرسله به إلى مصر ليتولى الدكتور أحمد زكي صاحب مجلة «أبولو» طبعه. وهو مجموع شعره، طبع أول مرة في القاهرة سنة ١٩٥٥ ثم طبع ثانية في تونس عام ١٩٦٦ وصدرت عن تونس طبعة أخرى عام ١٩٧٠، وطبع بعد ذلك في بيروت عام ١٩٧٢.

٣- قصائد متفرقة نشرت في الجرائد والمجلات، وفي كتب الدراسات.

٤- مقالات مختلفة، وهي مجموعة كبيرة تناول فيها شؤون الأدب العربي قديمه وحديثه، نشر بعضها وبقي البعض الآخر مغموراً.

٥- رسائل الشابي: وهي مجموعة كبيرة تبادلها مع أدباء عصره في مصر وتونس وسورية ورسائل تبادلها مع بعض الشعراء، نشر بعض هذه الرسائل، ولم ينشر الكثير منها، بعضها كانت أدبية والبعض الآخر كانت رسائل شخصية.

٦- مذكراته: وقد بدأ بتدوينها في كانون الثاني عام ١٩٣٠، وهي مجموعة من المذكرات اليومية التي سجل فيها آراؤه وخواطره. نشر بعضها في مجلة «مكارم الأخلاق» الصفاقسية.

٧- شعراء المغرب الأقصى: وهي دراسة أعدها ليلقيها في النادي الأدبي ولكنه لم يجد سوى اثنين، فتركها مخطوطة في يد صديقه المحامي إبراهيم بورقعة بمدينة صفاقس.

٨- جميل بثينة (قصة): وهي موجودة عند شقيقه الأستاذ الأمين الشابي حيث ظلت مسودة، وكان ينوي إلقاءها في النادي الأدبي، فحال المرض بينه وبين ذلك.

٩- الهجرة المحمدية أو قصة الهجرة النبوية: محاضرة ألقاها الشاعر في «نادي الطلاب» بتوزر بمناسبة ذكرى الهجرة النبوية نشرها في مجلة «العالم» التونسية.

١٠- في المقبرة: وهي رواية ذكرها الأستاذ محمد كرو، وتحدث عنها الأستاذ زين العابدين السنوسي عند ترجمته لحياة الشابي وهي من نوع الاعترافات يروي، فيها على لسان بطلها حوادثه وتأثراته النفسية.

١١- صفحات دامية: وهي قصة.

١٢- السكبر: مسرحية ذا فصلين.

١٣- الأدب العربي في العصر الحديث: دراسة قصيرة قدم بها ديوان «الينبوع» للشاعر أبي شادي، ذكرها الأستاذ عبداللطيف شرارة في كتاب الشابي ص٥٢ وطبع في القاهرة عام ١٩٣٤.

هذا ما عثرت عليه من إنتاج أبي القاسم الشابي خلال عمره القصير، وتلك هي المؤلفات التي عرفها أصدقاؤه أثناء حياته وبعد موته، ويعتبر هذا الإنتاج ضخماً، فليهنأ الشابي، حبيب الفجر الجميل والصباح الجديد، وليخلد مع الخالدين في أجمل قصائده وأروع مؤلفاته وهو القائل:

سأعيش رغم الداء والأعداء كالنسر فوق القمة الشماء

القسم الثاني

قصائد الشابي وروائعه

أثبت في هذا القسم من الكتاب ما استطعت جمعه من قصائد الشابي وروائعه وبدائعه، وقد قمت بترتيبها ترتيباً زمنياً حسب تاريخ نظمها.

قصائد عام ١٩٢٣

- قصيدة واحدة هي بواكيره الشعرية بعنوان «الغزال الفاتن».

الغزال الفاتن

هذه أول قصيدة نظمها الشاعر بتاريخ ٢٣/ ٢/ ١٩٢٣ وذلك بعد موت حبيبته التي اختطفها الموت منه قبل أن يكمل الشاعر الرابعة عشرة من عمره. هذا الحب الذي لم يعمر طويلاً.

ـــــذر الحـــــب ٌّ بـــــذره   في فـــــــؤادي فأورقـــــا
بلحـــــاظ نوافـــــث   فجنـــــى حظـــــي الشـــــقا
ســـعى فيـــــه م ُهـــره ُ   عاديـــــاً، ثـــــم أعنقـــــا

* * *

رب ظبـــــي علقتـــــه   بالبهـــــا قـــــد تقرطقـــــا
ثـــم مـــن وصـــله الجميـــل   ـــــدا القلـــــب ُ مم ُلقـــــا
ــــحر اللـــــب َّ طرفُـــــه   مـــــا دهـــــا الريـــــق لـــــو رقـــــى
ـــــب الصـــــب َّ صـــــد ُّه   والشـــــفا لـــــو ترفَّقـــــا
ـــــار م ُلقـــــى بحبـــــه   موثقـــــاً ليـــــس مطلقـــــا
ـــــار ذا ج نَّـــــة بـــــه   ـــــذاب م ُؤَ ر َّقـــــا
يرقـــــب البـــــدر جفنـــــه   ليناجيـــــه مـــــا لقـــــى
ـــــام في العـــــين غَر ْ بـــــه   وهمـــــى ثـــــم أغـــــدقا
وهمـــــى صـــــوب دمعـــــه   فاســـــتقى منـــــه مـــــا اســـــتقى

* * *

كـــــم قلـــــوب تفطَّـــــرت   صـــــار م ُه ْر َقـــــا
ودمـــــوع تسلســـــلت   مثـــــل غـــــيم تـــــدفقا
دون أن تبلـــــع النفـــــو   ر ُضـــــاباً مرو ّقـــــا
ـشـــــقيق بخـــــد ِّه   مهـــــج الخلـــــق شـــــقا؟
ثغـــــره مـــــن عقـــــوده   ودمـــــوعي تنســـــقا
خصرـــــه مـــــن نحـــــافتي   ونحـــــولي تمنطقـــــا
ر ْ شـــــفاه بخـــــده   ودمـــــائي تخلَّقـــــا
ـــــن لظـــــى جمـــــر خـــــد ِّه   بـــــدي قـــــد تحر ّقـــــا

ـــــدّهُ فـــــوق ردفـــــه   غصـــــن بـــان عـــلى نقـــا
جيـــــده تحـــــت فرعـــــه   ـــــرقُ غـــــيم تألقـــــا
ـــــتُ وجـــــداً بحبِّـــــه   قـــــد رنـــا لي فأحرقـــــا
نســـــبي في غرامـــــه   ـــــباً صـــــار مُعْرقـــــا



قصائد عام ١٩٢٤

قصيدتان هما:

- أيها الحب.
- خله للموت.

أيها الحب

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ ١/٨/ ١٩٢٤، بعد القصيدة الأولى بعام تقريباً، في سن الخامسة عشرة، وقد قالها متغزلاً بالحبيبة قبل موتها.

ـــا الحـــبّ أنـــت سر بلائـــي   وهمـــومي ، وروعتـــي ، وعنـــائي
ونحـــولي ، وأدمعـــي ، وعـــذابي   وســـقامي ، ولـــوعتي ، وشـــقائي

* * *

ـــا الحـــبّ أنـــت سر وجـــودي   وحيـــاتي ، وعـــزتي ، وإبـــائي
وشـــعاعي مـــا بـــين ديجـــور دهـــري   أليفـــي، وقـــرّتي ، ورجـــائي

* * *

ـلافَ الفـــؤادِ يـــا سُـــمَّ نفسيـــ   في حيـــاتي ، يـــا شـــدتي ، ورخـــائي
ـٌ يثـــورُ في روضـــةِ الـــنفسِ   ـــى ؟ أم أنـــتَ نـــور السـماءِ

* * *

ـــا الحـــبّ ـد جرعـــتُ بـــك الحـــز   ن كؤوســـاً ومـــا اقتنصـــت ابتغـــائي
حـــقِّ الجـــمال يـــا أيهـــا الحـــ   ، ّ !نانيـــكَ بي !هـــوِّن بلائـــي

* * *

ليـــت شـــعري ! بأنـــة القلـــب قـــل لي :   ظـــلام خلقـــتَ ، أم مـــن ضـــياء ؟[1]
أتـــرى أنـــت جنـــةٌ ، أم جحـــيم ؟   لســـت أدري ، بـــل أنـــت كالكهربـــاء[2]

(١) ورد البيت في ديوان أغاني الحياة: ليت شعري يا أيها الحب قل لي.
(٢) هذا البيت غير مثبت في الديوان.

خلِّه للموت

نظم الشاعر الأبيات ٢/٨/١٩٢٤، ويبدو أن بعضاً من أبياتها قد فُقد وتبقى منها هذه الأبيات الثلاثة التي يتحدث فيها عن الشعب الذي لا يثور مطالباً بحقه.

ـــل قلـــب حمـــل الخســـف ـــل ّ مـــــن ذل ٍّ الحيـــاة الأرذل
كـل شـعب قـد طغـت فيـه الـدِّما دون أن يثـــأر للحـــق الجـــلي
خلِّـــه للمـــوت يطويـــه ... فـــا حظّـــه غـــير الفنـــاء الأنكـــل



قصائد عام ١٩٢٥

وعددها تسع قصائد:

- النجوى.
- شعري.
- في الظلام.
- من حديث الشيوخ.
- الحياة.
- تونس الجميلة.
- الصيحة.
- جمال الحياة.
- نظرة في الحياة.

النجوى

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ ٢/٤/١٩٢٥ على النظام المعروف بلاغياً بالتقسيم، وهي من محاولات التجديد في بناء القصيدة أو الجديد مما لدى الشارع متأثراً في ذلك بشعراء الأندلس، حيث سار في القصيدة على النظام التالي:

فاعلاتن / فاعلاتن / فاعلن فاعلن

ـــف قلـــيلاً ، أيهـــا الســـاري القمـــرْ ! ... اصـــــطبرْ
يـــا ســـميري ! في أويقـــات الكـــدر ... والضـــجر
واســـقني مـــن جـــدول النـــور البـــديع ... قـــدحا
لَّنـــــي أفهـــــم هـَيْنـــوم الربيـــع ... إن صـــحا
ـــم فـــؤاد إذ تولّتـــه الشـــجون ... والهمـــوم
ـــثّ أســـلاكه والـــدمع هتـــون ... مـــا يـــروم
تكـــنْ تضـــحك سُـــخراً بالبشرـــــ ... ـــا قمـــرْ !
ـــمْ أحزنَـــك الـــدهرُ الخَطِـــر ... ـــالنُّكُرْ
أيهـــا القـــاموس يـــا صـــوت الحَيـــاة ! ... وصـــداها
غانيهـــا العـــذابَ الشـــاديات ... ـــداها !
ـــا لأمواجـــكَ يُطغيهـــا الغـــرورْ ... ثـــورْ
ـــم تـــأوي نحوهـــا تيـــك الصـــخورْ ... كالكســـير
اهـــا تـــذكر الأمـــسَ الجميـــل ... ســـلامَه
فتحيـــي ذلـــك المجـــد النبيـــل ... بابتســـامه
تُغنـــي، ثـــم لا تلبـــث أنْ ... تحتويهـــا
وعـــةُ اليـــوم ، فتبكـــي وتـــئن ... لشـــقاها

تونس الجميلة

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ ٢/ ٦/ ١٩٢٥، والقصيدة صرخة معذب قاسية من حياة الشاعر تحت وطأة الجهل.

ـت أبكـي لعسـف ليـلٍ طويـلٍ … لربـع غـدا العفـاءُ مراحَـه[١]
ـما عـبرتي لخطـبٍ ثقيـلٍ … قـد عرانـا، ولمجـدٍ مـن أزاحَـه:
ـما قـام في الـبلاد خَطيـبٌ … ـوقظُ شـعبَه، يريـدُ صـلاحَه
ِا روحَـه قمـيص اضـطهاد … ، شـائك ، يـرد جمـاحه
اخمـدوا صـوته الإلهـي بالعسـ … ـف، أمـاتوا صـداحه ونَواحـه
خّـوا طرائـقَ العسـف والإر … ـاق معْـه، ومـا توخـوا السماحه
هكـذا الملحون في كـل صـوب … ـقاتُ الـردى إلـيهم مُتاحـه
غـير أنـا تناوبتنـا الرزايـا … واسـتباحت حمانـا وأي اسـتباحه

* * *

أنـا يـا تـونس الجميلـة، في لـج … ـوى قـد سـبحت أيّ سـباحة[٢]
عتـي حُبـك العميـق، وأني … ـد تـذوقت مُـرَّه وقَراحـه ![٣]
ـت أنصـاع لـلَّـواحي ولـو … ، وقامـت عـلى شـبابي المناحـه[٤]
لا أبـالي … إن أُريقـت دمـائي … ـدماء العشّـاق دومـاً مباحـه !!
ويطـول المـدى تريـك الليـالي … ادق الحـب والـولا وسَـجَاحَهْ

* * *

ذا عصرُ ظلمـة غـير أني … ـن وراء الظـلام شـمتُ صـباحه
ضـيع الـدهر مجـد شـعبي ولكـن … سـترد الحيـاة يومـاً وشـاحه !!

---

(١) العفاء: الديار الدارسة، المراح: الموضع.
(٢) اللج: معظم الماء.
(٣) القراح: الماء الخالص.
(٤) اللواحي: جمع اللاحية وهي اللائمة.

شعري

قصيدة نظمها الشاعر بتاريخ ١٣/ ٦/ ١٩٢٥ يبث فيها آلامه وكآبته، ويوضح أن شعره يأتي رضاً لضميره، لا يبغي منه رضاءَ أمير أو هدية أو مال.

ﺸـــــعري نفاثـــــةُ قلبـــــي   إن جـــــاش فيـــــه شـــــعوري
ــــولاه مــــا انجــــابَ عنــــي   ـــــيمُ الحيـــــاة الخطـــــيرِ
ولا وجـــــــــــــدت اكتئـــــــابي   ولا وجـــــــــــــدت سروري
ﺒـــــه تـــــــراني حزينـــــــاً   أبكـــــي بـــــدمع غزيـــــر
ﺒـــــه تـــــــراني طروبـــــــاً   جـــــرَّ ذيـــــل حبـــــوري

* * *

ا أنظــــم الشــــعرَ أرجــــو   ـــــه رضـــــاءَ الأمـــــير !
ﺪحــــــــــة أو رثــــــــــاء   .ُـــــدى لـــــرب السرـــــير !
حســـــبي إذا قلـــــت شـــــعراً   أن يرتضـــــيه ضـــــميري !!

* * *

مــــا الـــــعرُ إلا فضـــــاءٌ   ـــــرفُ فيـــــه مقـــــالي
ــــيما يسرُّ ـــــبـــــلادي   ومـــــا يسرـــــ المعـــــالي !!
مــــا يثـــــيرُ شـــــعوري   مـــــن خافقـــــات خيـــــالي

* * *

ــــرضُ الشــــعرَ أبغــــي   ـــه اقتنـــــاصَ نـــــوالِ
ﺸـــــعرُ إن لم يكـــــنْ في   الــــــه ذا جــــــلالَ
ـــــإنما هـــــو طيـــــفٌ   يســـــع بـــــوادي الضـــــلال
يقضيــــ الحيـــــاةَ طريـــــداً   ذلـــــة، واعتـــــزال

* * *

يـــــا شـــــعر أنـــــت ملاكـــــي   وطـــــارفي وتـــــلادي
ﻨـــــا إليـــــك مُـــــراد   وأنـــــت نعـــــم مـــــرادي
ﻘـــــف لا تـــــدعني وحيـــــداً   ولا أدعـــــك تنـــــادي

ـــل وجـــدت حُســاماً ... ينـــاط دون نجـــاد
كـــم حطـــم الـــدهر ... همـــة كثـــيرَ الرمـــاد
ـــاه تحـــت نعـــال ... مـــن ذلـــة وحـــداد
رفقـــاً بأهـــل بـــلاديً ... يـــا منجنـــون العـــوادي[1]

الصيحة

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ ١٣/٦/ ١٩٢٥، وقد حذر فيها من مغبة الجهل وخطورته، موضحاً الآثار المترتبة على الجهل الذي هو سبب بلاء الأمة والأفراد، والشاعر فيها يشكو حاله أمام شعبه.

يـــا قـــومي ! ينـــيَ شـــامت ... للجهـــل، الجـــوِّ نـــارا
ـــو ســـحاباً رُكامـــاً ... لـــو قتامـــاً مُثـــارا
يثـــير في الأرض ريحـــا ... ـــيج فيهـــا غُبـــارا
لفـــي الشـــديدَ صريعـــاً ... ـــي الأديـــبَ حمـــارا !
منهـــا الفضـــاء ظـــلام ... والنـــاس منهـــا ســـكارى
قـــد أورثـــتهم دوارا ... أعقبـــتهم خمُـــارا
لا يعـــرف المـــرءُ منهـــا ... لـــيلاً رأى أم نهـــارا
يخـــال كـــل خيـــال ... سرى تسربـــل فـــارا

* * *

بـــا قـــوم سرتـــم حثيثـــاً ... طـــىً وراء كبـــارا
نبـــذتم العلـــم نبـــذ النـــوى ... ـــلىً وصـــغارا
لبســـتم الجهـــل ثوبـــاً ... ـــذتموهُ شـــعارا
ـــا قـــومُ مـــا لي أراكـــم ... قطنـــتم الجهَـــل دارا؟

(١) منجنون: دولاب ناعورة السقاية، ووردت في موضع آخر مجنون.

أضــــــــعتم مجـــــــد قـــــــوم شـــــــادوا الحيـــــــاةَ فخـــــــارا
أبقـــــوا ســـــاء المعـــــالي بـــــما أضـــــاءوا منـــــارا
حـــاكوا لكـــم ثـــوب عـــزّ خلعتمـــــوه احتقـــــارا
ثـــــم أرتـــــديتم .... لبـــــوس خـــــزى وعـــــارا

* * *

يـــا ليـــت قـــومي أصـــاخوا لمـــا أقـــول جهـــارا
ـا شـــعر أسْـــمعتَ لكـــنَّ ـــــومي أراهـــم سُـــكارى
ـــلا تُبـــالِ إذا مـــا طـــوا ذ ـــداك ازورارا
واصـــبر عـــلى مـــا تلاقـــي واصـــدع وقِيـــت العثـــارا

في الظلام

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ ٢٧/ ٦/ ١٩٢٥، وهي من التوشيح الثناة من بحر الرمل، الشطر الأول تام والثاني جزء من البحر وكل قسم منها له حرف روي خاص.

ـرفـــت في دُجيّـــة الليـــل الحـــزينْ مـــرة الأحـــلامْ
ـــوقَ سربٍ مـــن غمامـــات الشـــجون ملؤهـــا الآلام

* * *

شخصـــت لمـــا رأت عـــين النجـــوم بعثـــة العشـــاق
ورمتهـــا مـــن ســـماها برجـــوم تســـكب الأحـــراق

* * *

كنـــت إذ ذاك عـــلى ثـــوب الســـكون ثـــرُ الأحـــزان
الهـــوى يســـكب أصـــداءَ المنـــون ي فـــؤاد فـــانْ

* * *

ســـاكتاً مثـــل جميـــع الكائنـــات ... ـراكـــد الألحـــانْ
هـــائماً قلبـــي بـــأعماق الحيـــاة تائهـــاً حـــيران

للحـــــب عـــــلى النـــــاس يـــــداً نصــف الأعــمار
ولـــــه فجـــــر عـــــلى طـــــول المـــــدى ســاطعُ الأنــوار

* * *

ثـــــورة الشـــــعر ، وأحـــــلام الســـــلام جمــال النــور
وابتســـــام الفجـــــر في حـــــزن الظـــــلام في العيــون الحــور

جمال الحياة

نظم الشاعر قصيدته بتاريخ ١٩/ ٧/ ١٩٢٥، يصف فيها الطبيعة والصباح والليل والشمس ليصل إلى أن الدهر بين غدو ورواح وضياء وظلام وسكون وحركة ونشيد وانقباض.

سرت في الـــــروض وقـــــد حـــت تباشـــير الصـــباحِ
وجنـــــاح الفجـــــر يـــــومي ـــو ربّـــات الجنـــاحِ
والـــــدجى يســـــعى رويـــــداً ـعي غيـــــداء رَدَاحِ
ونســـــيم الصـــــبح يســـــري جســـجاً فـــوق البطـــاحِ
وخريـــــر النهـــــر ســـــكرا نُ ، وزهـــر الـــروض صـــاح
نـــت نحـــو جـــلال الكـــون جونـــاه اللّيـــاحِ (١)
ثـــم بانـــت في ســـفور اضـــح أيَّ افتضـــاح
حتســـت خمـــرٌ نـــدي الـــدّا مـــس مـــن كـــأس الأقـــاح
واعتلـــــت بلقـــــيس عـــــر ش الليـــل في تلـــك النـــواحي
ـــم مالـــت لـِ غـــروب بعـــد إضرام الكفـــاح
واســـتوى الليـــلَ بـــرغم الشـــمس في العـــرش الفُســـاح

* * *

(١) الجونـاء: الشمس: والليـاح: الصباح.

هكـــــذا الــــــدهر بأزيــــــاء ـــــــــــــــد ُو ٍ ، ورواح ِ
ـــــيــاء وظـــــــــلام وســـــــكون وصــــــباح
ونشــــــــيدٍ وفــــــــواح انقبـــــاض وانشرــــــاح
إنـــــما الــــــدهر وميثـــــا ُ الليـــــاليٍ كشـــــجاح

من حديث الشيوخ

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ ٥/ ٨/ ١٩٢٥.

نَّ أحـــلامَ الشَّـــباب ضــئيلةٌ تحطِّمهــا مثــل الغصــون المصــائب
ـألت ُ الــدِّياجي عــن أمــاني شــبيبتي فقالــت: «ــا الرِّ يــاح ُ الجوائــب ُ »
لــا ســألت ُ الــريح عنهــا أجــابني: «فهــا ســيل القَضــا، والنوائــب ُ »
«فصـعفـاءَ ، واضـمحلَّت كـذرَّ ة الشاطئ المحموم، والموج ُ صاخب ُ »
لقـــد خـــدعتني في الحيـــاة شيشـــتّي ولكننـــي قـــد حنكتنـــي التجـــارب[1]
قـــد كنـــت ألقـــي للـــدجى برغـــائبي فأبصرـــها فـــوق الـــدنا تتخاطـــب

نظرة في الحياة

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ ٣٠/ ٩/ ١٩٢٥، وهي من خواطر الشاعر الذاتية، ولها صفة تعلمية حكمية.

ـ الحيـــــــــــــاةَ صراعٌ ـــــــا الضـــــعيف يـــــداس ْ
مـــــا فــــاز في ماضــــغيها ــــــديدُ المِ ـــــــراس ْ
حـــب ٍّ فيهـــا شـــجون كُــــنْ فتــــى الاحـــتراس
ـــونُ كـــونُ شـــقاء ٍ ـــون كـــون التبـــاس ْ

(١) البيتان الأخيران من كتاب زين العابدين السنوسي، الأدب التونسي في القرن الرابع عشر، وغير واردة في الديوان.

ـــون كـــــون اخـــــتلاق ــــــــــجة واخـــــــتلاس
ـســـــيّان عنـــــدي فيـــــهً السرــــــــور، والابتئـــــاس

* * *

ـــــين النوائـــــب بَــــوْ نٌ لنــــاس فيـــــه مزايـــــا
ـــــبعض ُ لم يــــــدر إلاَّ لـــــبِلا ينـــــادي البلايـــــا
ـبعض ُ مـــــا ذاقَ منهـــــا ـــــوى حقـــــيرِ الرزايـــــا
لحيـــــــاةَ سُ ـــــــباتٌ سيَنقضيـــــــ بالمنايـــــا
ومـــــا الــــــرؤى فيــــــه إلاَّ آمالَنــــــــا ، والخطايـــــا
ــــــإن تَـــــيقّظَ كانــــــت بـــــين الجفــــون بقايـــــا

* * *

ـ الســـــــــــــكينة روحٌ ـ الليـــــلِ ليســـــت تُضـــــام
ـــــروح شـــــعلةُ نـــــورً فـــــوقِ كــــلِّ نِ ظـــــامْ
لا تنطفــــــي بريـــــاح الــــــ ـهــــــاق أو بالحســـــــامْ
ــــل قـــــد يُعـــــجُّ لَظاهـــــا ـــيلاً ، ويطغـــــى الضرِّ ـــــام
كـــــل البلايــــــا .. جميعـــــاً تفنـــــى ويحيـــــا الســــلام !
لـــــذلٌّ ســــــبَّة عــــــار لا يرتضـــــــيه الكـــــــرام !

* * *

ألفجـــــر يســـــطع بعـــــد الـــــ ـــــدجى ، ويـــــأتي الضـــــياءْ
يرقـــــدُ الليـــــل قَسرـــــاً ـــــلى مهـــــاد العفـــــاء
وللشــــــعوب حيـــــــاةٌ حينـــــاً وطـــــوراً فنـــــاء
ــــأس ُ مـــــوتٌ ولكــــــن ـــــوتٌ يُثـــــير الشـــــقاء
لجِ ـــــدٌّ للشـــــعب روح تـــــوحي إليـــــه الهنـــــاء
فـــــإن تِلّـــــت تصـــــدَّت حياتـــــــه للـــــــبلاءْ

الحياة

نظم الشاعر الأبيات ٢١/ ١٢/ ١٩٢٥، ويمتزج فيها الفرح باليأس.

ن هـــذي الحيــاةَ قيثــارةُ الله ، ـــل ُ الحيـــاة مثـــل اللُّحـــون

ـم ٌ يَسـ ْ ــتَبِي المشــاعر كالســحر ، وت ٌ يخُ ـــــل ٌّ بـــــالتَّلحين

ــالي مغـــاورٌ ، تُلْحـ ِ ــد ُ اللَّنقضي ـــ عـــلَى الصـ َّ ـــدى المســـكين



قصائد عام ١٩٢٦

وعددها ست قصائد:

- أنشودة الرعد.
- مأتم الحب.
- شكوى اليتيم.
- غرفة من يم.
- الكآبة المجهولة.
- الزنبقة الذاوية.

أنشودة الرعد

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ ٢٨/ ٢/ ١٩٢٦.

ـــكونِ الليـــلِ لمـــا ـــانقَ الكـــونَ الخشـــوعْ
واختفـــى صـــوتُ الأمـــاني ـــفَ آفـــاقِ الهجـــوعْ

* * *

ـــلَ الرعـــدُ نشـــيداً ردَّدتـــه الكائنـــات
ـَ صـــوتِ الحـــقِّ إن صـــا ـــأعماقِ الحيـــاةْ

* * *

يتهـــادى بضـــجيج ي خلايـــا الأوديـــهْ
ـــل جبـــار مـــن الحـــقِّ أقصى الهاويـــهْ

* * *

فســـأل الليـــلَ والليـــ ـلُ كئيـــبٌ ورهيـــبْ
شاخصـــاً بالليـــل والليـــ ـلُ جميـــلٌ وغريـــبْ

* * *

أتـــرى أنشـــودةُ الرعـــ ـــد أنـــينٌ وحنـــينْ
رنّمتهـــا بخشـــوع ـــةُ الكـــونِ الحـــزينْ؟

* * *

هـــي القـــوَّةُ تسـعى ـــاف واصـــطخابْ
يـــتراءى في ثنايـــا ـــوتهِ امُ العـــذابْ؟

* * *

ـــير أنَّ الليـــلَ قـــد ظـــ ـــلَّ ركـــوداً جامـــدا
ـــامتاً مثـــل غـــديرِ الـــ ـــقفرِ مـــن دونِ صـــدى

غرفة من يم[1]

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ ٢٧/ ٣/ ١٩٢٦.

عف العزيمة لحدٌ في سكينته ... ـ الحياة، بناه اليأسُ والوجلُ
العزيمة قوّاتٌ مسخرةٌ ... دونَ مداها الشامخُ الجبلُ
ناسُ شخصان: ا يسعى به قدمٌ ... ن القنوط، وذا يسعى به الأملُ
ذا إلى الموت، والأجداث ساخرةٌ ... لمجد، والدنيا له خَولُ
فعلِ يجلّ الناسُ فاعلَه ... مجداً، فإن الورى في رأيهم خطل
ففي التماجد تمويه، وشعوذة ... وفي الحقيقة ما لا يدرك الدجل
دُ إلاَّ ابتسامات يَفيضُ بها ... لزمان إذا ما انسدَّت الحيَلُ
بالمجد ما تشقى الحياةُ بِه ... د اليومُ أمساً ضمّه الأزلُ
الحروبُ سوى وحشية نهضت ... في أنفس الناس فانقادت لها الدُ
أيقظت في قلوب الناس عاصفةً ... ام الوجود لها واربدَّت السبلُ
دهرُ منتعلٌ بالنار، ملتحفٌ ... الهول والويل والأيّام تشتعلُ!
ضُ داميةٌ، بالإثم طامية ... ومارد الشر في أرجائها ثمل!!
والموت كالمارد الجبار منتصب ... الأرض يخطفُ من قد خانه اجلُ
هامِ ه أشلاء ممزَّقة ... تلو على القفر شعراً ليس يُنتحل

---

(١) وردت الأبيات الثمانية الأولى في كتاب الشابي لأبي القاسم محمد كرو بعنوان (الأمل والقنوط) ووردت الأبيات الستة الأخرى بعنوان (الحرب) في الكتاب السابق. أما في الديوان فقد جاءت بعنوان (غرفة من يم) وعدد أبياتها ١٤ بيتاً وقد وجدت البيت السادس:

المجد صنفان: صنف في تمايله ... لحن الخلود، وصنف فوقه الخبل

والبيت الأخير:

تثير في النفس أحزاناً يرثي لها ... فم الفؤاد بتغريد فتنهل

مأتم الحب[1]

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ ٣/ ٨/ ١٩٢٧.

ليت شعري !
طيرٌ
ـــمعُ الأحـــزانَ تبكـــي بـَـين أعـــماق القلـــوبْ
ـــمٌّ لا يهتـــف في الفجـــرِ برنـــات النحيـــبْ
بخشـــوع واكتئـــاب؟

* * *

لست أدري
يٌّ أمر
ـــرس َ العصـــفور عنِّـــي ؟ أتـــرى مـــات الشـــعورْ
ميـــع الكـــونِ حتـــى في حشاشـــات الطيـــورْ
ـ بكـــَى خلـــفَ الحجـــاب؟

* * *

في الدياجي
كم أناجي
ـــمعَ القـــبرِ بغصّـــاتِ نحيبـــي وشـــجوني
ـــم أصـــغي، علّنـــي أســـَمعُ ترديـــدَ أنينـــي
ـــأرى صـــوتي فريـــدْ

* * *

فأنادي
يا فؤادي !
ـات َ مـــن تهـــوى وهـــذا اللحـــدُ قـــد ضـــمَّ الحبيـــبْ

(١) نشرت في كتاب محمد كرو بعنوان (مأتم الحب) وفي مصادر اخرى مأثم القلب.

ـــك ِ يــــا قلـــــب ُ !ـــما فيــــك َ مـــــن الحـــــب ٍّ المـــــذيب
ـــك ِ يــــا قلـــــب ُ !ِحيـــــد ْ

* * *

، ّ قلبي
مات حبي
ـــــاذرفي يــــــا مقلـــــــة َ الليــــــل ِ الـــــــدراري عـــــبرات ْ
حـــــول حبـــــي ، فهــــو قـــــد ودَّع آفـــــاق الحيـــــاة ْ
ــــــد أن ذاق َ اللهيـــــــــب ْ

* * *

ـدبيه ِ ،
غسليه َ ،
ـدموع ِ الفجـــــر ِ مـــــن أكـــواب ِ زهـــــر ِ الزنبـــــق ِ
ـــــه ِ بجـــــــلال ِ في ضـــــــفاف الشـــــــفَق ِ
ـــــيرى رَوح َ الحبيـــــــب ْ



الكآبة المجهولة

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ ٧/ ٨/ ١٩٢٦

أنـــــــا كئيـــــــب ،
أنـــــــا غريـــــــب ،

كـــــآبتي خالفـــــت نظائرهـــــا
ريبــــة ٌ في عـــــوالم الحـــــز َن
ـــــآبتي فكـــــرة ٌ مغـــــر ٍّ دة ٌ
مجهولـــــة ٌ مـــــن مســــامع الـــــزمن

لكننـــــي قـــــد ســـــمعت رنتهـــــا

مهجتــــي ، في شــــبابيَ الثمـــــل
ـــــمعتُها، فانصرــــفت ُ مكتئبــــاً
شـــدو بحـ ُــــزني، كطـــائر الجبـــل

ـــــمعتها أنّـــــةً يرجِّ ـعُـهـــــا
ـــوت ُ الليـــالي ، ومهجــــةُ الأزل
ـمعتها صرخــــةً مضـ َعْضـ َـــــعةً
جـــدول ٍ في مضـــايق الســـبل

ســـــمعتها رنّـــــةً ، يعانقهــــا
ـــوق ٌ إلى عـــالم يضعضـــعها
ـعيفةً مثـــل أنـــة صـــعدت ْ
ـن مهجـــة ٍ هـــدّها توجُّعهـــا

كآبـــةُ النـــاس شـــعلة ، ومتـــى
ليـــال خبَـــت ْ مـــع الأمـــد
ـــا اكتئـــابي فلوْ عـــةٌ ســـكنتَ ْ
حـ ِـــي ، وتبقـــى بهـــا إلى الأبـــد

* * *

أنـــا كئيـــب ، أنـــا غريـــب ،
لـــيس في عـــالم الكآبـــة مـــنْ
مـ عشـــارَ بعـــض مـــا أجـ ـــدُ
ـآبتي مـ ُـــــرَّةٌ ، وإن صرخـــت ْ
روحـــي فـــلا يســـمعنها الجســـد

ـآبتي ذات قســـوة صدَ ـــهرت
مشـــــاعري في جهـــــنَّم الألم
يســـمع الـــدَّهر ُ ـــل قسْ ـــوتها
يقظـــة قَــــطٌّ ، لا ، ولا حلُـــــمِ

ـــآبتي شـُـــــعلةٌ مؤجـِّـجـــــة ،
ـــت رمـــاد الكـــون تســـتعـِـر
ســـيعلم الكـــونُ مـــا حقيقتهـــا
ويطلـــع الفجـــر يـــوم تنفجـــر

* * *

كـــآبتي شـــعلةٌ ، مؤججـــــة
تحـــت رمـــاد الكـــون تســـتعر
ســـيعلم الكـــون مـــا حقيقتهـــا
ويطلـــع الفجـــر يـــوم تنفجـــر

* * *

كآبـــة النـــاس شـــعلة ومتـــى
ــرت ليـــال خبـــت مـــع الأمـــد
أمـــا اكتئـــابي فلوعـــة ، ســـكنت
روحـــي ، وتبقـــى بهـــا إلى الأبـــد

شكوى اليتيم

نظم الشاعر القصيدة في ٣١/ ٨/ ١٩٢٦.

ـلى ســاحل البحــرِ ، أنــى يضــجُّ خُ الصـــباحِ ، ونـــوحُ المســـا
هـــدتُ ـن مهجـــة أترعـــتْ ـدمعِ الشـــقاء، وشـــوكِ الأســـى
ـــاَعَ التنهُّــــــدُ في الضِـــــجّة
ــــا في ثنايـــاهُ مــــن لوعــــة
سرــــت ونـاديـــت يـــا أمُّ ! هيّـــا
يَّ ! فقـــد ســـئمتني الحيـــاة

* * *

إلى الغـــاب ، أسـَــكُبُ أوجــاعَ قلبـــي ، نحيبــاً كلفـــح اللهيـــبْ
ـيبـــاً ترقـَــرقَ في وَسَـــالَ يـــر نٌّ بنـــدب القلـــوبْ

ـمْ يفهـــمِ الغـــابُ أشــجانَهُ
ـــل يُــــرَدِّدُ ألحانَـــــهُ
ــت ، ونادیـــتُ یـــا أم هیَّـــا
لِيَّ ! فقــد عـــذبتني الحيـــاة

فـت عـلى النهـر أهـرقُ دمعـاً ـر مـن فـيضِ حـُـزني الألـيمْ
رُ بصـمتٍ ، عـلى وجنتـيَّ ـمـعُ مثـلَ ـوعِ الجحـيمْ

خفَّــفَ النهـــرُ مـــن عـــدوه
ــكَتَ النهـــرُ عـــن شـــدوه
سرـــت ، ونادیـــت یـــا أمٌّ هیـــا
لِيَّ ! فقـــد أضـــجرتني الحيـــاة

❋ ❋ ❋

ـــا نـــدبتُ ، ولم ينفـــعِ وناديـــت أمـــي «نلـــم تســـمعِ»
رجعـــت بحـــزني إلى وحـــدتي ـردَّدت نَـــوحي عـــلى مســـمعي

عانقـــتُ في حـــدتي لـــوعتي
نلـــتُ لنفسيـــ : ألا فاســـكتي

الزنبقة الذاوية

نظم الشاعر قصيدته بتاريخ ١٥/ ١١/ ١٩٢٦، ويقارن فيها الشاعر بين الزنبقة الذاوية وزهرة عمره الآفل.

ـةَ السـفّح ؟ مـا لي أراك تعانقـك اللوعـةُ القاسـيهْ ؟
، الغـضِّ صـوتُ اللَهيـب ، يرتِّـلُ أشـودة الهاويـهْ ؟
عكَ الليـلُ نـدبَ القلـوب لكِ الفجـرُ كـأسَ الأسـى ؟

ــب َّ عليـــك شــعاعُ الغـــروب جيـــعَ الحيـــاة ، ودمـــعَ المســـا
ـك الـــدهرُ حيـــث يُفجِّــــ ـوحُ الحيـاة صدُـدوعَ الصـدورْ ؟
ُبثـــقَ ُ الليـــل طيفـــاً ، كئيبـــاً بيـــاً ، ويخفـــقُ حـــزنُ الـــدهرْ ؟

❋ ❋ ❋

ُضـــجرتك أغـــاني الظـــلامِ ـــد عـــذّبتني أغـــاني الوجـــومْ
ـجرتـــك بنـــاتُ الغيـــوم ، فقـــد عـــانقني بنـــات الجحـــيم
ب الـــدهر في مَ ســـمعيْك نحيـــبَ الـــدجى ، وأنـــينَ الأمَـــلْ
ـــد أجّـــج الـــدهر في مهجتـــي ـــواظاً مـــن الحَـــزَن المشـــتعل
، أرشـــفتْك شـــفاهُ الحيـــاة ـابَ الأســـى ، ورحيـــقَ الألمْ
إنيِّ تجرّعـــتُ مـــن كفهـــا ِســـاً ، مؤجَجَـــةً ، تضـــطرم

❋ ❋ ❋

أصـيخي ! فـما بـين أعشـار قلبـي ـــرفّ صـــدى نوحـــك الخافـــت
معيـــداً عـــلى مهجتـــي بحفيـــف ناحيـــه صـــوتَ الأســـى المائـــت
ـــد أتـــرع الليـــلُ بالحـــب كـأسي وشعشـــعها لهيـــب الحيـــاهْ
ـــرَّ عنـــي مـــن ثُمالاتِـــه ـرارةَ حـــزن ، تُـــذيب الصـــفاهْ
يَّ ! تمـــد وحّـــدت بيننـــا ســـاوةُ هـــذّا الزمـــان الظلـــومْ
ـــرتْ فيَّ هـــذِي الكلـــومَ كـــما فجّـــرت فيـــكِ تلـــك الكلـــوم

❋ ❋ ❋

ِتنـــي أكـــفُّ المنـــون إلى اللحْـــد ، ســـحقتك الخطـــوبْ
فحزنـــك لا يبرحـــان ألِيْفـــين رغـــم الزمـــان العصـــيب
ـــتَ رواقَ الظـــلام الكئيـــب ـــمَل الكـــونَ روحُ الســـحَرْ
ـمَعُ صـــوتٌ ، كلحـــن شـــجيّ ـايَرَ مـــن خَفَقـــات الـــوتر
ـردِّدُه حُزنُنـــا في ســـكون ـلى قبرنـــا ، الصـــامت المطمـــئن
رقُـــد تحـــت الـــتراب الأصـــمِّ جميعـــاً عـــلى نغـــماتِ الحـــزَنْ

قصائد عام ١٩٢٧

وعددها إحدى عشرة قصيدة:

- يا شعر.
- السآمة أو الملل الأليم.
- الدموع.
- المجد.
- جدول الحب.
- الذكرى.
- إلى الطاغية.
- أغنية الأحزان.
- أيها الليل.
- الحب.
- سر مع الدهر.

يا شعر

نظر الشعر القصيدة بتاريخ ١٨/ ١/ ١٩٢٧

ا شـــعرُ أنْــــتَ فــــمُ الشـــعور ، ورخـــةُ الـــروح الكئيـــبْ
ـــا شـــعر أنـــت صـــدى نحيـــب القلـــب ، والصـَّـــب الغريـــب

* * *

ـــا شـــعر أنـــت مـــدامعٌ علِقـــتْ بأهـــداب الحيـــاة
ـــا شـــعر أنـــت دمٌ ، تفجـّـــر مـــن كلـــوم الكائنـــات

* * *

يـــا شـــعر ! قلبـــي - مـــثلما تـــدري - ـــقيٌّ ، مظلـــمُ
ـــه الجـــراحُ ، النجـْــلُ ، يقطـــر مـــن غاورهـــا الـــدمُ

* * *

جمـــدت عـــلى شـــفتيه أرزاء الحيـــاة العابســـه
ـــو التعـــيسُ ، يذيبـــه نـــوح القلـــوب البائســـهْ

* * *

ـــداً ينـــوح بحرقـــة ، بـــين الأمـــاني الهاويـــهْ
بلبـــل الغرِّ يـــد مـــاً بـــين الزهـــور الذاويـــهْ

* * *

ـــمْ قـــد نصـــحتُ لـــه بـــأن يســـلو ، وـــمْ عزَّ يتُـــه
ـــأبى ، ومـــا أصـــغى إلى قـــولي ، فـــما أجْديتـــه

* * *

كـــم قلـــت: «صـــبراً يـــا فـــؤادُ ! كُـــفّ عـــن النحيـــبْ ؟»
«إذا تجلّـــدت الحيـــاةُ تبـــدَّدتْ شُـــعَلُ اللهيـــب»
«يـــا قلـــب ! ـــزع أمـــامَ تصـــلّب الـــدهر الهصـــورْ »
«إذا صرخـــتَ توجّعـــاً هزئـــت بصرخـتكَ الـــدهرْ »

* * *

«يـــا قلبـــت !؟ تســـخط عـــلى الأيــام ، فـــالزهر البـــديعْ »
«يصـــغي لضـــجات العواصـــف قبـــل أنغـــام الربيـــع»

* * *

«يـــا قلـــب ! تقنْـــع بشـــوك اليـــأس مـــن بـــين الزهـــورْ »
«ـــوراء أوجـــاع الحيـــاة عذوبـــةُ الأمـــل الجســـور»

* * *

«يـــا قلـــب ! تســـكبْ دموعَـــ بالفضـــاء فتنـــدمِ »
«ـــلى ابتســـامات الفضـــاء قســـاوةُ المـــتهكّمِ »

* * *

كـــنَّ قلبـــي وهـــو –ـــلُّ الجوانـــب بالـــدموعْ –
شـــتْ بـــه الأحـــزانُ ، إذا طفحـــت بهـــا تلـــك الصـــدوع

* * *

ـــي عـــلى الحلـــم البعيـــد بلوعـــة ، لا تـــنجلي
ـــرِ داً ، كصَـــدَّاح الهواتـــف في الفـــلاً ، ويقـــول لي :

* * *

«ـــرْ كلومـــكَ بالـــدموع ، وخلِّهـــا ، وســـبيلَها»
«إن المـــدامع لا تضـــيع حقيرهـــا وجليلهـــا»

* * *

«ـــنَ المـــدامع مـــا تـــدْفعَ جارفـــاً حَسَـــك الحيـــاهْ »
«ْ مـــى لهاويـــة الوجـــود بكـــل مـــا يبنـــي الطغـــاهْ »
«ومـــن المـــدامع مـــا تـــألّق في الغياهـــب كـــالنجوم»
«ومـــن المـــدامع مـــا أراح الـــنفس مـــن عـــبء الهمـــوم»

* * *

رحَمْ تعاســـته ، ونُـــحْ معـــه عـــلى أحلامِ ـــهِ

ـد قضى الحلـــــم البـــديع عـــلى لظـــى آلامـــه

* * *

يـــا شـــعر ! ـــي الوجـــود الحــــي ، يـــا لُغَـــة الملائـــك
ـــر د ، فأيَّـــام ي أنـــا ـــي عـــلى إيقـــاع نايـــك

* * *

عـــلى ســـمع الـــدجى أنـــات قلبـــي الواهيـــه
اســـكب بأجفـــان الزهـــور دمـــوع قلبـــي الداميـــه

* * *

ـــل قلـــب الليـــل أرحـــم بـــالقلوب الباكيـــه
ـــل جفـــن الزهـــر أحفـــظ للـــدموع الجاريـــه

* * *

ـــم حركـــت كـــف الأســـى نـــار ذيـــاك الحنـــين
املـــت أحـــزان قلبـــي في أغاريـــد الأنـــين

* * *

م أرقـــت مـــدامعي ، حتـــى تقرحـــت الجفـــون
ـــم التفـــت ، فلـــم أجـــد قلبـــاً يقاســـمني الشـــجون

* * *

فعســـى يكـــون الليـــل أرحـــم ، فهـــو مـــثلي ينـــدب
وعســـى يصـــون الزهـــر دمعـــي ، فهـــو مـــثلي يســـكب

* * *

. قنعـــت كـــف المســـاء المـــوت بالصـــمت الرهيـــب
فغـــدا كـــأعماق الكهـــوف ، بـــلا ضـــجيج أو وجيـــب

* * *

يـــأتي بأجنحـــة الســـكون ، كأنـــه الليـــل البهـــيم

ـــن طيـــــف َ المـــــوت قـــــاس ٍ ، والـــــدجى طيــــف ٌ رحـــيم

* * *

ـــــا للمنيــــــة لا تـــــرق ّ عـــــلى الحيـــــاة النائحـــــه ؟
ـــــيّان أفئـــــدة تـــــئن ، أو القلـــــوب الصـــــادحه

* * *

ـا شِ ـــعر ُ ! ِ خ ُ ل ِ ـــق َ المَنـــون بـــلا شـــعور ٍ كـــالجماد ؟
ِ عشــــــة تعــــــرو يد َيـــــه إذا تملّقَــــــه الفُــــؤاد ؟

* * *

ـــــت َ أزهـــــار َ الربيـــــع ، وقـــــد ذوت ْ أوراقهـــــا
فهـــوت إلى صـــدر الـــتراب ، وقـــد قضـــت أشـــواقُها ؟

* * *

أرأيـــت شـــحرور الفـــلا ، مـــترنماً بـــين الغصـــون
ـــد النشـــيد ُ بصـــدره لمـــا رأى طيـــف َ المنـــون ؟

* * *

نضيـــ ، وقـــد غاضـــت أغاريـــد ُ الحيـــاة الطـــاهره ْ
رهـــوى مـــن الأغصـــان ، مـــا بـــين الزهـــور البـــاسره ْ ؟

* * *

ـــــت َ أم ّ الطفـــل تبكـــي ذلـــك الطفـــل َ الوحيـــد
ـــا تناولـــه ، بعنـــف ٍ ، ســـاعد ُ المـــوت الشـــديد ؟

* * *

ـــمعت ُ نَـــو ْح َ العاشـــق الولهـــان ، مـــا بـــين القبـــور
يبكـــي حبيبتَـــه ؟ فيالمصـــارع المـــوت الجســـور !

* * *

حـــت ْ بـــأعماق ، الوجـــود ســـكينة ُ الصـــبر الجليـــد

ـــــا رأى عـــــدل الحيـــــاة يضـــــمه اللحـــــدُ الكنـــــود

* * *

فتـــــدفقت لحنـــــاً ، يـــــردده عـــــلى ســـــمع الـــــدهور
ـــــوتُ الحيـــــاة بضـــــجة .. ، تســـــعى عـــــلى شـــــفة البحـــــور

* * *

ـــــا شـــــعرُ ! ـــــتَ نشـــــيدُ أمـــــواج الخضـــــم الســـــاحره
الناصـــــعات ؛ الباســـــمات ، الراقصـــــات ، الطـــــاهره

* * *

الســـــافرات ، الصـــــادحات مـــــع الحيـــــاة إلى الأبـــــد ؟
كعـــــرأمـــــل الضـــــحوك ، يَمـِ ـسْ ـــــنَ مـــــا طـــــال الأمَـــــد

* * *

ـــــا إن أزهـــــارَ الربيـــــع تبســـــمتْ أكمامُهـــــا
ـــــو إلى الشَّـــــفق البعيـــــدِ ، تغُرُّ هـــــا أحلامُهـــــا

* * *

صـــــدرها أمـــــلٌ ، يحـــــدِّق نحـــــو هاتيـــــك النجـــــوم
نـــــه أمـــــلٌ ، ســـــتلحده جبـــــابرةُ الوجـــــوم

* * *

فلســـــوف تغمـــــض جفنهـــــا ، عـــــن كـــــل أضـــــواء الحيـــــاة
ـــــث الظـــــلام مخُـَــيِّمٌ في جـــــو ذيـــــاك الســـــبات

* * *

ـــــا إنهـــــا همســـــت بـــــآذن الحيـــــاة غريـــــدَها
ـــــتْ عصـــــافيرُ الصـــــباح ، صدُ ـــــداحَها ونشـــــيدَها

* * *

ـــــا شـــــعرُ ! نـــــت نشـــــيد هاتيـــــك الزهـــــور الباســـــمهْ

يــــا ليتنــــــي مثــــــل الزهـــــور ، بـــــلا حيـــــاة واجمـــــه

* * *

ن الحيـــــــاة كئيبـــــــــةٌ ، مغمـــــــورة بـــــــــدموعها !!
شـــــمس ُ أضـــــجرها الأســـــى ، في صـــــحوها وهجوعهـــــا

* * *

ــــت كأســــاً د هاقــــاً ، مــــن مُشَعشَعــــعة الشَّــــفَق
لـــــت ْ ، سـَـــــكرى إلى كهــــف الحيــــاة .. تُفــِـــق

* * *

ـــا شـــعرُ !ـــــتَ نحيبهــــا لمّـــــاــــوَت ْ لسُــــباتها
ـــا شـــــعرُ أنــــتَ صدُــــداحها، في موتهــــا وحياتهــــا

* * *

انظـــــر إلى شـــــفق الســـماء ، يفـــيض عــــن تلــــك الجبــــال
بشــــــعاعه الخـــــلاب ، يغمرهــــــا ببســــمات الجـــمال

* * *

يثـــــير في الـــــنفس الكئيبــــــة عاصــــــفاً لا يركــــــدُ
ـــؤجِّج القلـــــــبَ المعـــــذَّبَ شـــــعلةً لا تخمـــــدُ

* * *

ــــا شـــعرُ ! أنـــــت جمـــــال أضــــواء الغـــروب الســــاحره
ـــا همــــسَ أمــــواج المســــاء ، الباســــمات الحـــائره

* * *

ـــا نـــــايَ أحلامــــي الحبيبـــــة !ـــا رفيـــقَ صَـــــبابتي
ـــــولاكَ مـــــتُّ بلـــــوعتي ، وبشـــــقوتي ، وكــــآبتي

* * *

َ انطـــوتْ نفسيـــــ ، وفيـــكَ نفخـــتُ كـــلّ مشـــــاعري

إلى الطاغية[1]

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ ١٨/ ٢/ ١٩٢٧ .

يقولــون: «ـوت المستذَلِّين خافـتٌ   وسمع طغاة الأرض (ش ُ) نـخمُ»
ي صيْحة الشعب المسخَّر زعزعٌ   لها شمٌّ العروش، وتهُ ْـدَمُ
ولعلعة الحق الغَضوب لها صدى   دمدمة الحرب الضروس لها فمُ
ا التفَّ حول الحق قوم فإنَّه   ـمُ أحداثَ الزمان ويُبر ْم

* * *

ـل يا صر َ ْح َ المظالم من غد   ذا نهض المستضعفون ، وصمَّموا !
ذا حطَّم المستعبَدون قيودَهم   ِصبُّوا حميم السخط أيَّان تعلم .. !
أ َّك أن الشعب مُغْض على قذى   فضاء الر َّح ْب َ وسنانُ ، مظلم؟
إنَّ أحلامَ البلاد دفينةٌ   تجمجم في أعماقها ما تجمجم
كن سيأتي بعد لأ ْي نشورها   وينبثق اليوم الذي يترنم
هو الحق يُغفي ... ثم ينهض ساخطاً   ـدمُ ما شاد الظِّلام، ويحطمُ
ـر ّو ْعِ ، إن هبَّ الضعيفُ ببأسه   نعلم من م نَّا سيجرفه الدّمُ
ـث تجني كفّه بذرَ أم ْس ه   َزدَرعُ الأوجاعِ لا بد يندم
ـتجرع أوصابَ الحياة، وتنتشي   فتصغي إلى الحق الذي يتكلم
إذا ما سقاك الدهر من كأسه التي   ها صابٌ م َريرٌ ، وعلقم
إذا صعق الجبار تحت قيده   يصيخ لأوجاع الحياة ويفهم !!

(١) وردت عند محمد كرو بعنوان: لعلعة الحق.

السامة

أو: الملل الأليم

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ ١٩/ ٣/ ١٩٢٧

ئمتُ الحيــــاةَ ومــــا في الحيـــاة ... ا إن تجــاوزتُ فجــرَ الشــباب
ـــئمتُ الليـــالي وأوجاعَهـــا ... ا شعشــعتْ مــن رحيــق بصــاب
فحطّمـــت كـــأسي ، وألقيتهـــا ... ـوادي الأســى وجحــيم العــذاب
ـــتْ وقـــد غمرتهــا الـــدموعْ ... ـرّت وقــد فــاض منهــا الحبــاب
وألقـــى عليهـــا الأســى ثوبَـــه ... قبرهـــا الصـــمتُ والاكتئـــاب
فـــأين الأمـــاني وألحانهــــا ؟ ... وأيـــن الكـــؤوس ، وأيـــن الشــراب ؟
ـــد ســحقتها أكُـــفٌ الظـــلام ... وقـــد رشـــفتها شـــفاه الســراب
فـــما العـــ في حومـــة ، بأســـها ... شـــديد ، وصـــداحها لا يجـــاب !
كئيـــب ، وحيـــدٌ بآلامـــه ... وأحلامـــه ، شـــدوه الانتحـــاب
ذوت في الربيــــع أزاهيرهـــــا ! ... ـنمـــت وقـــد مصـــهنّ الـــتراب
ـ ينَ النحـــورَ عـــلى ذ لّـــة ... ومـــتن وأحلامهـــن العـــذاب
فحـــال الجـــمال ، وغـــاض العبـــير ... ذوى الـــردى جفـــن تلـــك الكعـــابْ



أغنية الأحزان

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ ٢٦/ ٤/ ١٩٢٧

ـــي أنشـــودة الفجـــر الضـّ ـــحوكْ
ـهـــــا الصـــــداحْ !

ـــد جرّ عنـــي صـــوتُ الظـــلام
لَـــاً علّمنـــي كـــره الحيـــاةْ
قلبـــي مـَــلّ أصـــداء النـــواح
نـنـــي ، يـــا صـــاحْ !

طّمــــت كـــف ّ الأســـى قيثـــارتي
في يــــــــد الأحــــــــلام

ـــت صدَ ـــمتاً ، أناشـــيدُ الغـــرامْ
بـــين أزهـــار الخريـــف الذاويـــه
وتلاشـــت في ســـكون الاكتئـــاب
صــــــدى الغرّ يـــــــد

* * *

ـف ٍّ عـــن تلـــك الأغـــاني الباســـمهْ
بهـــــــا العصــــــــفورْ !

ـاتي ألِ فَــــتْ لحـــنَ الأســـى
مـــان قـَـد تقضى ّ ــ ، وعَسَ ـــى
أن يثـــير أُـــدوُ ، في صـــمت الفـــؤادْ
نّــــــــةَ الأوتــــــــار

* * *

' تغنينـــــي أغاريــــد الصـــباحْ
ـــــــــلَ الأفــــــــراح !

ففـــؤادي وهـــو مغمـــور الجـــراح
تبـــاريح الحيـــاة الباكيـــهْ
ـيس تســـتهويه ِ ألحـــان الســـرور
وأغـــــــاني النــــــور

* * *

مَ ـــنْ أصـــغى إلى صـــوت المَنـــون
وصـــــــدى الأجــــــداث

ـيس تســـتهويه ألحـــانُ الطيـــورْ
ـــين أزهـــار الربيـــع الســـاحرهْ

ِابتســـامات الحيـــاة ، السـافره ْ
عـــــن حــــــلال الله

❊ ❊ ❊

ي يــا صــاحِ ، أنــاتَ الجحــيم ْ
واســــــقني الآلام

ـرِ ع الكــأس َ بأوجــاع الهمــوم
ــقني ، إني ّ كرهــت ُ الابتســام
نــي نــدب َ الأمــاني الخائنــه
والليـــــالي الســـــود

❊ ❊ ❊

نــي صــوت الظــلام المكتئــب ْ
نـنـــي أهــــواه ْ

ــاكَ كــأس القلــب فاملأهــا نُــواح
ـكب الحـُـزنَ بهــا حتَّــى الصبــاح ْ !
إنهــا مــن طينــة الحــزن المَريــر
صـــاغها الخَــــلاق

❊ ❊ ❊

بئســ الأفــراح ُ ، أفــراح الحيــاة
إنهــــا أحــــلام

ب اللــب بألحــان عــ ــذاب ْ
ِأغاريــدَ ، كــأملاكَ الســما
ــم لا تلبــث أن تــذوِ ي كــما
ـــــذبل الأزهــــار ْ

❊ ❊ ❊

ر ٍّ يني ، ما الذي خلف الغيوم ...؟
ـــــــــــةَ الأحــــــــــلامْ

ى الهــول ، وجبَّــارُ الهمــوم ؟
روسُ الأمَـلِ العـذبِ الشـرود
تتهــادى بــين لألاء الصَباح ؟
مَ ـــــــلاك النــــــور

* * *

أنــا في درب الحيــاة الغامضــة
ائـــــــهٌ ، حـــــــيران

يـــنما أبصرـــ في وجـــه الحيـــاهْ
لمـــةَ الأحـــزان في ظـــل الألمْ
ذ أرى في جفنهـــا نـــوراً ، بـــديْع
اســـــــماً ، فتَّــــــانْ

* * *

هـــا أنـــا أســـمع في قلـــب الحيـــاة
صـــــــــــــيحةَ الآلام

ر ّةً تنســاب ، مــن قلــب حطــيم
ــلأ الحــزنُ أقاصــيه دمــوعْ
هــا أنــا أســمع أصــوات السرــور
ـــــــت ِ الأيـــــــام



الدموع

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ ١٩٢٧/٦/٢٠، ويبوح فيها بنوع من الشقاء الوجودي ويعترف بتنازعه بين قوى الخير والشر.

ي العيش بين شوق ويأس ... ى بين لوعة وتأسي
كذا سُنّة الحياة ، ونفسي ... روم الرحيق في كأس رجس
لىء الدهر بالخداع ، فكم قد ... ى الناس من إمام وقس !
ما أسأل الحياة عن الحـ ... ، تكف الحي عن كل همس
م أجد في الحياة لحناً بديعاً ... ستبيني سوى سكينة نفسي
ئمت الحياة ، إلا غراراً ... تلاشى به أناشيد يأسي

* * *

اولتني الحياة كأساً دهاقاً ... لأماني ، فلما تناولت كأسي
وسقتني من التعاسة أكوا ... اً تجرعتها ، فيا شد تعسي !
في روضة الحياة لأشوا ... ، بها مزقت زنابق نفسي
ضاع أمسي ! وأين مني أمسي ! ... الدهر أن أعيش بيأسي !
ضى الحب في سكون مريع ... الموت ، بين سخط وبؤس
تخلف لي الحياة من الأمـ ... سوى لوعة تهب وترسي !
ادى ما بين غصات قلبي ... سكون ، وبين أوجاع نفسي
ال من عالم الموت ينسا ... مت ، ما بين رمس ورمس

* * *

ك أوجاع مهجة عذبتها ... يم الحياة أطياف نحس
ك أحلام غور روح كئيب ... ه العيش : ن نعيم وبؤس (١)

أيها الليل

نظم الشاعر قصيدته بتاريخ ٢٤/٦/١٩٢٧

ا الليل ! يا أبا البؤس والهو ... ! يا هيكل الحياة الرهيب

(١) البيت غير موجود في الديوان.

تجثو عرائس الأمل العذب ، تصلي بصوتها المحبوب
ير النشيد ذكرى حياة تها غيوم دهر كئيب
ترف الشجون من حول قلبي كون وهيبة وقطوب
أنت يا ليل ! عدت للكون من موطئ الجحيم الغضوب
الليل ، أنت نغم شجي شفاه الدهور ، بين النحيب
ودة السكون التي ترتج في صوت لك الركود الرحيب
سمع النفس في هدوء الأماني ة الحق والجمال الخلو،
وغ القلوب منها أغاريد تهز الحياة هز الخطوب
و ى الحياة من ألم البؤس ، فتبكي بلوعة ونحيب
سم عيك تنهل نوحا ويلا مر ا شجون القلوب
أرى برقعا شفيفا من الأو اع ، يلقي عليك شجو الكئيب
ى في السكون أجنحة الجـ ار ، مخضلة بدمع صبيب
فلك الله ! ن فؤاد رحيم ك الله من فؤاد كئيب
ع الكون في طمأنينة العصفور ، ط فلا بصدرك الغريب
اذ لك الرحيمة يستيقظ في نضرة الضحوك الطروب
شاديا كالطيور بالأمل العذب ، جميلا كبهجة الشؤبوب
ا ظلام الحياة ! يا روعة الحزن ! ا م عز ف التعيس الغريب !
ك الكئيب لمرتادا لأحلام كل قلب كئيب
ارة السكينة في كفيك تنهل رنة المكروب
يك تنمو زنابق الحلم العذب ، وتذوي لدى لهيب الخطوب
ف أعماقك الكئيبة تنساب لال الدهور ذات القطوب
يك في ضفائرك السود تدب الأيام أي دبيب

* * *

صاح ! ن الحياة أنشودة الحزن ، فرتل على الحياة نحيبي
أس الحياة مترعة بالدمع ، فاسكب على الصباح حبيبي

نَّ وادي الظـــلام يطفـــح بـــالهول ، فـــما أبعـــدَ تســـامَ القلـــوب !
ـَّ نّـــك ابتســـامُ بنـــي الأرض ، فخلـــفَ الشـــعاع لـــذعُ اللهيـــب
ـت تـــدري أن الحيـــاة قطـــوبٌ وخطـــوبٌ ، فـــما حيـــاةُ القطـــوب ؟
نيبـــةِ الـــدهور ، تباعـــاً ، لخطيـــبٌ يمـــر إثـــرَ خطيـــب

* * *

ـدَّدتْ في ســـكينة الكـــون للأعـــماق نفسيـــ لحظـــاً بعيـــدَ الرســـوب
ـرةً مزقـــت شـــغافَ الليـــالي فـــرأتْ مهجـــةَ الظـــلام الهيـــوب
تْ في صـــميمها لوعـــةَ الحـــزن ، وأصـــغتْ إلى صراخ القلـــوب
ْ أن تنكـــرَ الشـــجوَ إني قـــد خـــبرتُ الحيـــاة خَـــبرْ لبيـــب
ـــتُ بالســـكينة ، والضـــجّة ، بـــل قـــد كرهـــتُ فيهـــا نصـــيبي ...
كـــن كـــما شـــاءت الســـماء كئيبـــاً يء يسرّ نفـــس الأديـــب ؟
أنفـــوس تمـــوت ، شاخصـــة بـــالهول ، في ظلمـــة القنـــوط العصـــيب ؟
وبٌ محطـــماّت عـــلى ســـاحل لـــجٍّ الأســـى ، بمـــوج الخطـــوب ؟
ا النـــاسُ في الحيـــاة طيـــور قـــد رماهـــا القضـــا بـــواد رهيـــب
ـصـــفُ الهـــول في جوانبـــه الســـود ، فيقضيـــ عـــلى صـــدى العنـــدليب

* * *

ـد ســـألتُ الحيـــاةَ عـــن نغمـــة الفجـــر ، وعـــن وجمـــة المســـاء القطـــوب
ـــمعتُ الحيـــاةَ في هيكـــل الأحـــزان تشـــدو بلحنهـــا المحبـــوب :
ا ســـكوتُ الســـماءِ إلا وجـــوم ـــا نشـــيد الصـــباح غـــيرُ نحيـــب
لـــيس في الـــدهر طـــائر يتغنّـــى ضـــفاف الحيـــاة غـــير كئيـــب
خضـــب الاكتئـــاب أجنحـــةَ الأيـــام بالـــدمع ، والـــدم المســـكوب
عجيـــبٌ أن يفـــرح النـــاس في كهـــف الليـــالي ، بحزنهـــا المشـــبوب !

* * *

ـت أُرنـــو إلى الحيـــاة بلحـــظ ـــم ، والرجـــاء دونَ لغـــوب
اك عهـــدٌ حســـبته بســـمة الفجـــر ، ولكنـــه شـــعاع الغـــروب

ـك عهـــد ، كأنـــه رنّـــة الأفـــراح تنســـاب ُ مـــن فـــم العنـــدليب
ـــت ريـــثما أصـــخت ُ لهـــا بالقلـــب حينـــاً وبُـــدِّلت ْ بنحيـــب
ـن خمـــر َ الحيـــاة ورديـــة اللـــون ولكنهـــا ســـموم القلـــوب

❊ ❊ ❊

ـــت ْ مـــن قـــرارة القلـــب أحلامـــي إلى اللحـــد ، جـــائرات الخطـــوب
ـــت ْ عـــلى تخـــوم الليـــالي وتهـــاوت ْ إلى الجحـــيم الغضـــوب
ـوى في دُجْنـــة الـــنفس مـــض ٌ زل ْ بـــين جيئـــة وذهـــوب
ْ تمـــيس ُ في ظلمـــة الـــنفس ، ضـــئالاً كرائعـــات المشـــيب
ـــب ٌ تجـــرَّع اللوعـــة المـــرة مـــن جـــدول الزمـــان الرهيـــب !
ـ ْ في صـــميمه شـــعلةُ الحـــزن ، فغشّـــته مـــن شـــعاع اللهيـــب

المجد

نظم الشاعر الأبيات في غرة الشهر الثامن عام ١٩٢٧.

ـود الفتـى لـو خـاض عاصـفة الـردى ـيس المَجْـرَ والأسـدَ الـوَرْدا
ليـدرك أمجـاد الحـروب ، ولـو درى نيقَتَهـا مـا رام مـن بيْنهـا مجْـداً
لمجـد في أن تُسـكِر الأرض بالـدِّما ـب في هيجائهـا فرَسـاً نهْـدا
كنـــه في أن تصـــدَّ بهمِّـــ عالم المرزوء ، فيْض الأسـى صدّا

الحب

نظم الشاعر قصيدته بتاريخ ٢٨/ ٨/ ١٩٢٧.

ٌّ شـعلة نـور سـاحر ، هبطـت ْ ن السـماء ، فكانـت ْ سـاطعَ الفلَـق
ـت عـن جفـون الـدَّهر أغشـيَةً عـن وجـوه الليـالي بُرقَـع الغسـق
ـــب روح ٌ إلهـــيٌّ ، مجنّحـــةٌ يامُـــه بضـــياء الفجـــر والشـــفق

يـــوف في هـــذه الـــدنيا ، فيجعلهـــا جمـيلاً ضـحوكاً ، جـدَّ مؤْتَلِـقِ
مـا سُـمِعتْ في الكـون أغنيـةٌ ـآلفَ في الـدنيا بَنُـو أُفُـقِ
، ٌّ جـدولُ خمـرِ ، مـن تذوَّقـه ن الجحيمَ ، ولم يُشْفِق من الحـرقِ
الحـب غايـة آمـال الحيـاة ، فـما إذا ضـمَّني قـبري ؟ ومـا فَرَقـي ؟

جدول الحب
بين الأمس واليوم

نظم الشاعر قصيدته بتاريخ ٣٠/ ٨/ ١٩٢٧

الأمس قـد كانـتْ حيـاتي كالسـماء الباسـمهْ
قـد أمسـتْ كـأعماقِ الكهـوفِ الواجمـهْ

* * *

ـد كـان لي مـا بـينَ أحلامـي الجميلـة جـدولُ
يجـري ـه مـاء المحبـة طـاهراً يتسلسـلُ

* * *

تسـعى بـه الأمـواج باسـمة كـأحلام الصـبا
ضـاءَ ناصـعة ، ضـحوكاً مثـل أزهـار الربـى

* * *

سـة كعـرائس الفـردوس بـين حقولـه
ـو أناشـيدَ الهـوى في مَـدِّه وقُفولـه

* * *

هـو جـدول الحـب الـذي قـد كـان في بـي الخضـلْ
بمراشـف الأحـلام – منطلقـاً – ـير عـلى مهـلْ

* * *

تلـو عـلى سـمعي أغاريـدَ الحيـاة الطـاهره

ـــير ُ في قلبـــــي أناشـــــيدَ الخلـــــود ِ الســـــاحره

❋ ❋ ❋

ـف ُ العـــذارى الخالـــدات ُ ...ئس ُ الشـــعر ِ البـــديع ْ
ضــــــفتيه، م ُـــــرد ِّدات نغمـــــة الحلـــم البَـــديع ْ

❋ ❋ ❋

ـنَ مــــن قيثـــارة ِ الأحـــــلام أوتـــارَ الغـــزل ْ
ُ ألحــــانُ الصــــبابَة ِ عذبــــةً مثـــلَ الأمـــــل ْ

❋ ❋ ❋

ـير ُ بالبســَـــــمات ِ والأنغــــام ِ أجنحـــــةُ الصــــدى
ك الأفـــق ُ الجميــــل ِ وذلـــكَ النّســَـــم ِ الر ّخـــا

❋ ❋ ❋

ـاك حيـــث ُ تُعـــانق ُ البســـمات ُ أَـــانَ الغـــزل ْ
ـل ُ الحلـــم ُ الجميـــل ُ .. ِ القلـــب ِ الثّم ِ ـــل ْ

❋ ❋ ❋

ِ جـــدول ، قـــد فجَّـــرت ْ ينبوعَـــه في مهجتـــي ْ
ـــــانُ فاتنـــــة ٍ أرتنيهــــا الحيـــــاةُ لشــــقوتي ْ

❋ ❋ ❋

ـانُ فاتنـــــة ِ تــــراءت لي عـــلى فجـــر الشــــباب ْ
مــــن غانيـــاتٍ ِ الشـــعر ِ في شَـــفَق ِ الس ّـــاب ْ

❋ ❋ ❋

ـــت ْ خلـــفَ الســـماء ِ وراءَ هاتيـــكَ الغيـــوم ْ
عـــذارى الخالـــدات ُ يَم ِ س ْـــنَ مــا بــينَ النجـــوم ْ

❋ ❋ ❋

م ّ اخفـــــت ْ ، أو ّاه طــــائرةً بأجنحـــــة المنــــون ْ

وَ السـمـاء ، وهــا أنــا في الأرضِ تمثــالُ الشــجونْ !

❋ ❋ ❋

قــد كــان ذلــك كلُّــه بــالأمس !ــالأمس البعيــدْ
س قــد جرَفتْــهُ مقهــوراً يــدُ المــوت العنيــد !!

❋ ❋ ❋

ـان ذلــك تحــتَ ظــلّ الأمــسِ والمــاضي الجميــلْ
ـانَ ذلــكَ في شــعاعِ البــدرِ مــن قبــلِ الأفــولْ

❋ ❋ ❋

إذ زالــتْ ظــلالُ الأمــسِ عــن زهــري البــديعْ
ـبَ الزهــرُ الجميــل بظلمــةِ الليــل المريــعْ

❋ ❋ ❋

ـْ مراشــفُه ، فأصــبحَ ذاويــاً ، نضــوَ الكلــومْ
ـوى لأنَّ الليـــلَ أســـمعهُ أناشـــيدَ الوجـــومْ

❋ ❋ ❋

مسِ قـــد كانـــتْ حيـــاتي كالســـماءِ الباســـمهْ
ـوم قـــد أمســـتْ كـــأعماقِ الكهـــوف الواجمـــهْ

❋ ❋ ❋

ـــبح النبـــعُ الجميـــلُ يســـيرُ في وادي الألم
ـراً بـــينَ الصـــخورِ يغـــورُ في تلـــك الظُّلـــمْ

❋ ❋ ❋

ـْ بـــه أمـــواجُ ذيّـــاكَ الغـــرامِ الآفـــلِ
ـدفّقتْ فيـــه الـــدموعُ بصـــوبها المتهاطـــلِ

❋ ❋ ❋

ـ حجّبتْـــه غيـــومُ أحـــزانِ الوجـــود القاتمـــهْ

ـ أخرســـتهُ مـــرارةُ القلـــبِ التعـــيسِ الظالمـــهْ

* * *

ـت عـــلى شـــفتيْه أنغـــامُ الصـــبابة والهـــوى

ـــت أغـــاني الحـــبِّ في أعماقِـــهِ لمَّـــا هـــوى

* * *

تْ بـــه الأمـــواجُ جامـــدةَ الملامـــحِ قاتمـــهْ

ـــد أســـكتتها لوعـــةُ الـــروح الحـــزين الواجمـــهْ

* * *

ـــتْ أمانيهـــا وغـــار بهـــا الجـــمالُ الســـاحرُ

فأصـــابها - لهفـــاً عليـــه - اكتئـــاب الكـــافرُ

* * *

فتّيه عـــرائسُ الأشـــعارِ تنصـُــبُ مأتمـــاً

رقْنَ فيـــه الـــدمعَ ، حتـــى يلطـــمَ الـــدمعُ الـــدما

* * *

ـــيلُ الـــدمع الـــدامي لقلـــب الجـــدولِ

بـــثُ المـــرارةُ لأســـى بـــين الزهـــور الـــذُّبّلِ

* * *

َ حتـــى يُفعـــمَ الآفـــاقَ صـــوتُ الانتحـــابْ

ـــداءُ النياحـــةِ نحـــوَ أطبـــاقِ الضـــبابْ

* * *

اك مـــا بـــينَ الضـــبابِ الأقـــتمِ الســـاجي الكئيـــبْ

ـــزٌّ آلامـــي وتخـــتلجُ الكآبـــةُ ، والنحيـــبْ

سر مع الدهر

نظم الشاعر الأبيات بتاريخ ٧/ ٩/ ١٩٢٧ وهي أبيات في الحكمة.

ر مع الـدهر ، لا تضـدنَّك الأهـوال ، أو تفزعنَّـك الأحـداثُ
مـع الـدهر ، كـيفما شـاءَت الـدنيا ، ولا يخـدعنّك النفَّـاثُ
، يرهـبُ الحيـاة شـقيٌّ ، سـخرت مـن مصيره الأجـداثُ



الذكرى

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ ٢٤/ ١١/ ١٩٢٧.

ـا كزوجـيْ طـائر ، في دوْحـة الحـب الأمـينْ
نتلـو أناشـيد المنـى بـين الخمائـل والغصـون
ـرِّ دَيْن مـع البلابـل في السـهول وفي الحـزون
ـلأَ الهـوى كـأس الحيـاة لنـا ، وشعشـعها الفُتـون
ـى إذا كـدنا نُرشِّـفُ خمرهـا ، غضـب المنـون
طَّـف الكـأسَ الخَـوبَ ، وحطَّـم الجـام الثمـين
وأراق خمـر الحـب في وادي الكآبـة والأنـين
ـاب بالحـبِّ الوديـع ، فـودَّع العُـشَّ الأمـين
ـدا بلحـن المـوت في الأفُـق الحـزين المسـتكين
ثـم اختفـى خلـف الغيـوم ، كأنـه الطيـف الحـزين ...

* * *

ـا أيهـا القلـب الشـجيّ ! إلام تخرسـك الشـجون
حمـاكَ قـد عـذّبتني بالصـمت والـدمع الهتـون
ـات الحبيـب ، وكـل مـا قـد كنـتَ ترجـو أن يكـون !
ـبرْ عـلى سـخط الزمـان، ومـا تصرّفـه الشـؤون

ــو ْف َ يُنقــذك المنــون ، ويفــرح الــروح الســجين ..

* * *

لحيـــاة م ُر َ نَّــــق ٌ ، والمـــوت مـــورده م َعـــين
لــربَّ شـــاق الــردى الـــداجي، وأعـــماق ُ المنـــون
ــا ، ترو ِّعـــه الحيـــاة ، ولا تهـ ُادنـــه السـ ِّـــنون
ـاعراً حسر ْ َـــى ، يســير ُ بهـــا القنـــوط إلى الجنـــون



قصائد عام ١٩٢٨

وعددها أربع عشرة قصيدة:

• الطفولة.	• قالت الأيام.
• المساء الحزين.	• بقايا الخريف.
• أغنية الشاعر.	• في فجاج الآلام.
• مناجاة عصفور.	• يا رفيقي.
• إلى الموت.	• إلى عازف أعمى.
• صوت تائه.	• قبضة ضباب.
• في ظلال الغاب أو نشيد الأسى.	• قلت للشعر.

الطفولة

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ ٥/ ١/ ١٩٢٨.

لله مـــا أحـــلى الطفولـــة ! إنهـــا حلـــم الحيـــاة
عهـد كمعســول الــرؤى مـا بـين أجنحـة السبات ...
ترنـــو إلى الـــنيا ، ومـــا فيهـــا بعـــين باســـمه
وتســـير في عـــدوات واديهـــا بـــنفس حالمـــه ...
* * *
، الطفولـــــة تهتـــز في قلـــب الربيـــع
يَّانـــة مـــن ريـــق الأنـــداء في الفجـــر الوديـــع
غنَّـــت لهـــا الـــدنيا أغـــاني حبِّهـــا وحبورهـــا
نـــأو دت نَشـــوى بـــأحلام الحيـــاة ونورهـــا
* * *
إن بولـــة حقبـــة شـــعر يَّة بشـــعورها
ودموعهـــا ، وسرورهـــا ، وطموحهـــا ، وغرورهـــا
نـــش في دنيـــا الكآبـــة ، والتعاســـة ، والعـــذاب
ـترى عـــلى أضـــوائها مـــا في الحقيقـــة مـــن كـــذاب



قالت الأيام

نظم الشاعر قصيدته بتاريخ ٢٨/ ١/ ١٩٢٨، يعبر فيها الشاعر عن إيمانه بغلبة الحق وانتصار الحرية.

ـــا أيهـــا الســـادر في غَيِّـــه !
ـــا واقفـــاً فـــوق حطـــام الجـ بـــاه !
مهـــلاً ! ففـــي أنّـــات مـــن دســـتَهم

ـــــوتٌ رهيـــــبٌ ســــوف يـــــدوي صـــــداه ...
* * *
تـــــأمننَّ الــــــدهر ، إمَّـــــــا غفـــــا
كهفـــــــه الـــــــداجي ، وطالــــــــت رُؤاه
ـــــإن قضى ـــــ اليـــــومُ ومــــــا قبلـــــه
ـــــي الغـــــد الحـــــيِّ صـــــباحُ لحيـــــاهْ
* * *
يـــــا أيهــــــا الجبــــــار ! لا تــــــزدري
ـــــالحق جبَّـــــارٌ ، طويـــــل الأنـــــاهْ
غفـــــــى ، وفي أجفانـــــــه يقظـــــــةٌ
رنـــــو إلى الفجـــــر الـــــذي لا تـــــراهْ ...

المساء الحزين

نظم الشاعر قصيدته في ٢٠/ ١/ ١٩٢٨.

ل الوجـــــودَ المســـــاء الحـــــزين ، وفي كفـــــه م عـــــزف لا يُبـــــينْ
في ثَغـــــره بســـــمات الشـــــجون ، وفي طرفـــــه حسرـــــات الســـــنين
صـــــدره لوعـــــة لا تَقَـــــرّ ، وفي قلبـــــه صـــــعقات المنـــــون
ـه قـــــبَلاً صـــــامتات ، كـــــما يلـــــثمُ المـــــوتُ وَرْدَ الغصـــــون
وأفضى ـــــ إليـــــه بـــــوحي النجـــــوم ، وسر الظـــــلام ، ولحـــــن الســـــكون
ـــــى إليْـــــه مـــــزاميرَه ، فغنَّـــــتْ بهـــــا في الظـــــلام الحَـــــزُون
ـه كيـــــف تأْسَـــــى النفـــــوس ، ويقضي ـــــ يُؤوســـــاً لـــــديها الحنـــــين
ســـــمعه صرخـــــات القلـــــوب ، وأنهلـــــه مـــــن سُـــــلاف الشـــــؤون -
ـــــأغفى عـــــلى صـــــدره المطمـــــئن ، وفي رُوحـــــه حلـــــم مســـــتكين
، غلـــــوبٌ ، كســـــحر الجفـــــون ، شـــــجيٌّ ، لعـــــوبٌ ، كزهـــــر حـــــزين

ـــكوكٌ ، وقـــد بلّلتـــه الـــدموع ، طـــروبٌ ، وقـــد ظلّلتْـــه الشـــجون
تعانقـــه ســـكرات الهـــوى ، وتحضـــنه شـــهقات الأنـــين
ـــابُه رُوحَ الشـــباب الجميـــل إذا مـــا تـــألّق بـــين الجفـــون
أعـــاد لنفسيـــ خيـــالاً جمـــيلاً ... لقـــد حجبتـــه صروف الســـنين
فطافـــت بهـــا هجســـات الأســـى ، وعـــادت لهـــا خطـــوات الجنـــون
ـــلّ الفضـــاء جنـــاحُ الغـــروب ، فـــألقى عليـــه جمـــالاً كئيـــب
ه حلّـــةً مـــن جـــلال ، شـــجيٍّ ، قـــويٍّ جميـــل ، غلـــوبْ
نامـــت عـــلى العشـــب تلـــك الزهـــورُ لمـــرأى المســـاء الحـــزين الرهيـــب
ـــت طيـــور الفضـــاء الجميـــل لأوكارهـــا ، فر حـــات القلـــوب
نـــد أضرمـــت بأغاريـــدها خيـــالَ الســـماء الفســـيح الرحيـــب
ّ رعـــاةُ السّـــوام إلى الحـــيزجونهـــا في صُـــمات الغـــروب
ـــو ، حنينـــاً لحُملانهـــا ، وتقطـــفُ زهْـــرَ المـــروج الخصـــيب
ـــم ينشـــدون أهـــازيجهم بصـــوت ، بهـــيج ، فَـــروح ، طـــروب
ـتمْنَحُونَ مـــزاميرهم ، فتمـــنحهم كـــلّ لحـــن عجيـــب
ـــير بـــه نســـماتُ الغـــروب إلى الشـــفق المســـتطير الخلـــوب
وتـــوحي لهـــم نظـــراتُ الصـــبايا أناشـــيد عهـــد الشـــباب الرطيـــب
ـل كـــلٌّ إلى أهلـــه ، ســـوى أمَـــلي ، المســـتطار ، الغريـــب
ـاه في مَعْسَـــبات الحيـــاة ، وسُـــدَّتْ عليـــه منـــاحي الـــدروب
ـــلّ شريـــداً ، وحيـــداً ، بعيـــداً ، يغالـــب عُنْـــف الحيـــاة العصـــيب
ـد كـــان مـــن قبـــلُ ذا غبطـــة ، يرفـــرف حـــول فـــؤادي الخصـــيب
* * *
ـا أظـــلَّ المســـاءُ الســـماءَ ، وأســـكر بـــالحزن روحَ الوجـــودْ
وقفـــت، وســـاءلته : «ل يـــؤوب لقلبـــي ربيـــعُ الحيـــاة الشرّ ـــود؟»
«ـــق فيـــه أغـــاني الـــورود ويخضرّ فـــردوسُ نفسيـــ الحصـــيد؟»
«تختـــال فيـــه عـــروس الصـــباح ، وتمـــرح نشْـــوى بـــذاك النشـــيد؟»

«ويرع لي من عراص الجحيم سلامُ الفؤاد، الجميلُ، العهيد؟»		
«ـد كبّلَتْـه بناتُ الظلام، وألقيْنَـه في ظلام اللحود؟»		
غى إلى هَفـي المستمرِّ، وخاطبني من مكان بعيد:		
«ـودُ ادِّكاراتُ ذاك الهوى، ولكنَّ سحر الهوى لا يعود»		
جاشتْ بنفسيـ مآسي الحياة، وسطُ القنوط القويُّ المَريد		
طغت عصَفات القنوطُ فمادتْ بكلِّ مكين، عتيد		
ـت بقلبي، الهلوع، الجزوع، وقد كان من قبلُ جلْداً، شديد:		
«ـدْ، ولا تستكنْ للّيالي، فما فاز إلاّ الصبورُ، الجليد»		
«تأْس َ من حادثات الدهور، فخلف الدياجير جرٌ جديد»		
«ولا غيومُ الشتاء الغضابُ		ـدَ الروضُ تلك الورود»
«ولا ظلام الحياة العبوسُ		نسجَ الصبحُ تلك البرودْ»



بقايا الخريف

نظم الشاعر قصيدته بتاريخ ٢٧/ ٢/ ١٩٢٨.

ـت القصورَ، وقطانهَا، وما حولهَا من صراع عنيفْ
يد الضعيف لعي القويِّ، وعصف القويِّ بجَهد الضعيف
اشت بنفسي دموع الحياة، وعجَّتْ بقلبي رياح الصروف
لقلب الفقير الحطيم، الكسير ودمع الأيامى السفيح الذريف
ـوْح اليتامى على أمهات، توارَيْنَ خلف ظلام الحتوف
ْـتُ إلى حيث تأوي أغاني الربيع، وتذوي أماني الخريف
ـث الفضاء شاعرٌ، حالمٌ، يناجي السهول بوحيٍ، طريف
د دثَّرته غيومُ المساء بظلٍّ، حزين، ضريج، شفيف
ين الغصون التي جرَّدتها ليالي الخريف، القويِّ العَسُوف
وحوْلي غديرٌ، مواتٌ، تمادتْ به غفَواتُ الكهول

ـت في حفافيْ تلك الزُّهور، فكفّنها بالصقيع الخريف
زهرة شقيتْ بالحياة، وملْبَثُها بالمُقام المخيف
ـها فيه قصفُ الرعود، ويحزنها فيه ندْبُ الزفيف
ـُا في الصباح السديمُ، وفي الليل حلمٌ، مريعٌ مخيف
ـبُها غاديات الغمام، وتؤْلمها كلُّ ريح عصوف
ـو لما حولها من زهور، وما تمَّ إلا السحيقُ، الجفيف
ـبكاء الغريب، الوحيد، بشجْو كظيم، ونَوْح ضعيف
ـاكي به لُبُّها المستطارَ، وترثي به ما طوته الحُتُوف
أساها بياضَ النهار، وتندُبُ حظَّ الحياة السخيف
لكنْ ـد فقدتْ في الوجود رفيقاً مُصيخاً، وقلباً رؤوف
ـما ثَمَّ إلا الصخورُ القواسي، وإلا الصدى المستطارُ الهتوف
دتْ بروح شقيٍّ، شجيٍّ، لقد عذّبته الليالي صنوف
ْ، وقد غادرتْها بقاع من الأرض ضَنْك، حياةُ الصروف
ـتْ حيالَ الغدير الأصمِّ، وقد أخرس الموتُ ذاك الحفيف
ـد خضّ ـبتْها غيومُ المساء، كغانية ضرَّجتها السيوف

فسألْها: «ترى كيف غاض الأريجُ ؟	ـف ذَوَى سحرُ ذاك الرفيف؟»
«ـف خَبَتْ بسماتُ الحياة	بأجفانها، وعراها الكسوف ؟»
«ـم لَوَتْ جيدَها الحادثاتُ	ـوَتْ بذاك القوام اللطيف ؟»
ـكرت بمضجعها المطمئنِّ	مرقدها في السَّفير الجفيف
ـصارعَ أماليَ الغابرات	ـخيْبَتَها في الصراع العنيف
ـتُ طرفي بمهْوَى الزهور	ـصعَّدته في الفضاء الأسيف
وقلت: «الكونُ مَهْدُ الجمال	ـكنْ لكل جمال خريف! ...»
وأرقتُ، أصغي لهمس الأسى	ـب النفسَ همٌّ كثيف
ـاضتْ ثُمالةُ نور النهار	ـرْخى ظلامُ الوجود السجوف



أغنية الشاعر

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ ٨/ ٣/ ١٩٢٨.

ا ربَّــةَ الشــعر والأحــلام ، غنِّينــي	ـئمتُ وجومُ الكون ، من حين
إن الليــالي اللــواي ضــمَّخت كبــدي	ـِّحر أضـحتْ مع الأيـام ترميني
ـتْ بنفسيـ مآسيها ، وما وجدتْ	ـاً عطوفـاً يُسـلِّيها ، فعزِّيني
ـَّ مـن خلَـدي نَـوْحٌ ، ترجِّعـه	ـوَى الحيـاة ، وأحـزانُ المسـاكين
عـلى الحيـاة أنـا أبكـي لشـقوتها	ـن إذا مـتُّ يبكيهـا ويبكينـي !
يـا رالشِّـعر ، غنِّيني ، فقد ضجرت	نفسيـ مـن النـاس أبنـاء الشـياطين
بر ّمــت ببنــي الــدنيا ، وأعوزهــا	، معــزف الــدهر غرِّيــد الأرانــين
ِاحـةُ الليْـل مـلأى مـن مدامعـه	وغــادة الحــب ثكــلى ، لا تغنِّينـي
ــل إذا لُــذْت بــالظلماء ، منتحبـاً	ـلو ؟ ومـا نَفْـعُ محـزون لمحـزون؟
يـا ربـة الشـعر ! ائسٌ ، تعـسٌ	متُ مـا أرتجـي في العـالم الـدون
ــديْك مــزاميرٌ يخالجهــا	وحــي السـماء ؛ فهاتيهـا ، وغنينـي
ـلي حـوْلَ بيـت الحـزن أغنيـةً	بلُـو عـن النفس أحـوانَ الأحـايين
ـيَ قــبرٌ ، مظلــمٌ ، قُــبرِ تْ	فيـه الأمـاني ، فـما عـادت تنـاغيني
لاك في هــذه الــدنيا لمـا لمســتْ	ـارَ روحــيَ أصـواتُ الأفـانين
' تغنَّيْــتُ مــأخوذاً ... لا عــذُبتْ	ـَ الحيــاةُ لــدى غصــن الريــاحين
' أصــخْتُ إلى الأصــداء ، راقصــة	بـين الكهـوف ، عـلى عـزف الشـياطين
ِدهـى الـنفسَ في أشـجانها شـفقٌ	لــوِّغــيْمَ لهــواً أيَّ تلــوين
' اسـتخَفَّ حيــاتي ، وهــي هائمــةٌ	ـوى في جُفـون الخُـرْد العـين



في فجاج الآلام

نظم الشاعر هذه القصيدة في غرة الشهر الرابع لعام ١٩٢٨.

يــا لابتســامة قلــب	ــة بدموع ــهْ

غاضـــــت ، فلـــم تبـــق إلاّ		ـــــدموع بـــــين صـــــدوع ه ْ
فــل ّ يهتـــف مـــن شـــجو		ـــــر ْ ط ولُوع ـــــــه ْ
«ريْـــــح الحيـــــاة ! أمـــــا تنقضيـــــ لـــــديها الرزايـــــا؟!»		
«ـــا يُكَفْكـــف ُ هـــذا الزمـــانُ صـــو ْب َ البلايـــا؟!»		
«ـــا دهـــر ُ ! رفقـــاً ! فـــإن القلـــوب أمســـت شـــظايا»		
* * *		
قلـــب نهنـــه ْ دمـــوعَ الأســـى ، ولو ْ عـــة ر َوع ـــــك ْ		
إن الـــدهور البـــواكي		غـــةٌ عـــن دموع ـــــك ْ
ْ ـــب ُ الحيـــاة أســـاها		اطْو الأســـى في صـــدوع لك ْ
واحلـــم بفجـــر الليـــالي ..ر ُ هـــا في هجوع ـــــك ْ		
َ ـــو ْت َ فـــإنَّ الحيـــاة ليســـت تروعـــك ْ		
ـــوف يمضيـــ شـــتاء الأســـى ، ويـــأتي ربيع ُـــك ْ		
* * *		
بـــين القبـــور فتـــاةٌ		ـــار َ الزمـــانُ عليْهـــا
ْتـــك ْ منـــا بعنـــف		ـــف ٌّ الـــردى أبويه ْ ـــا
ـــول والليـــل ســـاج ٍ والقـــبر ُ مصـــغ ٍ إليْهـــا:		
«ـــا ليتنـــي مـــت ُّ مـــن قبـــل أن تســـوءَ حيـــاتي»		
«ضـــب َ الـــدمع مـــن لـــو ْعتي ، ومـــن حسرـــاتي »		
«ـــن ْ لي بُحفـــرة قـــبر ٍ تضـــم ُّني وشـــكاتي !»		
* * *		
لحـــي ٍّ صـــب ٌّ يعـــاني		، الصـــدر داء ً دفينـــاً
في الفـــؤاد جـــو ّى كـــا		ـــاً وحسَّ ـــاً مكينـــاً
حتـــى دهتْـــه الليـــالي		عَتْـــه ُ م َنُونَـــه ْ
ـــيَّعَ الميْـــت َ جمـــعٌ		ـــن حيِّـــه ، يندبونـــه ْ

حتـــــــــى إذا مـــــــــا أرادوا ـــــــف الصـــــفائح دونَـــــــه

ناحـــــــت عليـــــــه فتـــــــاة : «ويــــــلي ، لمـــــن تتركونـــــه !»

* * *

ـــــــان الصـــــــبي يصـــــيد الفـــــــراش بـــــين الزهـــــــور

ـــدَاس زَهـــــــــراً نـــــــديًّاً ألقـــــــى بـــــــه في الغـــــدير

فـــــــأخرجوه ، ولكـــــــن بعـــــــد القضـــــــاء الأخـــير ...

ـــــــرّت الأم حـــــــول الصـــــــبي ، تصرـــــــح : «ويــــــلي !»

فقلـــــــت ، والقلـــــــب دامٍ والنـــــــاس يبكـــــون حـــــولي

«ـــــا أســـــخف العــــيش تقضيــــــ عليـــــه زلَّـــــةُ نَعْـــــل »

* * *

ـــــيْخٌ ، شـــــاءَ دـــــر الأســـــى ، وحيـــــدٌ شـــــتيتُ

ـــين الخرائـــــب يُمسي ـــــلى الطَّـــــوى ، ويبيـــــتُ

في ظلمـــــة الليـــــل فاضـــــت ــــلى الوجـــــود حياتُـــــهْ

رفُـــــه يرمُـــــق الـــــنَّجمَ ـــــؤُه عبراتُـــــهْ

ـــــا حواليْـــــه إلاالخـــــراب يُشْـــــجي صُـــــماتُهْ

فـــــما بكـــــاه فتـــــاه لا بكتْـــــه فتاتُـــــهْ

* * *

يـــــا زهـــــرةً ـــــامَها العـــــابرون خســـــفاً وهُونـــــا !

كنـــــت شـــــوكاً عَضوضـــــاً مـــــا داســـــك العابرونـــــا

ـــــم يجهلـــــون الـــــوحيَ الـــــذي تُضْـــــمرينا

ـــــم يســـــخرون بهمـــــس الزهـــــور ، وهـــــو بـــــديعُ !

نصـــــتون لصـــــوت الأشـــــواك ، وهـــــو مُريـــــعُ !

فـــــلا تبـــــالي بقـــــوم لحـــــق فـــــيهم صريـــــعُ

* * *

ربَّـــــاه ! كـــــم مـــــن فتـــــاة ، تشـــــكو الحيـــــاة وتبكـــــي

ومـدم ، بَوَ ّأتْـــــه ُ الـــــدَّهور ُ مقعــــــدَ ضـــــنْك
ـــــائس مـــــات في لُبِّــــه المـــرام الوحيـــدُ
ِتائـــه ، ضـــاع بـــين القفـــار ، وهـــو فريـــدُ
ـى طوتـــه مـــن العاصـــفات ريـــح شر ودُ
ِبَّـــاه ! ـــاكَ إن الزَّمـــان فـــض شـــديدُ
* * *
يـــا طـــائر الشـــعر !حْ عـــلى الحيـــاة الكئيبَـــهْ
ـــحْ بريشـــكَ دمْـــعَ القلـــوب فهـــي غريبَـــهْ
ِعزِّ هـــا عـــن أســـاها فقـــد دهتهـــا المصـــيبه
ـــتَ روحٌ جميـــل ، بـــين الهضـــاب الجديبـــهْ
ـانفخْ بهـــا مـــن لهيـــب السـماء رُوحـــاً خضـــيبهْ
عـــث بســـحركَ في قلبهـــا ضرامَ الشـــبيبهْ

مناجاة عصفور

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ ١٦/ ٧/ ١٩٢٨.

ـا أيهــا الشــادي المغــرِّد هاهنــا		ـــلاً بغبطـــة قلبـــه المســـرور
تـــنقِّلاً بـــين الخمائـــل ، تاليـــاً		ـْـي الربيـــع الســاحر المســحور
ِ ِّدْ ، ففــي تلــك الســهول زنــابقٌ		ِنـــو إليـــك بنـــاظر منظـــور
ـر ِّدْ ، ففــي قلبــي إليــك مــودَّةٌ		كـــن مـــودَّ طـــائر مأســـور
ـــه أسراب الحمائـــم ، وانْـــبر َت		ُعذابـــه جنِّيـــةُ الـــديجور ...
ر ِّدْ ، ولا ترهـــبْ يمينـــي ، إننـــي		مثـــل الطيـــور بمهجتـــي وضـــميري
لكـــن لقـــد هـــاض الـــتراب ملامحـــي		بثـــتُ مثـــل البلبـــل المكســـور
ـدُو برنّـــات النياحـــة والأســـى		شـــبوبةً بعـــواطفي وشـــعوري

ــــر ِّ: ْ ، ولا تحفــــل بقلبـــــي ، إنـــــه	كـــــالمعزف ، المـــــتحطِّم ، المهجــــــور
* * *	
ـل ْ عـــلى ســـمع الربيـــع نشـــيدَ هُ	ـــدح ْ بفـــيْض فــؤادك المســـجور
وانشـــد أناشـــيد الجـــمال ، فإنهـــا	ءح ُ الوجــــود ، وســـلوة المقهــــور
ـــا طـــــائر ، متغـــــر ِّ دٌ ، مـــــترنِّمٌ	لكـــــن بصـــوت كــــآبتي وزفـــيري
نـــاجني صـــوتُ الطيـــور ، لأنَّـــه	ـــــدَ فَّقٌ بحـــــــرارة وطَهـــــــور
مـــا في وجـــود النـــاس مـــن شيء بـــه	فـــؤادي أو يُسر ٌّ ـــ ضـــميري
إذا اســـتمعتُ حـــديثَهم ألفَيْتُــــهُ	ـــا ، يفـــــيض بر كَّـــــة وفتـــــور
حضرتُ جمـــوعَهم ألْفَيْتَنَـــي	مـــــا بيـــــنهم كالبلبـــــل المأســـــور
نوحِّ ــــداً بعــــواطفي ، ومشـــاعري ،	وخـــــواطري ، وكـــــآبتي ، وسروري
بْنِ ي حَ ــــر َج ُ الحيــــاة كــــأنني	ـــنهم بوهـــدة جنـــدل وصـــخور
ذا ســـكت ٌّ تضـــجَّروا ، وإذا نطقـــت	ـــذمَّروا مـــــن فكـــــرتي وشـــــعوري
ـــن النـــــاس الـــــذين بلَــــو ْ تهُ م	قلـــو ْ تهم في وحشـــتي وحبـــوري !
مـــــا مـــــنهم إلا خبيـــــث غـــــادر	ـــــتربِّالنــــاس شر َ ٌّ مصـــــير
يـــودُّ لـــو ملـــك الوجـــودَ بـــأسره	ورمـــى الـــورى في جـــاحم مســـجور
ـــــل ٌّ غلّتـــــه التـــــي لا ترتـــــوي	ـــــض ٌّ تهمــــة قلبــــه المغفــــور
:ا دخلـــتُ إلى الـــبلاد فـــإنّ أفكـــا	ري ترفــــرف في ســـــفوح الطُّـــــور
حيـــث الطبيعـــة حلـــوة فتّانَـــةٌ	تختـــــال بـــــين تـــــبر ُّج وســــفور
مـــاذا ردُّ مـــن المدينـــة ، وهـــي غارقـــةٌ	ــــــو ٌّار الـــــدَّم المهـــــدور !
ـــاذا أودُّ مـــــن المدينـــــة ، وهـــــي لا	رثـــي لصـــوت تفجُّـــع الموتـــور ؟
ـــاذا أودُّ مـــــن المدينـــــة ، وهـــــي لا	ـــو لغـــير الظـــالم الشر ِّ ـــير ؟
اذا أود مـــن المدينـــة ، وهـــي م ُر ْ تـــادٌ	لكــــــل دعـــــارة وفجـــــور ؟
* * *	
ـــا أيهـــا الشـــادي المغـــر ِّ د هاهنـــا	ـــلاً بغبطـــة قلبــــه المســـرور !

ـــل ْ أزاهـــير الربيـــع ، وغنِّهـــا		نَـــمَ الصـــباح الضـــاحك المحبـــور
واشرب مـن النَّبـع ، الجميـل ، الملتـوي		ـــا بـــين دَوْ حِ صـــنوبر وغـــدير
ـاتـــركْ دمـــوع الفجـــر في أوراقهـــا		ـى تُرشّ ـــفها عـــروس ُ النـــور
فلـــربما كانـــت أنينـــاً صـــاعداً		في الليـــل مـــن متوجـــع ، مقهـــور
ـفتـــه أجـْفـــان الصـــباح مـــدامعاً		ألاَّقـــة ، في دوحـــة وزهـــور ...

يا رفيقي

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ ١٦/ ٧/ ١٩٢٨.

يـا رفيقــي !أيــن أنــتَ ؟ فقـد أعمـت جفـوني عواصـف الأيـام
ـــي بمهمـــه ، قـــاتم ، قفـــر ، تُغَشّـيـاجيـات ُ الغـمامْ ..
ـذْ بكفِّـــي ، وغنِّنـــي ، يـــا رفيقـــي ، فســبيل الحيـاة وعـرٌ أمـامي
ـنُ زلَّ بي فيـه مهـوى ، تتضـاغى بـه وحـوش ُ الحـ ـمام
بتْه الـدهور ، وانطمـس َ النُّـور ، وقامـتْ بـه بنـات الظـلام
، يخُلْ ـبْنَ في حلَـك الليـل ، ويلعـبن بـالقلوب الـدوامي
ـالغـ ـنـاءُ يَـدْرأ عنَّـا السـاحـرَ الجـن ... سـاكنَ الآجـام ..
* * *
تفكـــرتُ في الوجـــود ، فأعيـــاني ، وأدبـــرتُ آيـ ســاً لظلامـــي
ـدُ الرَّاحَـــةَ البعيـــدةَ ، لكـــن خـــاب ظنّـــي وأخطـــأت أحلامـــي
ـعـــي في جـــوانحي أبَـــدَ الـــدهر فـــؤادٌ إلى الحقيقـــة ظـــامي
ـى الزَّمـــانُ إلاَّ وألقـــى في طوايـــاه قَبْضَـــةً مـــن ضرَ ام
ى ، يـــدَ الحيـــاة ، وزادتْ مُعضـــلاتُ الـــدُّهور والأعـــوام
ـأتْ مهجتـي الحيـاةُ ، فهـل يومـاً تبُـلُّ الحيـاة بعـض أوامـي ؟
يـــا رفيقـــي ! ـــبُ المنبـــعَ المنشـــودَ إلا وراءَ ليْـــلِ الرِّجـــام
غنِّنـــي َ ـــيَّ ، فـــالكوْنُ تَيْهـــاءُ ، بهـــا قـــد تمزَّقـــت أقـــدامي

، علّمنـ ــي أنـ ــيم ُ همــومي ، إنَّنــي قــد مللــت مــن تهيــامي
* * *
يــا رفيقــي ! ا تفكّــر ْ ت َ في النــاس ، ومــا يحملــون مــن آلام ؟
ْ حــز َّ في فــؤادي َ مــا يَلْقَــو ْ ن مــن صــولة الأســى الظــلام
إذا سر َّ جــر نُــور ٌ ســاءني مــا يُسر ّ ــ قلــب ُ الظَّــلام
ب الظــلام مــن أنَّــة تهفــو بغُصَّــات صـ ــبْيَة أيتــام
م ُضر َ َّ ــم مــن فتــاة ، أبهظتْهــا قــوارعُ الأيــام
يفــيض ُ مــن قلــب أم ٍّ فُجعــت ْ في وحيــدها البســام ،
َ المــوت ُ طفلَهــا، وهــو نــور ٌ في دجاهــا ، مــن قبــل عهــد الفطــام
مــن معــدم ، ذي ســقام ، عضَّ ــهُ الــدهر بــالخطوب الجـ ســام
ـا إخــال النُّجــوم إلاَّ دموعــاً ، ذَرَ فَتْهــا محــاجر الأعــوام
ضر َّ م الشــجونَ بنوهــا ، فــإذا بالشُّ ــجون ســيل ٌ طــام
وإذا بالحيــاة في ملعــب الــدهر تــدوس الــرؤوس بالأقــدام
وإذا الكــون فلــنــن جحــيم تتغــذى ، بكــل قلــب دام
ـم ُ في جحــيمهم ْ يتنــاغَو ْ ن بــما في الوجــود مــن أنغــام !
بــاً للنفــوس ، وهــي بــواك ، عجبــاً للقلــوب ، وهــي دوام
، تشــدو وفي محاجرهــا الــدمع ، وتلهــو مــا بــينَ ســ ُــود المــوامي ؟!
* * *
يــا رفيقــي ! ــد ضــللت ُ طريقــي ، وتخطَّــت ـ ّ ــي أقــدامي
خــذ بكفــي ، فــإنني تائــه ٌ ، أعمــى ، كثــير الضــلال والأوهــام
فـخ النّــاي َ ، فالحيــاة ظــلام ٌ ، مــا لمرتــاده مــن الهــول حــام
لءُ آفاقــه فحــيح ُ الأفــاعي ، وعجــيج ُ الآثــام والآلام
ـافنخ النَّــاي َ ، إنــه هبَــة ُ الأمــلاك للمســتعيذ بالإلهــام
السـ َّـير ْ َ ــار ُ بعيــد ٌ ، وســبيل ُ الحيــاة جــم ٌّ الظــلام ...



إلى الموت

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ ١٢/٨/١٩٢٨.

ـبي ّ الحيـــاة ، الشـــقي ّ العنيـــدْ	قـــد ضـــللتَ الضـــلال البعيـــدْ !
ـــدُ صـــوتَ الحيـــاة الـــرخيمَ ،	أنـــت ســـجينٌ بهـــذا الوجـــودْ ؟!

ـب وَرْدَ الصـباح المخضَّـ ـــن كـف حقـل ، جـديب ، حصـيدْ ؟!

إلى المـــوت ! ـــئتَ هَـــوْنَ الحيـــاة ، فخلـــف ظـــلام الـــردى مـــا تريـــد ..

* * *

ـــوت يـــا ابـــن الحيـــاة التعـــيس ، ففـــي المـــوت صـــوتُ الحيـــاة الـــرخيم

ـــوت ؟ إن عـــذّبتكَ الـــدهور ، ففـــي المـــوت قلـــبُ الـــدهور الـــرحيم

إلى المـــوت ! ـالموت رُوحٌ جميـــل ، يرفـــرف مـــن فـــوق تلـــك الغيـــوم

ـَروحـــاً بفجـــر الخلـــود البهـــيج ، ومـــا حولـــه مـــن بنـــات النجـــوم ....

* * *

إلى المـــوت ! وت جـــامُ رويٌّ لمـــن أظمأتـــه ســـمُومُ الفـــلاة

ـــتَ بـــراو -ا مـــا ظمئـــتَ- مـــن المنبـــع العـــذب قبـــل الممـــات

فـــما الـــدمع إلا شراب الـــدهور ، ومـــا الحـــزن إلا غـــذاءُ الحيـــاة

إلى لمـــوت ! ـــالموت مَهْـــدٌ وثـــير ، تنـــام بأحضـــانه الكائنـــات

* * *

إلى المـــوت ! ـــكَ الخطـــوبُ ، وســـدَّتْ عليـــكَ ســـبيل الســـلامْ

ـــي عـــالم المـــوت تنضـــو الحيـــاةُ رداءَ الأســـى ، وقنـــاعَ الظـــلام

ـ ، كـــما خـُلـقَـــتْ غضـَّـــةً يفـــيض عـــلى وجههـــا الابتســـام

ـــدُ عليهـــا ظـــلال الخلـــود ، وتهفـــو عليهـــا قلـــوبُ الأنـــام

* * *

إلى المـــوت ! لا تخشـــى أعماقـــه ففيهـــا ضـــياء الســـماء الوديـــع

فيهـــا تمـــيس عـــذارى الســـماء ، عـــواريَ ، ينشـــدن لحنـــاً بـــديع ...

حهنَّ غصونُ النخيل يحرِّكْنها في فضاء يضوع ...
تضيء به بسمات القلوب ، وتخبو به حسرات الدموع
* * *
سوت طيفُ الخلود الجميلُ ، ونصف الحياة الذي لا ينوحْ
نالكَ ...ف الفضاء البعيد ، يعيش المنونُ القويُّ الصَّبُوحْ
سمُّ القلوب إلى صدره ، ليأسوَ ما مضَّها من جروح
بعثَ فيا ربيعَ الحياة ، ويبهجَها بالصباح الفَروح

إلى عازف أعمى

نظم الشاعر قصيدته بتاريخ ١٨/ ٨/ ١٩٢٨.

ركتَ فجر الحياة أعمى	تَ لا تعرف الظلامْ
أطبقت حولك الدَّياجي	وغام من فوقك الغمام
عشتَ في وحشة ، تقاسي	خواطراً ، كلها ضرام
ربة ، ما بها رفيق	للمة ، ما لها ختام
قُّ تِيهَ الوجود فرداً	د عضَّك الفقر والسقام
وطاردت نفسك المآسي	فرَّ من قلبك السلام
* * *	
وِّن على قلبك المعنَّى	ن كنت لا تبصر النجومْ
لا ترى الغابَ ، وهو يلغو	وفوقه تخطر الغيوم
ولا ترى الجدول المغنِّي	وحوله يرقص الغيم
وكلّنا بائس ، جدير	برأفة الخالق العظيم
وكلّنا في الحياة أعمى	سوقه زعزعٌ عقيم
وحوله تزعق المنايا	نها جِنَّة الجحيم :
* * *	

يـــا صـــاح !نْ الحيـــاة قفـــر ٌ		ـــــــــرو ّع ، مــــــاؤه سراب
بجتنـــي الطَّـــر ْف ُ منـــه إلاَّ		واطـــف َ الشـــوك والـــتراب
وأســـعد النـــاس فيـــه أعمـــى		لا يبصرـــــ الهـــول والمصـــاب
' يـــرى أنفـــس َ البرايـــا		نـــذوب في وقْـــدة العـــذاب
احمـــد إلـــه الحيـــاة ، واقنـــع ْ		ـــا بألحانـــك َ العـــذاب
ـــش ْ ، كـــما شـــاءت الليـــالي		ـــن آهـــة النَّـــاي والر ّ بـــاب



صوت تائه

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ ٢٠/ ٨/ ١٩٢٨

ـــيت ُ أدوار َ الحيـــاة ، مفكِّـــراً		، الكائنـــات ، معـــذَّ باً ، مهمومـــا
ـدت ُ أعـــراس َ الوجـــود مـــآتماً		جـــدت فـــردوس َ الزمـــان جحيـما
ـدوي مخارمـــه بضـــجَّـة صرصر ،		ـــبوبة ، تَـــذ َر ُ الجبـــال هشـــيما
حضرـــت ُ مائـــدةَ الحيـــاة فلـــم أجـــد		لاّ شرابـــــاً ، آجنـــــاً ، مســـموما
فضـــت ُ أعـــماق الفضـــاء ، فلـــم أجـــد		ســـكوناً ، م ُتْعَبـــاً محمومـــا
ـــر ُ الأعـــــمار في ج َنَبَاَتـــــه		وت ُ أشـــواق ُ النفـــوس و ُجومـــا
أوتـــار الـــدهور ، فلـــم تُفـــض ْ		لاّ أنينـــاً ، داميـــاً ، مكلومـــا
يتلـــو أقاصـــيص التعاســـة والأســـى		يصـــير ُ أفـــراح الحيـــاة همومـــا
* * *		
ْت ُ عـــن وطنـــي السـماويِّ الـــذي		ـــا كـــان يومـــاً واجمـــاً ، مغمومـــا
دْت ُ عـــن وطنـــي الجميـــل ... ـــا الشـــقي ّ ، فعشـــت مشـــطورَ الفـــؤاد ، يتيـما ...		
ـــة ، روحيِّـــــة ، ملعونـــــة		اقُها تقضيـــ ، ع طاشـــاً ، هـ ـــيما ...
غربـــةَ الـــر ّوح المفكِّـــر ! إنـــه		في النـــاس يحيـــا ، ســـائماً ، مســـئوما
ِدت ُ للـــــدنيا .. كـــل ّ تائـــه ٌ		ـــا يُـــرو ّع ُ راحـــلاً ومقـــيما
و الحياة ، فـلا يجُ يـب ُ سـوى الـر َّدى		ُسد َّ ـــه تحـــت الـــتراب رمـــيما

بتظــل ســائرةً ، كــأنَّ فقيــدها		ــا كــان يومــاً صــاحباً وحميــا !
* * *		
ا أيهــّا الســاري !ـ طــال الســرّ ـى		حتــامَ ترقــب في الظــلام نجومــا ..؟
في الــوادي البعيــد المُرْ تجَ َـى ؟		هيهــات !ـن تلقــى هنــاك مَر ُومــا
ما استطعت ، فسوف تُلْفِـ ـي - مثلما		لّفــت َ -شــوق َ الغصــون حطيــا

قبضة من ضباب

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ ٢٠/ ١٠/ ١٩٢٨.

مهــما تأملــت الحيــاة ، وجبــت مجهلهــا الرهيــب
ونظــرت حــولي ، لم أجــد إلا شــكوك المســتريب
ـى دَهِ شـت ُ ، ومــا أفــدت بدهشــتي رأيــاً مصــيب
ننــي أجهــدت ّ نفسيــ ، وهـــي باديــة اللّغــوب
دفعتهــا وهــي الهزيلــة ُ في مغالبــة الكــروب
َــة متقلّــب ، تخ ُشــى غوائلــه ، جــديب
فــإذا أصــابت مــن مناهلــه شرابــاً تســتطيب
،ْ جوانحهــا وذلــك حســبُها كَــيْما َ تــؤوب
مَ ـن ارتــوى في هــذه الــدنيا تســنَّمها خطيــب ؟
أولا فقــد ركبــت مــن الأيــام مركبهــا العصــيب
رقضــت كـما شــاء الخلــود ، وفي جوانحهــا اللهيــب !



في ظلال الغاب

أو: نشيد الأسى

نظمها الشاعر بتاريخ ٢٨/ ١٠/ ١٩٢٨.

ــا ليــت َ شــعري !ـل لليــل الــنفسِ مــن صــبحِ قريــب ْ ..

ـر ٌّ عاصفةُ الظلام .. تهجع الريح الغضوبْ ..

ـل ُ الإنسانُ أُغنيةً مع الدنيا طروبْ ..؟!

* * *

ـا للرياح تهبُّ في الدنيا ، ويدركُها اللغوبْ

ـباحي ، فهيَ جامحةٌ تمرُّ دُها عيبْ ؟

ـا لي تعذِّ بُني الحياةُ كأنّني خلقٌ غريبْ ؟

ـدٌ منْ قلبي الجميل ، فهلْ لقلبي من ذنوبْ ؟

ذا سألتُ : جودُ ، وكلُّه همٌّ مذيبْ ؟

لتْ : « السماء قضتْ وما لَكَ من هروبْ »

على قلبي ! قيتْ كشقوته قلوبْ

أَنقى من اوج الوضيء ... ن نشيد العندليبْ

ـترفْ إثمَ الحياة وكان مأواها اللهيب

* * *

ـا مهجةَ الغاب الجميل … ـدِّعْك النحيبْ ؟

ا وجنةَ الورد الأنيق … ـوِّهْك النُّدوبْ ؟

ا جدولَ الوادي الطروب … برنَّقْك القطوبْ ؟

ـا غيمةَ الأفق الخضيب … ـزِّقْك الخطوبْ ؟

ـكبَ الشفَق الضحوك … ـا ألمَّ بك الشحوبْ ؟

ـا أنتَ ذا في الأفق تضحك لا تهمُّ ولا تخَيبْ !

ـي على قُنَن الجبال رداءَ لألاء قشيب

ـنام أوراد الجبال الشمِّ ، في مهد عجيب

ولكي تغنِّيك الجُ لحنَها العذبَ الحبيبْ

جمالَكَ من بنات الغاب معطارٌ لعوبْ

ـوقة في فرعها تاجٌ من الورد الخضيبْ

ـو أناشيدَ الربيع كأنها نجوى القلوبْ

ـا كوكـــــب َ الشـــــفَق الجميـــــل !ـت َ مبتَهَـــــل ُ الكئيـــــب ْ
ـــــج ْ في الســـماء ... ـــن ِّ أبنـــاء َ الشـــقاوة والخطـــوب ْ
ـودة تهَ َــــب ُ العـــزاء لكـــل ِّ مبتـــئس غريـــب ْ
ـير ُ قـــد أغفـــت ْ وأســـكت صـــوتهَ ـا الليـــل ُ الهيـــوب ْ
ـــط جناحَ ـــك َ في الوجـــود ... ـــه عـــذب ٌ خلـــوب ْ
ـــألق ٌ بـــين َ النجـــوم كأنّـــه حلـــم ٌ طـــروب ْ
ـــ ضـــياء َك ســـاطعاً لينـــير َ أعـــماق َ القلـــوب ْ
ـــلى جوانبِ هـــا مـــن الأحـــزان ديجـــور ٌ مهيـــب ْ
* * *
ـــا للميـــاه نقيّـــة حـــولي ، وينبـــوعي مشـــوب ْ ؟
ـــا للصـــباح يعـــود ُ للـــدنيا ، وصـــبحي لا يـــؤوب ْ ؟
ـالي يَضـــيق بيَ الوجـــود ُ ، وكـــل ٌّ مـــا حـــولي رحيـــب ْ ؟
، وجمـــت ُ ، وكـــل ّ مـــا في الغـــاب مغـــترد ٌ طـــروب ْ ؟
ِ شـــقيت ُ ، وكـــل ٌّ مـــا في الكـــون أخ ّـــاذ ٌ عجيـــب ؟
س أقـــدام َ الربيـــع تُلامـــس ُ الســـهل َ الجـــديب
بـــه يحيـــا ويُنبـــت ُ رائـــق َ الزهـــر الرطيـــب ْ
ُنـــاك أنـــوار النهـــار تطـــل ُّ مـــن خلـــف الغـــروب
فتخضـــب الأمـــواج والآفـــاق ، والجبـــل الخصـــيب
ـــود َ الرحـــب َ والغابـــات والأفـــق َ الخضـــيب ْ
ـــب ُ أشـــواق الحيـــاة بهـــا ، فغادرهـــا القطـــوب ْ
ـــا أنـــا ففقـــدتها والليـــل ُ مُ رَ بَّـــد ٌ عصـــيب ْ
ُ تعصـ ـــف ُ بـــالورود فعشـــت ُ ســـخرية َ الخطـــوب ْ
* * *
ـــما تضـــاحكت الحيـــاة ُ فـــإنّني أبـــداً كئيـــب ْ
ـــغي لأوجـــاع الكآبـــة ...آبـــة ُ لا تجُ يـــب ْ

جتـــــي تتـــــأوَّهُ البلـــــوى ويعـــــتلجُ النحيـــــبْ
بضـــجُّ ـــــارُ الأســـى وتجـــيش أمـــواج الكـــروبْ
ـــا الـــروحُ الـــذي ســـيظلّ في الـــدنيا غريـــبْ
ـيش مضـــطلعاً بـــأحزانِ الشـــبيبةِ والمشـــيبْ

قلت للشعر

أو: مناجاة

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ ٢٨/ ١٠/ ١٩٢٨

أنـــت يـــا شـــعر ، فلـــذة مـــن فـــؤادي	تغنَّـــى ، وقطعـــةٌ مـــن وجـــودي
فيـــك مـــا في جـــوانحي من حَـنـين	ـــدي إلى صـــميم الوجـــود
فيـــك مـــا في خـــواطري مـــن بكـــاء	فيـــك مـــا في عـــواطفي مـــن نشـــيد
بـــك مـــا في مشـــاعري مـــن وُجـــوم	لا يغنـــي ، ومـــن سرور عهيـــد
فيـــك مـــا في عـــوالمي مـــن ظـــلام	رمـــدي ، ومـــن صـــباح وليـــد
فيـــك مـــا في عـــوالمي مـــن نجـــوم	ـــاحكات خلـــف الغـــمام الشرـــود
فيـــك مـــا في عـــوالمي مـــن ضـــباب	وسراب ، ويقظـــــة ، وهجـــــود
فيـــك مـــا في طفـــولتي مـــن ســـلام ،	نســـام ، وغبطـــة ، وســـعود
ـــك مـــا في شـــبيبتي مـــن حنـــين ،	وشـــجون ، وبهجـــة ، وجمـــود
فيـــك – إن عـــانق الربيـــع فـــؤادي –	تتثنَّـــى ســـنابلي وورودي
يغنِّـــي الصـــباحُ أنشـــودة الحـــب ،	عـــلى مســـمع الشـــباب الســـعيد
ـــم أجنـــي في صـــيْف أحلامـــيَ	لســـاحر مـــا لـــذَّ مـــن ثـــمار الخلـــود
بـــك يبـــدو خريـــف نفسيـــ مَلـــولاً ،	ـــاحبَ اللـــون ، عـــاريَ الأملـــود
نْتـــه الحيـــاةُ بـــالحَزَن الـــدَّا	مـــي وغشـــته بـــالغيوم الســـود
ـــك يمشيـــ شـــتاءُ أيَّـــاميَ البـــا	كـــي ، وتُرغـــي صـــواعقي ورعـــودي
وـــفُّ الزهـــور في قلبـــيَ الـــدا	جـــي ، وتهـــوي إلى قـــرار بعيـــد ...

أنـــت يـــا شـــعر قصـــة عـــن حيـــاتي	أنـــت يـــا شـــعر صـــورة مـــن وجـــودي
أنت يـا شـعر -، فرحـت ُ - أغاريـدي	- وإن غنَّـــت الكآبـــة - عـــودي
يـــا شـــعر كـــأس ُ خمـــر عجيـــب	أتلَّهـــى بـــه خـــلال اللحـــود ..!
ـحسـ َّ ـــاه في الصـــباح ، لأنســـى	ـقضى َّ ـــ في أمسي َ ـــ المفقـــود
وأناجيـــه في المســـاء ، ليلهينـــي	ـــر ْ آء ُ عـــن ظـــلام الوجـــود
ا لـــولاك لم أطـــق عَنْـــت َ الـــد َّهر ،	لا فُر ْ قـــة الصـــباح الســـعيد
ـن مـــا ذ لْـــت ُ مـــن كهـــوف الليـــالي	صـــفَّحت ُ مـــن كتـــاب الخلـــود
ـك مـــا في الوجـــود مـــن حـ َلـــك ، دا	ـج ، ومـــا فيـــه مـــن ضـــياء ، بعيـــد
بـــك مـــا في الوجـــود مـــن نَغَـــم ،	ـلـــو ، ومـــا فيـــه مـــن ضـــجيج ، شـــديد

، مـــا في الوجـــود مـــن جبـــل ، وعْـــر ، ومـــا فيـــه مـــن حضـــيض ، وهـ يـــد
ـــا في الوجـــود مـــن حســـك ، يُـــد ْ مـ ي ، ومـــا فيـــه مـــن غضـــيض الـــورود
فيـــك مـــا في الوجـــود .... َـــب َّ بنـــو الأرض قصـــيدي ، أم لم ُ بـــوا قصـــيدي
ســـواء ٌ عـــلى الطيـــور -ا غنّـــت ْ -ـــاف ُ الس َّـــؤوم والمســـتعيد
وســـواء عـــلى النجـــوم - إذا لاحـــت -ـــكون ُ الـــدجى وقصـــف ُ الرعـــود
ـــواء عـــلى النســـيم أفي القفـــر تَغَنّـــى ، أم ْ بـــين غـــض ٍّ الـــورود
ـــواء عـــلى الـــورود ، أفي الغـــيران فاحـــت ْ ، أم بـــين نهـــد وجيـــد



قصائد عام ١٩٢٩

وعددها ست قصائد:

- يا ابن أمي.
- إلى قلبي التائه.
- يا موت.
- أغاني التائه.
- أكثرت يا قلبي فماذا تروم؟
- إلى الله.

يا ابن أمي

نظم الشاعر قصيدته هذه بتاريخ ٢٠/ ٢/ ١٩٢٩.

ـت َ طليقـــاً كطــيف النســيم   ـــراً كنــور ِ الضــحى في ســماه ْ
ـــرد كـــالطير أيـــن انـــدفعت َ   ـــدو بـــما شـــاء َ وحـــي ُ الإلـــه ْ
ـمـــرح ُ بـــين ورود ... الصـــباح   ـــنعم ُ بـــالنور ِ أنّـــى ... ـــراه ْ
ـيـــ كـــما شـــئت َ بـــين َ المـــروج ِ   ـــف ُ وردَ الربـــى في ر ُبـــاه ْ

* * *

ـذا صـاغك الله يـا ابـن الوجـود   وألقتــك في الكــون هــذي الحيــاه
ـالــك َ تــرضى بــذل ٍّ ... يــود َ   نحنـي لمـن كبّلـوك َ الجبـاه ْ ؟!
ـسـكت ُ في الــنفس ِ صــوت الحيــاة   قــوي ٌّ إذا مــا تغنّــى صــداه
وتُطبــق أجفانـــك النـــيرات ...   الفجـر ِ والفجـر ُ عـذب ٌ ضـياه ْ
ـع ُ بـــالعيش ِ بـــين الكهـــوف   ـأين َ النشــيد ُ ؟ وأيــن الأيــاه ؟
تخشــى نشــيدَ الســماء الجميــل َ ؟   أترهـــب نـــور الســما في ضـــحاه
انهــض وسر ْ في ســـبيل ِ الحيـــاة   ـــن نـــام لم تنتظـــر ْ ه الحيـــاه ْ !!
تخــش َ ممـــا وراء القـــلاع   ـــما ثـــم َّ إلا الضـــحى في صـــباه
ربيـــع ُ الوجـــود ِ الغريـــر .. ،   ـــر ٌّ ز ُ بـــالورد ضـــافي ر ِداه !
أريـــج ُ زهـــور ِ الصـــباح   ـقـــص الأشـــعة بـــين َ الميـــاه !!
وإيـــمام ُ المـــروج ِ الأنيـــق   ـــر ٌّ د منطلقـــاً في غنـــاه !
إلى النـــور فـــالنور عـــذب جميـــل َ   النـــور فـــالنور ظـــل ّ الإلـــه !

أغاني التائه

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ ٢٧/ ٣/ ١٩٢٩.

ـان َ في قلبـــي َ فجـــر ٌ ونجـــوم ْ   ـــار ٌ لا تُغشّـــيها الغيـــوم ْ

اشـــيد وأطيــــار ٌ تحـــــومْ ربيـــعٌ مــقٌ حلـــوٌ جميـــلْ
ـــانَ في قلبـــي صــبـاحٌ وإيـــاهْ رابتســـامات ولكـــن واأســـاهْ !
آه مـــا أهـــول إعصـــار الحيـــاه آه مـــا أشــقى قلــوب النـــاس آه !

ـــان في قلبـــيَ فجـــرٌ ونجـــومْ
ـإذا الكــلُّ ظـــلامٌ وســـديمْ
ـــانَ في قلبـــيَ فجـــرٌ ونجـــومْ

ـا ابـن أمِّـي ! ـرى أيـن الصباحْ ؟ تقضى ـــرُ والفجـرُ بعيـدْ
ـى الـوادي بمشـبوبِ النـواحْ نقضـت أنشـودةُ الفصـلِ السـعيدْ
يـنَ نـايي ؟ هـل ترامتـه الريـاح ؟ ـن غـابي ، أيـنَ محراب السـجودْ ؟
خـبروا قلبـي فـما أقسـى الجـراح ف طـارت نشـوةُ العيشِ الحميـدْ ؟

ـا ابـنَ أمـي ! ـرى أيـن الصبـاحْ .. ؟
أوراحـر ؟ أم خلـفَ الوجـودْ .. ؟
ـا ابـنَ أمَـي ! ـرى أيـن الصبـاحْ .. ؟

ليـت شـعري هـل ستسـليني الغـداة عزينـي عـن الأمـسِ الفقيـدْ
نريـنـي أن أفــراحَ الحيـــاة ـرٌ تمضيـــ وأفــواجٌ تعـودْ
ـإذا قلبـي صـبــاحٌ وإيـــاه ذا أحلامـــيَ الأولى ورودْ
إذا الشـحرور حلـوُ الـنغمْ الغـابُ ضـياءٌ ونشـيدْ ؟

ـت َ شـعري هـل ستسـليني الغـداة ؟
م ستنسـاني وتبقينـي وحيــدْ ؟
ـت َ شـعري هـل تعزينـي الغـداة ؟

إلى قلبي التائه

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ ٢٠/ ٤/ ١٩٢٩.

ـــا لآفاقـك يـــا قلبـــيَ ســوداً ، حالكـــات ؟

لأورادكَ بــين الشـــوك صــــفراً ، ذاويـــات ؟
ولأطيـــارك لا تلغــــو ؟ فـــأين الـــنغمات ؟
مـــا لمزمـــارك لا يشـــدو بغـــير الشـــهقات ؟
ولأوتـــــارك لا تخفــــــق إلا شـــــاكيات
ولأنغامـــــــك لا تنطــــــق إلا باكيــــــات
لقــد كانـــت صــباحَ الأمـــس بـــين النســمات
كعـــذارى الغـــاب ، لا تعـــرف غـــير البســمات ؟
ـــو ذا يـــا قلبـــيَ البحـــر ، وأمـــواج الحيـــاة !
هـــو ذا القـــارب مشـــدوداً إلى تلـــك الصــفاة !
هـــو ذا الشـــاطئ ! ـــن أيـــن رُبّانُـــكَ ؟ مـــات !
أيـــن أحلامـــك يـــا قلبـــي ؟ لقـــد فـــات الفـــوات !
ـــك أطيـــارٌ ، أنيقـــاتٌ ، طـــرابٌ ، فرحـــات
ـــرّدتْ ، ثـــم تـــوارتْ في غيابـــات الحيـــاة

* * *

ـــت يـــا قلبـــيَ قلـــبٌ ، أنضـــجته الزفـــرات
أنـــت ا قلبـــيَ عـــشٌّ ، نفـــرت عنـــه القطـــاة
طارتـــــه إلى النهـــــر الريــــــاحُ العاتيـــــات
فهـــــو في التيّـــــار أوراق ، وأعـــــواد عـــــراة
ـت حقـــلٌ ، مجْـُـــدبٌ ، قـــد هزئـــت منـــه الرعـــاة
ـت ليـــلٌ ، مُعْـــتِـمٌ ، تنـــدب فيـــه الباكيـــات
أنـــت كهـــف ، مظلـــم ، تـــأوي إليـــه البائســـات
ـت صرَ ْحٌ ، شـــاده الحـــب عـــلى نهـــر الحيـــاة
لبنـــات الشـــعر .. لكـــن قوَّ ضـــته الحادثـــات
ـــت قـــبرٌ ، فيـــه مـــن أيـــامي الأولى رفـــات
ـت عـــودٌ ، مزّقـــتْ أوتـــارَه كـــفٌّ الحيـــاة

فهــــو في وحشـــــته الخرســـــاء ، بـــين الكائنـــــات
ـــــامتٌ كـــــالقبر ، إلا مـــــن أنـــين الـــــذكريات
، لحَـْـــــنٌ ســـاحرٌ ، يخـــبط في التّيـــــه المَـــوَات
ـــت أنشـــــودةُ فَجْـــــرٍ .. ، رتَّلَتْهـــــا الظَلـــــمات ..

* * *

أيهـــــا الســـــاري مـــــع الظلمـــــة ، في غـــير أنـــــاة
قـــــاً ، يخـــبطُ في الصـــــحراء ، مكبـــوحَ الشـــــكاة
ـت َ في الـــــدنيا ، ومـــــا أُبْـــــتَ بغــــير الحسرـــــات
ـــــلِّ يـــــا قلبـــــي إلى الله ، فـــــإن المـــــوت آت
ـــــلِّ فالنّـــــازعُ لا تبقَـــــى لـــــه غـــــير الصـــــلاة

أكثرت يا قلبي فماذا تروم ؟

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ ٢٠/ ٧/ ١٩٢٩، والقصيدة مليئة بعبارات الشكوى وهو يتحرى الخلاص دون العثور عليه.

ـــــا قلبـــــيَ الـــــدامي !مَ الوجـــــومْ ؟
يكفيـــــك !ن الحـــــزن فـــــظّ ، غشـــــوم
ـــــذي كـــــؤوسي مُـــــرّ ةً ، كـــــالردى
ـــــا مِلْؤُهـــــا إلا عصـــــير الهمـــــوم
ك نـــــايي صـــــامتٌ ، واجـــــمٌ
ُصـــــغى إلى صـــــوت الغـــــرام القـــــديم
ـــــا قلبـــــي البـــــاكي إلام البُكَـــــى ؟
مـــــا في فضـــــاء الكـــــون شيء يـــــدوم
ـــانْثُرْ غُبـــــارَ الحـــــزن فـــــوق الـــــدجى
اســـــمعْ إلى صـــــوت الشـــــباب الـــــرخيم

ـُـــــــرْ عــــــلى دفٍّ الهـــــــوى لحنَـــــــه
وارقـــص مـــع النـــور ، الضـــحوك الوســـيم
ـــــا قلبـــــيَ الـــــداجي ! إلام الوجــــوم ؟
ألمُ ْ قلبـــــــي فَمَـــــــنْ ذا ألـــــــوم ؟
مالـــــك لا تصـــــغي لغـــــير الأســـــى ؟
لـــــك لا ترْنُـــــو لغـــــير الكلـــــوم ؟
ـــــك قـــد أصـــبحتَ لا تصرـــف الأيـــامَ
في شـِ ـــــــــعاب الجحـــــــــيم ؟
أمـــــا تـــــر البلبـــــل في غابـــــه
يشـــدو وفـــوق الغـــاب تخطـــو النجـــوم ؟
أمـــا تـــرى الأســـحار تبـــدو بهـــا الغابـــات
كـــالأحلام - لُـــفَ الســـديم
أمـــا تـــرى الآمـــال في ســـحرها ؟
أمـــا تـــرى الليـــل ينـــاغي النجـــوم ؟

❋ ❋ ❋

ـــــا قلبـــــيَ الـــــداجي ! إلام الوجــــوم ؟
أكثـــرت يـــا قلبـــي ، فـــماذا تَـــروم ؟
ـــل تحســـبُ الأيـــامَ في زَحْفِـهـــا
ـــــي لمـــن قـــد هدَّمتْـــهُ الرجـــوم ،
كَـــلا ! فـــإن الـــدهر يمضيـــولا
يلـــوي عـــلى مـــا خلفـــه مـــن كلـــيم
ـــيمٌّ لا يرثـــي لمـــن طمَّـــه
والســـيل لا يبكـــى لنـــوح الهشـــيم
والعاصـــف الجبَّـــار في ســـخطه
لا يـــرحم الغصـــن ، الرشـــيق ، القـــويم

ــــــــذي هـ ِ ــــــــي الـــــــدنيا فـــــــاذا الأســــــى
ــــــا قلبـــــــي َ الـــــــدامي، ومـــــاذا الوجـــــوم ؟

يا موت

نظم الشاعر هذه القصيدة في بداية الشهر العام ١٩٢٩ وهي صرخة من صرخات نفس الشاعر المملوءة بالأحزان والذكريات وشظية من شظايا قلبه المحطم على صخور الحياة، قالها في أيام الأسى التي تلت نكبته بوفاة والده.

ـا مــوت ُ ! قــد مزقــت صــدري
ـــمْ ت َ بـــالأرزاء ظهـــري
ورميْتَنـــي مـــن حـــ ، وســـخرت َ منِّـــي أيَّ ســخر
ت ُ مرضـــوض َ الفـــؤاد اجـــر ٌّ أجنحتـــي بـــذ ُعْر ...
ـــوْ ت َ إذ أبقيتنـــي في الكـــون أذْ رَع ُ كـــل َّ وعْـــر
جعتنـــي فـــيمن أحـــب ، ومـــن إليـــه أبُـــث ُّ سري
ـــد ّه ، فجـــرى الجميـــل َ ، إذا ادلهـــم َّ عـــلي َّ دهـــري
ـــد ّه ، وَ رْ د ِ ي ، ومزمـــاري ، وكاســـاتي ، وخمـــري
وأعـــده ، غـــابي ، ومحـــرابي ، وأغنيتـــي ، وفجـــري ...
ورزأتنـــي في عمـــدتي ، ومشـــورتي في كـــل أمـــر
ـــدمت َ صر ْ حـــاً ، لا ألـــوذ بغـــيره ، وهتكـــت ســـتري
ـــدْ ت ُ روحـــاً ، طـــاهراً ، شـــهماً ، يجـــيش بكـــل خـــير
ـــدت ُ قلبـــاً ، همّـــه أن يســـتوي في الأفـــق بـــدْ ري
ـــدت ُ كفّـــاً ، في الحيـــبصُ ـــد ّ عنِّـــي كـــل شر
ـــدت ُ وجهـــاً ، لا يُعَبّـــه ســـوى حـــزني وضر ُ ي
ـــدت ُ نفســـاً ، لا تَنـــي عـــن صـــوْ ن أفراحـــي وبشرـــي
ـــدت ر ُكْنـ ِ ـــي في الحيـــاة ، ورايَتـــي ، وعـــادَ قصرـــي

يــا مــوت ! ـد مزّ قــت َ صــدري

ـنصـ ْ ــــمت بـــالأرزاء ظهـــري

يـــا مــوت ! ـــاذا تبتغـــي منّـــي وقـــد مزّ قـــت َ صـــدري ؟
ـــاذا تـــودّ ، وأنـــت قـــد ســـوّ دت َ بـــالأحزان فكـــري
ـــي في الكائنـــات أئـــنّ ، منفـــرداً بـــإصر ْ ي
ـجــوب ُ صـــحراء الحيـــاة ، أقـــول : «ـــن َ تُـــراه ُ قـــبري ؟»
ـــاذا تَـــو َدّ مــــن المعـــذّ ب في الوجـــود بغـــير و ِ ز ْ ر ؟
ـــو َدّ مـــن الشـــقيّ بعيشـــه ، النكـــد ، المُضر ـــــ ؟
ـــت َ تطلبنـــي فهـــات الكـــأس َ ، أشربه ُ ـــا بصـــبر
ـــت َ ترقبنـــي فهـــات السّـــهم َ ، أرشـــقه بنحـــري
ـــذني إليـــك ، فقـــد تبخّـــر َ في فضـــاء الهـــمّ عُمـــري ...
ـــدّلت ْ أغصـــانُ أيـــامي ، بـــلا ثَم َـــر وزه ْـــر
ـنـــاثرت ْ أوراق أحلامـــي عـــلى حسـك المـــر ...
خـــذني إليـــك ! ـد ظمـ ـئْـــت ُ لكأ ْ ـ َ ، الكـــد ر ، الأمـــرّ ...
ـي فقـــد أصـــبحت ُ ارقُـــب ُ في فضـــاك َ الجـــو ْ ن فجـــري
خـــذني ، فـــما أشـــقى الـــذي يقضيـــ الحيـــاة بمثـــل أمـــري ...

* * *

يــا مــوت ! ـد مزّ قْــت َ صــدري

ـنصـــمت َ بـــالأرزاء ظهـــري

يـــا مــوت ! ـــد شـــاع الفـــؤاد ، وأقفـــرت ْ عرصـــات صـــدري
وغـــدوت أمشيـــ مطرقـــاً مـــن طـــول مـــا أثقلـــت فكـــري
يـــا مــوت ! سيـــ ملّـــت الـــدنيا ، فهـــل لم يـــأت دو ْ ري



إلى الله

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ ٢٩/ ١٠/ ١٩٢٩ ونفسه متشحة بلهيب آلامها الحزينة الدامية.

يــا إلــه الوجــود ! هــذي جــراح ... في فــؤادي ، تشــكو إليــك الــدواهي
ـــذه زفـــرةٌ يصـــعدها الهـــمُّ ... إلى مســـمع الفضـــاء الســـاهي
هـــذه مهجـــة الشـــقاء تناجيـــك ... فهـــل أنـــت ســـامع يـــا إلهـــي ؟
ـــتَ أنزلتنـــي إلى ظلمـــة الأرض ... ـــد كنـــتُ في صـــباحٍ زاه
لشـعاع الجميـل ، أسـبَحُ في الأفْـق ... أصـــغي إلى خريـــر الميـــاه
وأغنِّـــي بـــين النيـــابيع للفجـــر ... وأشـــدو كالبلبـــل التيَّـــاه
ـــتَ أوصـــلتني إلى ســـبل الـــدنيا ... وهـــذي كثـــيرة الاشـــتباه
ـــم خلَّفْتَنـــي وحيـــداً ، فريـــداً ... ـــين داعٍ مـــن الريـــاح ونـــاه
تَ أوقفتنـــي عـــلى لجُـّــة الحـــزن ... جرَّعتنـــي مـــرارة «آه !»
ـــتَ أنشـــأتني غريبـــاً بنفسيـــ ... بـــين قـــومي ، في نشـــوتي وانتبـــاهي
تَ كرَّهْتَنـــي الحيـــاة ومـــا فيهـــا ... بْتَنـــي جمُـــودَ الســـاهي
جَبَّلْـــتَ بـــين جنْبـــيَّ قلبـــاً ... مـــديَّ الشُّـــعور والانتبـــاه
بقـــريَّ الأســـى : عذِّبـــه الـــدنيا ... وتشـــجيه ســـاحرات الملاهـــي !
ـــذَّبتني بدِ قَّـــةِ حسيِّ ـــ ... تعقَّبْتَنـــي بكـــل الـــدواهي
بالأســـى ، بالســـقام ، بـــالهم ، بالوحشـــة ، باليـــأس ، بالشـــقا المتنـــاهي
يـــا تغتـــال أشْـــهى أمـــانيَّ ... ـــذِوي محـــاجري ، وشـــفاهي
ـــذا مـــن أحـــب حفنـــة تُـــرْب ... ـــه ، مـــن ترائـــب وجبـــاه
ذا فتنـــةُ الحيـــاة وســـحرُ الكـــون ... ْبٌ مـــن الغـــام الزاهـــي
يتلاشـــى فـــوق الخضـــم : يبقـــى الـــيمُّ -هـــد مُزْبِـــدَ الأمـــواه ...

* * *

يـــا إلـــه الوجـــود ! مالـــك لا ترثـــي ... ـــزن المعـــذَّب الأوَّاه

ـد تأوَّهــتُ في ســكون الليــالي ـــم أطبقــتُ في الصــباح شــفاهي
ــــتُ بالحيـــــاة ، وبالحـــــبِّ ، وغنَّيـــــتُ كالســـعيد اللاهــــي
ـــتُ الأحـــلام في قلبـــي الــدامي ، وحوَّطتهـــا بكـــل انتبـــاهي
ـــم لمـــا حصـــدت لم أجـــن إلاّ الشـــوكَ ، مـــاذا تُـــى فعلـــتُ ؟ إلهـــي !

* * *

ـا ريـاحَ الوجـود !ـيري بعنـف نَّــــــيْ بصــــــوتك الأوَّاه
ي مـن روحِ ـك الفَخْـم ما يُبْلِـغُ ـوْتي آذانَ هـــــذا الإلــــه
ُصــغِ ي إلى القــويِّ ، ولا يُصـــغي لصـــوت بـــين العواصـــف واه
نثُـــري الـــوردَ للثلـــوج بـــدَاداً واصـــعقي كـــلَّ بلبـــل تَيَّـــاه
ـــالوجود الشـــقيُّ غـــير جـــدير الأغــــاني ، وبـــالجمال الزَّاهـــي
حقي الكائنـــات كوْنـــاً بكـــوْن ، قبـــلَ أن تنتهـــي أذلَّ تنـــاه
فالإلـــه العظـــيم لم يخلـــق الـــدنيا ســـوى للفنـــاء تحـــت الـــدواهي

* * *

يـــا ضـــمير الوجـــود ! يـــا عـــالم الأرواح ! يـــا أيهـــا الفضـــاء الســـاهي !
ـا خضـــمَّ الحيـــاةِ ، يزخـــر في الآفـــاق في الـــتراب ، في قـــرار الميـــاه !
ـبرّوني ، هـــل للـــورى مـــن إلـــه ، راحـــم - مثـــل زعمهـــم - أوّاه
ق النـــاس باســـماً ، ويواســـيهم ، ويرنـــو لهـــم بعَطـــفِ إلهـــي
ـــرى في وجــــودهم روحَـــــه الســـامِي ، وآيـــات فنِّـــه المتنـــاهي
إننـــي لم أجـــده في هاتـــه الـــدنيا ، فهـــل خلـــف أفقهـــا مـــن إلـــه ؟!

* * *

ا الـــذي قـــد أتيـــتَ يـــا قلبـــيَ البـــاكي ؟! ومـــاذا قـــد قلتـــه يـــا شـــفاهي
يـــا إلهـــي ! ـــد أنطـــق الهـــمُّ قلبـــي بالـــذي كـــان ... ، فـــاغتفر يـــا إلهـــي !
ـأسِ والكآبـــةِ داســـتْ قلبـــيَ المُتْعَـــبَ ، الغريـــبَ ،الـــواهي

٢٣٨ فتشظّت تلك بعض شظاياه .. فسامحْ قنوطَه المتناهي

يا ربِّ معبدُ الحقّ، والإيمانِ والنورِ والنقاءِ الإلهي

يا نايُ الجمالِ، والحبِّ، والأحلامِ، لكن قَد حطّمتْه الدواهي



قصائد عام ١٩٣٠

وعددها ثماني قصائد:

- النبي المجهول.
- صفحة من كتاب الدموع.
- طريق الهاوية.
- شجون.
- الأبد الصغير.
- الجمال المنشود.
- يا حماة الدين.
- الأشواق التائهة.

النبي المجهول

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ ٢٠/ ١/ ١٩٣٠

ـا الشعبُ ! نني كنتُ حطّا   ـاً ، فأهوي على الجذوع بفأسي !
نني كنتُ كالسيول إذا سا   ـتْ تهدُّ القبورَ رمساً بـمسِ !
نني كنتُ كالرياح فأطوي   ـَّ ما يخنقُ الزهورَ بنحسي !
كنتُ كالشتاء أغشّي   ـَّ ما أذبلَ الخريفُ بقَرسي
ـتَ لي قوّةَ العواصفِ يا شعـ   ـبي فألقي إليكَ ثورة نفسي
ـَ لي قوّةَ الأعاصيرِ إن ضجّـ   ـت فأدعوك للحياة بنبسي !
ـتَ ، قوّة الأعاصيرِ! .. لكن   ـت حيٌّ يقضي الحياةَ برمسِ !
ـتَ روحٌ غبيّةٌ تكرهُ النو   ضي الدهورَ في ليلِ مَلْسِ
ـتَ لا تُدركُ الحقائقَ إن طافـ   حواليْك دونَ مسٍّ وجسِّ

* * *

ـباح الحياة ضمّختُ اكوا   وأترعتُها بخمرة نفسي
ـمَّ قدمتُها إليكَ فأهرقـ   رحيقي ودستَ يا شعبُ كأسي
ألمتُ ... ـمَّ أسكتُّ آلا   كفتُ من شعوري وحسّي
ـَّ نضّدتُ من أزاهير قلبي   ـةً لمْ يمسَّها أيُّ إنسي
ـمَّ قدّمتُها إليكَ فمزّقـ   ـتَ ورودي ودستَها أيَّ دوس !
ـمَّ ألبستني من الحزن ثوباً   ـوك الجبال توّجتَ رأسي !

* * *

ـا أنا ذاهبٌ إلى الغاب يا شعـ   ـبي لأقضي الحياةَ وحدي بيأس (١)
ا أنا ذاهبٌ إلى الغاب علِّي   ـي صميم الغابات أدفنُ بؤسي
ـم أنساك ما استطعتُ فما أنـ   ـتَ بأهلٍ لخمرتي ولكأسي
ـوفَ أتلو على الطيور أناشيـ   ـدي وأفضي لها بأشواق نفسي

(١) هاأنا: في الديوان إنني آليته والبيت الذي تلاه.

فهـي تـدري معنـى الحيـاة وتـدري ـــدَ النفــوس يقظـــةُ حـــس ٍّ !
ـم ً أقضي ـ هنــاكَ في ظلمــة الليـــ ـــل وألقـــي إلى الوجـــود بيـــأسي
م ً تحــت َ الصـنوبر النــاضر الحلـــ و تخُـــطُّ السـيول ُ حفـرةَ رمسي ـ
ـل ٌ الطيـــور ُ تلغـــو عـــلى قبــ ـري ويشـدو النسيم ُ فـوقي بهمـس
ـل ٌ الفصـــول ُ تمشي ـ حـــوالي ً ـما كـــن ً في غضـــارة أمـــس

* * *

ـا الشـعب ُ ! َ طفـل ٌ صـغير ٌ ـب ٌ بـالتراب والليـل مُغسي ـ !
ت َ في الكـــون قـــوة لم تسُـسْ ـــها ـــرة عبقريَّـــــة ذات ُ بـــأس !
ـت َ في الكـــون قـــو ً ة كبَّلتهـــا ظُلُمــات العصــور مــن أمــس أمــس
ـقي ٌ الشــقي ٌّ مــن كــان مــثلي حساســـيتي ورقَّـــــة ِ نفسي ــــ !

* * *

كـــذا قـــال شـــاعر ٌ نـــاول النـــا ـ رحيــق َ الحيـــاة في خـــير كـــأس
ـاحوا عنهـــا ، ومـــر ٌ وا غ ضــاباً راســتخفّوا بـــه وقـــالوا بيـــأس:
«د أضــاع َ الرشـادَ في ملعـبَ الجـن ٍّ فـسَ ـــه أصـــيب َ بمـــس ٍّ ! »
«طالمـا خاطــب العواطــف في الليــل ونــاجى الأمـوات في غــير رمــس»
«لـــا رافـــق َ الظـــلامَ إلى الغـــا نـادى الأرواح َ مـن كــل ٍّ جـنس»
«المـا حــدَّث الشـياطينَ في الـــوا دي وغنَّـــى مـــع الريـــاح بجــرس»
«ـه ســـاحر ٌ تعلَّمــــه السحـــــ َ الشـياطين ُ كـل ً مطلـع شـمس»
«ـدوا الكـافرَ الخبيـث َ عـن الهيكـل ، الخبيـــــث َ منبـــــع ُ رجـــــس»
«طــــردوه ُ ، ولا تُصــــيخوا إليــــه ـو روح ٌ شريـــرة ذات ُ نحـــس» !

* * *

ـذا قـــال شـــاعر ٌ فيلســـوف ٌ ـس َ في شـــعبِه الغبـــي ٍّ بـــتعس
ـ َ النـــاس َ روحَ ـــه ُ وأغانيــــ ـها ، فسـاموا شـعورَه ُ سـومَ بخـس
ـــو في مـــذهب الحيـــاة نبـــي ٌّ و في شـــعبِه مصــاب ٌ بمـــس ٍّ !

هكـــذا قـــال .. ، ثـــم ســـار إلى الغـــا ، ، ليحيـــا حيـــاةَ شـــعرٍ وقـــدس

* * *

وبعيـــداً هنـــاك في معبـــد الغـــا الـــذي لا يُظلّـــه أيُّ بـــؤس
في ظـــلال الصـــنوبر الحلـــو والزيـــتون يقضي ـ الحيـاةَ : حرسـاً بحـرس
في الصـباح الجميـل يشـدو مـع الطـير ، ويمشي ـ في نشـوة المتحسي ـ
خـاً نايَـــهُ حواليْـــه تهتـــزُّ ورودُ الربيـــع مـــن كـــل قـــنس
هُ مُرسَـــلٌ - تداعبـــه الريـــح - لى منكبيـــه مثـــلَ الـــدمَقْس
الطيـــورُ الطِّـــراب تشـــدو حواليـــه ، وتلغـو في الـدوح مـن كـلِّ جنس
وتَـــراه عنـــد الأصـــيل لـــدى الجـــدرنـــو للطـــائر المتحسيِّ ـــــ
و يُغنِّـــي بـــين الصـــنوبر أو يـــرنـــو إلى سُـــدْفة الظـــلام المسيـــ
ــإذا أقبـــل الظـــلام وأمســـتْ ما َت الوجـود في الكـون تُغْسي ـ[1]
ان في كوخـــه الجميـــل مُقيمـاً ـأل الكـــونَ في خشـــوع وهمـــس
ـن مصـــبِّ الحيـــن أيـــنَ مـــداهُ ؟ .. صـميم الوجـــود أيَّـــانَ يُـــرسي ؟
ــج الـــورود في كـــلِّ واد شـــيد الطيـــور حـــينَ تمُسي ـــ
ـزيم الريـــاحِ في كـــلِّ فـــجٍّ ـوم الحيـــاةِ مـــن أمـــس أمـــس
ـاني الرعـــاةِ أيـــنَ يواريـــها سـكونُ الفَضـا ؟ وأيَّـان تمُسي ـ ؟

* * *

ــذا يصرِ ـف الحيـاةَ ويُفنـــي حلقـات السـنين : رسـاً بحـرس
لهـا مـن معيشـةٍ في صـميم الـــاب تُضـحي بـين الطيـور وتمُسي ـ!
ـا لهـا مـن معيشـةٍ لم تدنِّـــفـوسَ الـورى بخبـث ورجـس
ا لهـا مـن معيشـةٍ هـيَ في الكـويـــاةٌ غريبـــةٌ ذاتُ قُـــدسِ

---

(١) تغسي : تظلم.

الأبد الصغير

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ ١٩/ ٢/ ١٩٣٠.

ا قلـبُ !ـكَ مـن دنيـا محجَّـبة   كأنهـا حـين يبـدو فجرهـا «رمُ»
يا قلب !كم فيك من كـون قد اتَّقدت   الشموسُ وعاشت فوقَه الأممُ
ا قلـبُ ! فيكَ مـن أفـق تنمِّقـهُ   ـبُ تـتجلى ، ثـمَّ تنعـدمُ
قلبُ !فيكَ من قبرٍ قـانطفأتْ   الحيـاةُ وضـجَّتْ تحتَـهُ الـرممُ
قلبُ !كَ من غابٍ ومن جبلٍ   ي بـه الـريحُ أو تسمو به القـ ـممُ
قلبُ !َ من كهف قد انبجستْ   الجداولُ تجري ما لها لجُمُ
ـ، فتحمل غصناً مزهراً نضراً   وردةً لم تشوِّه حُسنَها ـدَمُ
حلةً جرَّها التيارُ مندفعاً   بحـار ، تُغنِّي فوقَها الـدِّيمُ
طائراً ساحراً ميتاً ، قد انفجرتْ   ـه جـراحٌ جمَّـةٌ ودمُ
ا قلـبُ !كونٌ مدهشٌ عجبٌ   أل النـاسُ عـن آفاقـه يجمـوا
ك الأبدُ المجهولُ قد عجزتْ   ى واكفَهَـرَّتْ حولـكَ الظّلمُ !

* * *

ا قلبُ !ِ مسرَّات وأخيلة   ـذة ، يتحـامى ظ لَّهـا الألمُ
ـت لفجركَ صوتاً حالماً ، فرحاً   ـانَ ، ثم تـوارتْ وانقضى الـنغمُ
ـمْ رأى ليلُـك الأشباحَ هائمةً   ذعورةً تتهاوى حولهَا الـرُّجُمُ
ـرفَ الألمُ الدامي بأجنحة   اللهيب ، وأنَّ الحزنُ والندمُ
م مشتْ فوقَك الـدنيا بأجمعها   تـوارتْ ، وسار الموتُ والعدمُ !
ـدتْ حولَـكَ الأيَّامُ أبنيـةً   الأناشيـد ، تُبنـى ، ثمَّ تنهـدمُ

* * *

ـي الحياةُ بماضيها وحاضرها   ـبُ الشمسُ والشطآنُ والقممُ
أنتَ الخضمُّ الرحبُ ، لا فرحٌ   على سطحِك الطاغي ، ولا ألمُ

* * *

قلبُ ! م قد تملَّيتَ الحياة ، وكم ها م ر حاً ما مسَّك السأمُ
. حتَ من ليلٍ ومن شَفَق ، صباحٍ توشّي ه السُدُمُ
م نسجتَ من الأحلام أرديةً د مزقتها الليالي وهي تبتسمُ
كم ضفَّرت أكاليلاً موردةً ارت بها زعزعٌ تدوي وتحتدمُ
م رسمتَ رسوماً لا تشابهها ذي العوالمُ والأحلامُ النُظُمُ
ا ظُلَلُ الفردوسِ حافلةٌ لحور ثم تلاشتْ واختى الحلُمُ
بلو الحياةَ ، فتُبليها وتخلعُها تجدٌ حياة ما لها قَدَمُ
ت أنتَ : خالدٌ نَضر مثل الطبيعة : يْبٌ ولا هرمُ !

صفحة من كتاب الدموع

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ ٧/ ٦/ ١٩٣٠.

اه الأمسُ ، وأطربه شجاه اليومُ ، فما غده ؟
د كان له قلبٌ ، كالطفل ، دُ الأحلام تهدهده
ذْ كان له مَلَكٌ في الكون ل الطلْعَة ، يعبده
وْف الليل ، يناجيه أمامَ الفجر ، يمجده
وعلى الهضبات ، يغنّيه ات الحب ، ويُنشده
ولاه لما عَذُبَتْ في الكون مصادره وموارده
ولَمت بالشّعْر الحيّ مشاعره وقصائده
نشي في الغاب فتَتْبَعه راح الحُبّ ، وتنشده
ى الآفاقَ فيُبْصر ها مُراً في النُّور ، تُراصده
رى الأطيارَ ، فيحسبُها حلامَ الحب تغرده
ويرى الأزهار ، فيحسبها مات الحب توادده
فيخال الكون يناجيه ! جمال العالم يسعده !
نجومُ الليل تضاحكه ! نسيمَ الغاب يطارده !

يخـــال الـــوردَ يداعبـــه … حـــاً ، فتعابثـــه يـــده ! ..
يـــرى الينبـــوعَ ، ونَضرـــتَه ، … ـــيمُ الصدّ ـــبْح يجعِّـــده
يـــرُ المـــاء لـــه نَغَـــمٌ … ـــمات الغـــاب تـــردده
ويـــرى الأعشـــاب وقـــد ســـمقت … بـــين الأشـــجار تشـــاهده
ـــافُ الطِّفـــل تُنَمِّقُهـــا … فيجـــل. «ـــب» ويحمـــده

* * *

يـــا للأيـــام ! ـــم سرَّت ْ … نلْبـــاً في النـــاس لتكمـــده
هـــي مثـــل العـــاهر ، عاشـــقها … تســـقيه الخمـــر .. ، وتطـــرده !
ـــكَ اليـــومُ حلاوتهَـــا … الشـــهد ، ليســـلبَها غـــدُه !

* * *

ـــالأمس يعانقهـــا فرِ حـــاً … ـــاجعُها ، فتُوَسِّ ـــده
يـــومَ ، يُســـايرها شَـــبَحاً … ـــناه الحـــزنُ ، ونكّـــده
يتلـــو في الغـــاب مراثيـــه … ـــذوعُ السرَّ ْ ـــو تســـانده
ويـــماشي النـــاس ، ومـــا أحـــد … ـــنهم يشـــجيه تفـــرُّده
ـــل الوحشـــةِ مَسرْ ـــاه … وبكهـــف الوحـــدة مرقـــده
أصـــوات الأمـــس تعذِّبـــه … يـــال المـــوت يهُ ـــدِّده

* * *

ـالأمس لـــه شدَ ـــفقٌ في الكـــون … ـــء الأفْـــقَ تـــورُّدُه
ـــومَ ، لقـــد غشَّ ـــاه الليـــلُ … ـــما في العـــالم يُسْ ـــعده
ـــاه الأمـــسُ وأطربـــه … وشـــجاه اليـــوم ، فـــما غـــده ؟

إلى عذارى أفروديت

(١) الجمال المنشود

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ ١٩/ ٧/ ١٩٣٠.

يا عذارى الجمال ، والحب ، والأحلام ، … بـــل يـــا بهـــاء هـــذا الوجـــود !

د رأينـــا الشـــعورَ منســـدلات ت ْ حســـنَها صـ ـــباحُ الـــورود
ورأيـــن الجفـــون تبســـم .. ، أو تحلـــم بـــالنور ، بـــالهوى ، بالنشـــيد ..
لخـدودَ ، ضرَّ جَـهـا السِّـحْرُ ، فآهـــاً مـــن ســـحر تلـــك الخـــدود !
رأينـا الشـفاهَ تبسـم عـن دنْيـا ن الـــورد ، غضـّـــة ، أمْلـــود
رأينـا النهـودَ تهتـزُّ ، كالأزهـار في نشـــوة الشـــبابِ الســـعيد
فتنـــةٌ ، تـــوقظ الغـــرام وتذكيـــه ، ولكـــن مـــاذا وراء النهـــود ؟
ما الذي خلْف سحرها الحالم ، السكران ، في ذلـــك القـــرار البعيـــد .. ؟
أنفـوس جميلـةٌ ، كطيـور الغـاب تشـــدو بســـاحر التغريـــد
ـاهرات ، كأنهـا أرَجُ الأزهـار في مولـــد الربيـــع الجديـــد ؟
ـوبٌ مُضـيئة ، كنجـوم الليـل ـوَّاعةٌ ، كغـــض الـــورود ؟
ـلامٌ ، كأنــه قطَــعُ الليــل ، ولٌ يُشـيبُ قلـبَ الوليـد
ضـمٌّ ، يمـوج بـالإثم والنُّكـر ، والشر ، والظـلال المديـد ؟
أدري ، فـرُبَّ زهـر شـذيً قاتـل رغـم حسـنه المشـهود
ـانكنَّ الإلـه مـن ظلمـة الـروح ـن ضـ ـلة الضـمير المُريـد
ـل النفـوس ليـلٌ مَرُيـعٌ رمـديٌّ الأسـى ، شـنيع الخلـود
ـرزح القلـب فيـه بـالألم المـرّ ، ويشـقى بعيشـه المنكـود
وربيـع الشـباب يُذبلـه الـدهر ، ويمضي بحسـنه المعبـود
ـير بـاق في الكـون إلا جمـال ـوحٌ غضـّاً علـى الزمـان الأبيـد

(٢) طريق الهاوية

يا عـذارى الجمال ، والحـب ، والأحـلام ـل يـا بهـاءَ هـذا الوجـود !
ـق البلبـل الجميـل ليشـدو لُقْـت نَّ للغـرام السـعيد
وجـودُ الرحيـبُ كـالقبر ، لـولا ا تجـلَّيـنَ مـن قُطـوب الوجـود
ـاةُ التـي تخـرُّ لهـا الأحـلامُ ـوتٌ مثقـلٌ بـالقيود ...
ـباب الحبيـبُ شـيخوخةٌ تسـعى إلى المـوت في طريـق كـؤود ...

ربيعُ الجميلُ في هاته الدنيا ف يُذوي رفيفَ الورود ...
رودُ العذابُ في ضفّة الجدول وكٌ، مُصفّحٌ بالحديد ...
الطيورُ التي تُغنّي، وتقضي يْشها في ترنمٍ وغريد ؟
نها في الوجود تشكو إلى الأيّام عبء الحياة بالتغريد ...
والأناشيد إنها شهقات تتشظّى من كل قلب عميد ...
صورة للوجود موْهاء، لولا فقُ الحسن فوق تلك الخُدود

* * *

ا زهور الحياة، للحب أنتنَّ كنه مخُيفُ الورود
بيلُ الغرام جمٌّ المهاوي افرُ الهول، مستراب الصعيد
مَ ما فيه من جمال وفنٍّ قريٌّ، ما إنْ له من مزيد
يدَ، تُسْكِرُ المَلأَ الأعلى، جِي جوانحَ الجلمود
وأريج، يكاد يذهب بالألباب ا بين غامضٍ وشديد
بيلُ الحياة رحْبٌ، وأنتنَّ اللواتي تفرشنه بالورود
ن أردتُنَّ أن يكون بهيجاً ئع السحر، ذا جمال فريد
ك، يُدمي الفضيلةَ والحبَّ ويقضي على بهاء الوجود
إن أردتن أن يكون شنيعاً، م الأفقِ ميِّتَ التغريد

يا حماة الدين

نظم الشاعر هذه القصيدة، وكُتب التاريخ بخط الشاعر ١٦ جمادى الأولى ١٣٤هـ ولم أجد هذه القصيدة إلا في الديوان، وأعتقد أنها بتاريخ ١٣٤٩هـ.

قد نام أهل العلم نوماً مغنطَساً م يسمعوا ما ردّدَتهُ العوالمُ
لكن صوتاً صارخاً، متصاعداً الروح يدري كنهَه المتصامِمُ
وقظُ منهم كلَّ من هو نائمٌ لقُ منهم كلّ من هو واجم

* * *

سكتم حماةَ الدين ! سكتة واجم | متم بملء الجفن ، والسيلُ داهم
كتم وقد شد مدَّتْ ظلاماً غضونه | م كفرُ ثائر ومعالم
اكب إلحاد وراء سكوتكم | ج ، وها إنّ الفضاء مآثم
وا فليلُ النوم ولىَّ شبابُه | ت لـ لألاء الصباح علائم
فدون ضجيج الفاسقين سكينةٌ | هي المَوت ، مما أورثته التمائم
عوائد تحيي في البلاد نوائبا | دٌ قوام الدين ، والدينُ قائم
وا وهبوا هَبَّةً ضيغميَّةً | جموا ، فالموتُ في الجبن جاثمُ
دون نقاب الصمت تنمو ملامح | ت الشر الذي لا يقاوَمُ
تَّ في زنْد الديانة معشرٌ | ثاروا على الإسلام مَن قد يهاجم
الحق ، ما هذي الزوايا وأهلها | وى مصنع فيه تُصاغُ السخائم
لحى الله من لم تستثره حميةٌ | على دينه ، إن داهمته العظائم
لحى الله قوماً ، لم يبالوا بأسهمٍ | صوّبها نحو الديانة ظالم

شجون

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ ٢٨/ ١٠/ ١٩٣٠، وهي تجربة ترفد بالتأمل وإن كانت معاناة مخضبة بالتشاؤم وقد حاول الشاعر فيها فهم الكون وفهم نفسه.

عجباً لي ! أن أفهَمَ الكونَ ، | ونفسي لم تستطع فهم نفسي !
دْ من حقائق الكون إلاّ | ي في الوجود مُرْتادُ رمس
لٌ دهر يمُرُّ يفجع قلبي | ليت شعري ! الزمان المُؤَسِّي
في ظلال الكهوف أشباحُ شؤمٍ | بهذا الفضاء أطيافُ نحس
القصور أنّاتُ حُزْن | وبتلك الأكواخ أنضاء بؤس !
لفضاءُ الأصمُّ يعتسف النـ | س ويقضي ما بين سيف وقوس !

* * *

هذه صورة الحياة وهذا | نهُا في الوجود ، من أمس أمس

صــــورةٌ للشـــقاء دامعـــة الطـــرف   ـــونٌ يســـودٌ في كـــل طـ ِ ـــرس

الأشواق التائهة

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ ٢٦/ ١٢/ ١٩٣٠.

ـــا صـــميمَ الحيـــاة إني وحيـــد   دلجٌ تائـــهٌ فـــأينَ شروقـــكْ ؟
صـــميمَ الحيـــاة إنيِّ فـــؤاد   ائعٌ ظـــامئٌ فـــأينَ رحيقـــكْ ؟
ـميمَ الحيـــاة قـــد وجـــمَ النـــايُ   ِغـــام الفضـــا فـــأينَ وقـــكْ ؟
ـميمَ الحيـــاةِ أيـــنَ أغانيـــكِ   ـت َ النجـــومِ يُصـــغي مشـــوقكْ ؟

* * *

ـــت ُ في فجـــرك الموشـــح بـــالأحلام   ـــراً يـــرفٌّ فـــوقَ ورودكْ
حالمـــا ينهـــل الضـــياء ويُصـــغي   ـــك في نشـــوة بـــوحيِ نشـــيدكْ
ـم جـــاء الـــدجى فأمسـيتُ أوراقـــاً   ـداداً مـــن ذابـــلاتِ الـــورو
وضـــباباً مـــن الشـــذى يتلاشـــى   ـــول الـــدُّجى وصـــمتَ الوجـــود
في فجـــركَ المغلـــفِ بالســـحرِ   ـــاءً مـــن النشـــيد الهـــادي
ِســـحاباً مـــنَ الـــرؤى يتهـــادى   ـــمير الآزال والآبـــــاد
ياءً يُعـــانقُ العـــالمَ الرحـــبَ   ـــي في كـــلِّ خـــاف وبـــادي
وانقضى الفجـر ، فانحوتُ مـن الأفـق   رابـــاً إلى صـــميمِ الـــوادي

* * *

ـميمَ الحيـــاةِ كـــمْ أنـــا في الـــدنيا   ـــبٌ أشـــقى بغربـــةِ نفســيـــ
ـــين قـــومٍ لا يفهمـــون أناشـــيدَ   فـــؤادي ولا معـــاني بـــؤسي
ـــود مكبـــلٍ بقيـــود   ، في ظـــلامِ شـــكٍّ ونحـــسِ
ـــني وضُ ـــمَّني لـــكِ كالماضـــً   ـــي هـــذا الوجـــودُ علَّـــة يـــأسي

* * *

ـد في الوجود إلاَّ شقاءً　　ر مدياً ولذةً مضمحلهْ
ـاني يُغرقُ الدمعُ أحلاها　　يُفني يمٌّ الزمان صداها
اشيدَ يأكلُ اللهب الدامي　　ر اتها ويُبقي أساها
ـداً تموتُ في قبضةِ الأشـ　　ـواكِ ... ما هذا الحياةُ المملهْ

* * *

ـأمٌ هذه الحياةُ معادٌ　　ـباحٌ يكرٌّ في إثرِ ليلِ
ليتني لم أفد إلى هذه الدنيا　　تسبحِ الكواكبُ حولي
ـي لم يُعانقِ الفجرُ أحلامي　　يَلثمِ الضياءُ جفوني
ـي لم أزلْ كما كنتُ ضوءاً　　ائعاً في الوجودِ غيرَ سجين



قصائد عام ١٩٣١

وعددها إحدى عشرة قصيدة:

- أحلام شاعر أو أمل شاعر.
- حيرة أو ؟
- أنا أبكيك للحب.
- صلوات في هيكل الحب.
- فكرة الفنان.
- قلب الأم.
- قيود الأحلام.
- رثاء فجر.
- أبناء الشيطان.
- أراك.
- سر النهوض.

أحلام شاعر

أو: أمل الشاعر

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ ٤/ ٤/ ١٩٣١، والقصيدة من نوع الحلم الرومانسي المأثور الذي يعني التفرد والاعتزال بين أحضان الطبيعة ابتعاداً عن أذى البشر وشرورهم.

،َ لي أنْ أعـيش َ في هـذه الدنـ ـيا سـعيداً بو حـدتي وانفـرادي
ـَ العمـرَ في الجبـالِ وفي الغـا ، وبيـنَ الصـنوبر الميـاد
،َ لي مـن شـواغلِ العيشِ مـا يصـ ـرِفُ نفسي عـن اسـتماعِ فـؤادي
أرقـب المـوت والحيـاة وأصـغي لحـديث الأزال والآبـادي
ـي مـعَ البلابـلِ في الغـاب أصـغي إلى خريـر الـوادي
ـاجي النجـومَ والفجـرَ والأطـ يارَ والنهـرَ والضيـاءَ الهـادي
شـةً للجـمال والفـنِّ أبغيـ ـها بعيـداً عـن أمتـي وبـلادي
نـيِّ نفسيـ بـأحزانِ شـعبي و حـيٌّ يعـيش عـيش الجـماد
وبحسـبي مـن الأسـى مـا بنفسيـ ـف مُسـتحدَث وتـلاد
وبعيـداً عـن المدينـة والنـا س بعيـداً عـن لغـو تلـك النـوادي
ِ مـن معـدن السـخافة والإفـ ك ، ومـن ذلـك الهـراء العـادي
ـنَ هـو مـن خريـرِ سـاقيةِ الـوادي خفـق الصـدى وشـدوُ الشـادي
يـفُ الغصـون نمقهـا الطـ وهمْـس النسـيم لـلأوراد
ـذه عيشـةٌ تُقدِّسـها نفسيـ :عـو لمجـد ها وأنـادي



قيود الأحلام

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ ٢٤/ ٦/ ١٩٣١.

ِ دٌّ أنْ أحيـا بفكـرة شـاعر فـأرى الوجـودَ يضـيق عـن أحلامـي
ّ إذا قطّعـتُ أسـبابي مـع الـدنيا عشـتُ لوحـدتي وظلامـي

في الغاب ، في الجبل البعيد عن الورى		حيث الطبيعة ، والجمال السامي
عيشَ ـــةَ زاهــد مُتَنَسِّــك		ـــا إنْ تُدَنِّســه الحيــاة بـــذام
ـــرَ الجماعـــةَ للجِّبــال ، تورُّعــاً		عنهــا وعــن بطــش الحيــاة الــدامي
تمشي ـــ حواليْـــه الحيـــاة كأنهـــا		لحلــمُ الجميــل ، خفيفــةَ الأقــدام
ـــرُّ أمـــواج الزمـــان بهيبــة		ـــيَّة ، في يمِّهـــا المترامـــي
فـــأعيش في غـــابي حيـــاةً ، كلهـــا		لفـــنِّ للأحـــلام ، للإلهـــام
كنننـــي لا أســـتطيع ، فـــإنَّ لي		مـــا ، يصـــدُّ نانهُـــا أوهـــامي
ـــغارَ إخـــوان ، يـــرون ســلامهم		ي الكائنـــات معلَّقـــاً بســـلامي
الأب الحـــاني ، فكنـــتُ لضـــعفهم كهْفـــاً يَصُـــدّ غوائـــلَ الأيـــام
ـيهم وَهَـــجَ الحيـــاة ، ولفحَهـــا		ـــذود عـــــنهم شرَّةَ الآلام
لكبَّـــلُ في سلاســـلَ ، حيَّـــة ،		ـــحَّيْتُ مـــن، بهـــاَ أحلامـــي
الـــذي ســـكَنَ المدينـــة ، مُكْرَهـــاً		شـــــى إلى الآتي بقلـــــب دام
ـــغي إلى الـــدنيا الســـخيفة راغـــماً		ويعـــيش مثـــل النـــاس بالأوهـــام
ـــا الـــذي يحيـــا بـــأرض ، قفـــرة		ـــدحوَّة للشـــــكِّ والآلام ...
جمـــتْ بيَ الـــدنيا عـــلى أهوالهـــا		ضــمِّهاً الرحــب ، العميــق الطــامي
ـــن غـــير إنـــذار فأحمـــل عُـــدَّتي		أخوضـــــه كالســـابح العـــوّام
حطّمـــتْ نفسيِّـــ عـــلى شـــطآنه		ـَّجـــتْ في جـــوِّه آلامـــي

* * *

ـــل في الـــدنيا التـــي في شرْعِهـــا نُ الطّعـــام كريشـــةِ الرســـام ؟

حيرة

أو: [؟]

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ ١٠/٨/١٩٣١، وقد وردت في الديوان بلا عنوان (؟) ونشرتها مجلة المباحث التونسية بعنوان (حيرة).

رى هيكـــل الأيـــامِ يعلـــو مشـــيداً		ـد أن يـــأتي عـــلى أسِّـــهِ الهـــدمُ

فيصــبح مــا قــد شــيد الله للــورى بــاً كــأن الكــل ّ في أمســه وهــم ُ
ل لي َ مــا جــدوى الحيــاة وكربهــا وتلك التـي تـذوي وتلـك التـي تنمـو؟
ـوج ٌ تغذ ِّيــه الحيــاة ُ لَبانه َ ــا وفـوج غـدا تحـت الـتراب لـه ردم؟[1]
وعقــل مــن الأضــواء في رأس نــابغ عقــل مــن الظلــماء يحملــه فــدم ُ ؟!
وأفئــدة حسرـــى تــذوب كآبـــة أفئـدة سـكرى يـرف ٌّ لهـا الـنجم ؟
تعس ِ الــورى شــاء الإلــه وجــود َهم فكــان لهــم جهــل وكــان لهــم فهــم ..

رثاء فجر

نظم الشاعر أبياته بتاريخ ١٤/ ٩/ ١٩٣١.

يهـــا الغـــاب ، المُنَمَّـــق ُ بالأشـــعَّة ِ والـــورود ْ !
ـــا أيهـــا النـــور النقـــي ُّ ! يه ٌّ ـــا الفجَـــر البعيـــد !
ن اختفيـــت ؟ ومـــا الـــذي أقصـــاك َ عـــن هـــذا الوجـــود
! قـــد كانـــت حيـــاتي فيـــك حالمـــة ً ، تميـــد
بـــين الخمائـــل ، والجـــداول ، والـــترنم ، والنشـــيد
ـــمي لنجـــواك َ الجميلـــة ، وهـــي أغنيـــة ُ الخلـــود
ـيش في كـــون مـــن الغَفَـــلات ، فتَّـــان ، ســـعيد
! غنّـــى الصَـــباح ُ ، فَدَ َم ْـــد َم َ الليـــل ً ُ العتيـــد
ألّق الـــنجم ُ الـــوضيء ُ ، فـــأعْتم َ الغـــيْم ُ الركـــود
ومضى ـــ الـــردى بســـعادتي ، وقضى ـــ عـــلى الحـــب الوليـــد

(١) ورد في الديوان عجز البيت :وفوج يُرى تحت التراب له ردم.

أنا أبكيك للحب

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ ٢١/ ٩/ ١٩٣١.

ـــــت يــــا أمسيـــــ أبكيـــــك لمجـــــد أو لجـــــاهْ
ـــــلذبَتْهُ منِّــــــي الـــــدنيا ، وبزَّ تنـــــي رداه
ـــــا أحتقـــــرُ المجـــــدَ ، وأوهـــــامَ الحيـــــاهْ

* * *

ْـــــــر ، بلغـــــتْ منـــــهُ الليـــــالي منتهـــــاهْ
دَ ــــــتٍ في خضـــــمِّ الـــــزمنِ الطـــــاغي قـــــواهْ
ـــــا مـــــا زلـــــت في فجـــــرِ شـــــبابي أو ضـــــحاهْ

* * *

لا أبكيـــــكَ يـــــا أمسيـــــ ، إذا مـــــا قلـــــتَ آهْ
عـــــيمٍ لم ينـــــل قلبـــــي منـــــه مشـــــتهاهْ
ـــــوا الأيـــــامِ في الـــــدنيا كـــــما شـــــاءَ الإلـــــهْ

* * *

ـــــما أبكيـــــك للحـــــب ، الـــــذي كـــــان بهِ ـــــاهْ
يمـــــلأ الـــــدنيا ، ـــــأنّى سرتُ في الـــــدنيا أراهْ
ـــإذا مـــــا لاحَ فجـــــرٌ ، كـــــان في الفجـــــر ســـــناهْ
غـــــرد طـــــيرٌ ، كـــــانَ في الشـــــدو صـــــداهْ
ـــــا ضـــــاع عِطـــــرٌ ، كـــــانَ في العطـــــر شـــــذاهْ
ـــــا رفّ زهـــــرٌ ، كـــــان في الزَهـــــر صـــــباهْ
و في الكـــــون جمـــــالٌ ، يمـــــلأ الأفـــــقَ ضـــــياهْ
ـــــوَشيٍّ هـــــذه الأكـــــوانُ ـــــحرِ رُؤَاهْ
وهـــــو في قلبـــــي - ـــــذي عانقـــــه الفجـــــرُ - لِـــــهْ !
ـــري الســـــحرِ ، ممِـــــراحٌ وديـــــعٌ في ســـــماهْ

ــــــج ُ الأحـــــــلامَ في قلبـــــــي بأضـــــــواء الحيـــــــاهْ
ـــــي فأنسَ ــــــــــى في مسر ّ ـــــــــات غ نـــــــاهْ
مــــا في الكـــــون ِ مــــن حـــزن ٍ وأفَــــراحٍ عـــداهْ

أبناء الشيطان

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ ٣٠/ ٩/ ١٩٣١.

ُ نـــاس هــــذا الــــورى ؟ مــــا أرى إلاّ مرايـــا ، شــــقيَّة ، مجنونــــه
ـا الحيـــاةُ في ثــورة اليـــأسِ مـــن الشر ّ ـــ ، كــــي ْ تجُ َـــنّ جنونـــه
مـــت ْ لـــه المعابـــدَ ، في الكَـــون ، وصـــلَّت لـــه وشــادت حصـــونهْ

❊ ❊ ❊

م فتـــاة ٍ ، جميلـــة ٍ ، مـــدحوها ِتغنَّــو ْا بهـــاي ْ يُسْ ـــق ِ طُوها
ـــإذا صـــانت الفضـــيلة عابوهـــا ، وإن باعـــت ْ الخنـــا عبـــدوها
ـبحَ الحســـنُ لعنـــةً ، تهـــبط الأرض ، ليغـــوَى أبناؤُ هـــا وذووهـــا

❊ ❊ ❊

شـــقي ، طـــاف المدينـــةَ ، يســـتجدي ليحيـــا ، فخيَّبـــوه احتقـــارا
ا فيـــه نزعـــةَ الشر ّ ـــ ، فـــانفض ّ عـــلى النـــاسِ فاتكـــاً جبَّـــارا
الر ّعـــبَ في القلـــوب ِ ، ويـــذك ِي -يـــثما حـــل ّ - في الجـــوانح نـــارا

❊ ❊ ❊

بـــي قـــد جـــاء للنـــاس بـــالحق ، فكـــالوا لـــه الشـــتائمَ كـــيْلا
نـــادَو ْا بـــه : «إلى النـــار ! النـــار بـــروح الخبيـــث أحـــرى وأوْلى»
ـمّ ألقـــو ْه في اللهيـــب ، وظلّـــوا ـــلأون الوجـــودَ ر ُبـــاً وهـــو ْلا
ـــعوب ضـــــعيفة ، تتلظَّــــى ِ جحـــيم الآلامِ عامـــاً فعامـــا
ّ الظلـــومُ يَعْصر ٍ ُ ـــمـــن ـــا الس ّـــود ِ لَـــذةً ومُـــدَاما

حسَّ ـــاه ضــاحكاً .. ، لا يراهـــا ... قَـــت في الوجـــود إلاّ طعامـــا !

* * *

حســــبتُها مَعْبَـــدَ الحـــب ، فألفيْــــتُ لبَهـــا مَــــاخورا !
ــل وجدتـــه في ضـــياء الفجـــر قلبـــاً مدَنســـاً شرّ يـــرا !
ـــيمٍ أجلّـــه النَّـــاس ُ حتـــى لـــنَّ في نفســـه إلهـــاً صـــغيرا !

* * *

ويعـــيش ُ كالفـــأس ، هـــدَّاماً ، لـــيُعْلي بـــينَ الخـــراب بنـــاءَهْ
ع ، يُطـــاو ل ُ الجَبـــلَ العـــالي ، فللـــه مـــا أشـــغَبـــاءَهْ !
ءً ، تاريخُـــه في سِـــجِل الشرّ ــــ : لك ، وقِحَّـــةٌ ، ودنـــاءهْ

* * *

ان ظنّـــي أنَّ النفـــوس كِبـــارٌ جـــدت ُ النفـــوس شـــيئاً حقـــيرا
ـه ُ الحيـــاةُ ثـــمَّ اســـتمرَّ تْ ـــذر ُ العـــالمَ َ العـــريض شرورا
صدوا الشَّوْكَ ... يا بنيهـا وضـجّـوا امْـــلأُوا الأرض والســماء حبـــورا

صلوات في هيكل الحب

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ ١٣/ ١٠/ ١٩٣١.

ـــةٌ أنـــت كالطفولـــة كـــالأحلام ـــاللحنِ ، كالصـــباح الجديـــد !
كالســماء الضَـحوك ، كالليلـة القمـراء ـــالورد ، كابتســـام الوليـــد !
يـــا لهـــا مـــن وداعـــة وجمـــال شـــباب مـُــنعم أملـــود !
ـا لهـــا مـــن طهـــارة تبعـــث ُ التقديـــ في مهجـــة الشـــقي العنيـــد !
ـا لهـــا رقـــةٌ ، يكـــاد يـــرف ُّ الـــور ـُ منهـــا في الصـــخرة الجلمـــود !
شيء تـــراك ؟ هـــل أنـــت «فينيـــ س» تهـادت بـين الـورى مـن جديـد؟
لتعيـــد الشـــباب والفـــرح المعســ ـول للعـــالم التعـــيس العميـــد !
أم مـــلاك الفـــردوس جـــاء إلى الأر يحيـــي روحَ الســـلام العهيـــد

ـا أنـت ؟ أنـت رسـم جميـلٌ ـري مـن فـنٍّ هـذا الوجـود
مـا فيـه مـن غمـوض وعمـق ـال مقـدّس معبـود !
مـا أنـت ؟ أنـت فجـر مـن الـ ـحر تجلّى لقلبي المعمـود !
فـأراه يـاةَ في مونـق الحسـن جـلّى لـه خفايـا الخلـود !
، روح الربيـع تختـال في الـدّ ـا ، فتهتـز رائعـات الـورود
ـبَّ الحيـاةُ سكرى مـن العطـر ، ـدوي الوجـودُ بالتغريـد !
ـصرتْك عينـايَ تمشـينَ بخطـو ، موقّـع كالنشـيد
ىَ القلـبُ للحيـاة ورفَّ ـرُ في حقـلِ عمـري المجـرود
ـت روحـي الكئيبـةُ بالحـبِّ ـت كالبلبـلِ الغرِّيـد !
ـنـت تحيـينَ في فـؤادي مـا قـد ت في أمسي الـسعيد الفقيـد
شـيدين في خرائـبِ روحـي ا تلاشـى في عهـديَ المحـدود
نِ طمـوح إلى الجـمال ، إلى الفـنِّ إلى ذلـك الفضـا بعيـد
ـين رقّـة الشـوق والأحـلام الشـجو ، والهـوى في نشـيدي ! (١)
ـدَ أنْ عانقـتْ كآبـةُ أيـامي ـؤادي وألجمـتْ تغريـدي
ت أنشـودةُ الأناشـيد غنّـا ـه الغنـاء ربُّ القصيـد !
ـكَ شـبَّ الشـباب وشـحه الـ ـرُ ، وشـدوُ الهـوى وعطـرُ الـورود
ـاءى الجـمالُ يـرقصُ رقصـاً ـيّاً عـلى أغـاني الوجـود !
ـت في أفُـقِ روحـك أوزا لأغـاني ، ورقّـة التغريـد !
ـت في الوجـود كلحـن ـري الخيـال ، حلـو النشـيد
ـوات سـكرانة بالأناشـيد ـوت كرجـع نـايٍ بعيـد !
ـوام يكـاد ينطـق ألحـان ـل وقفـة وقعـود !
شيء موقّـعٌ فيـك حتّـى ـةُ الجيـد ، واهتـزازُ النهـود !!
ـت ... الحيـاة في قدسـها السـامي وفي سـحرها الشـجيِّ الفريـد

(١) وردت (والشجو) في الديوان: الشدو .

ـت ... الحيــاةُ في رقّــة الفجــر وفي رونــق الربيــع الوليــد!
ـت ...ـتَ الحيــاةُ ـل أوان رواء مــن الشــباب الجديــد !
ــت ...ـت الحيــاة في وفي عينيــك آيــات ُ ســحرها الممــدود
ـ دنيــا مــنن الأناشــيد والأحــلام، والسـحر، والخيــال المريــد !
فــوق الخيــال ، والشــعر، والفــنّ، وفــوق النهــى، وفــوق الحــدود !
ـت قــدسي ومعبــدي وصــباحي وربيعــي، ونشــوتي، وخلــودي !
ـا ابنـةَ النــور إننــي أنــا وحــدي نْ رأى فيــك روعــةَ المعبــود !
أعــيش ُ في ظلّــك العــذب ـرب حســنـك المشــهود
يشــةً للجمـال والفــنّ والإلهــام ـر والسّــنى، والسـجود !
ـةَ الناســك البتــول يُنــاجي الــربّ في نشــوة الـذهول الشــديد !
ـي الســلام والفــرحَ الروحــي، يــا ضــوءَ فجــري المنشــود !
ـ فقــد تهــدّمت ُ في كــون مــن اليــأس والظــلام مَشــيد
ـذيني مــن الأســى فلقــدْ أمسَــيْت ُ لا أســتطيع حمــلَ وجــودي
ـاب الزمــان والمــوت أمشيــ ـبء الحيــاة جــمّ القيــود
وــاشي الــورى ونفسيــ كــالقبر ، لبــي كالعــالم المهــدود !
ـةً مــا لهــا ختــامٌ وهــولٌ ـائعٌ في ســكونها الممــدود
مــا اســتخفّني عَبَــث ُ النــاس ـمت ُ في أســى وجمــود
ـمةً مُــرّةً كــأني أســتلّ شــوك ذابــلات الــورود !
وانفخــي في مشــاعري مــرح الــدنيا ـدّي مــن عزمــيَ المجهــود
بعثــي في دمــي الحــرارة علــيّ نّــى مــع المنــى مــن جديــد !
ـث الوجــودَ أنغــامَ قلــب ـبلي مكبــل بالحديــد !
الجميــل ُ يُــنعش ُ بالــدفء ـاةَ المحطّــم المكــدود !
ـذيني فقــد ســئمت ُ ظلامــي ـذيني فقــد مللــت ُ ركــودي

* * *

ـا زهــرتي الجميلــةَ لــو تــدرين مــا جــدّ في فــؤادي الوحيــد !

ي الغريب تخ ُلق ُ أكوانٌ من السحر ذات حسن فريد
موس ٌ وضاءة ونجوم ر ُ النور َ في فضاء مديد
كأنّه حلم ُ الشاعر في سكرة الشباب السعيد
ض ٌ لا تعرف ُ الحلك َ داجي ، ولا ثورةَ الخريف العتيد
ور ٌ سحريّة تتناغى بأناشيد َ حلوةُ التغريد
كأنهّا الشفق ُ المخضوب ُ ، أو طلعة ُ الصباح الوليد
غيوم ٌ رقيقة ٌ تتهادى د َ من نُثار الورود
ياة ٌ شعريّة ٌ هي َ عندي ة ٌ من حياة أهل الخلود
ل ٌّ هنيده سحر ُ عينيْك ام ُ حسن لك المعبود !
رام ٌ عليك أن تهدمي ما ء ُ الحسن ُ في الفؤاد العميد
عليك أن تسحقي آمال َ نفس تصبو لعيش رغيد
ك ترجو سعادةً لم تجدْها اة ِ الورى وسحر الوجود
ه العظيم ُ لا يَرج ُم ُ العب ، إذا كان في جلال السجود !

أراك

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ ٢٤/ ١٠/ ١٩٣١.

. ، فتحلو لديّ الحياة لا نفسي صباح ُ الأمل ْ
و بصدري و ُرود ٌ ع ذاب ٌ و على قلبي َ المشتعل ْ
ي فيك فيض ُ الحياة شّباب ُ الوديع ُ ، الثم ل
ويفتنني حر ُ تلك الشفاه رفرف من حولهن القُبَل
د ُ فيك جمال َ السماء ، ةَ وَرْد الربيع، الخض ل
َ الثلوج ، وس ِ حرْ َ المروج حَة َ بشعاع الطّفَل ْ

* * *

أ ُخْلَق ُ خَلْقاً جديداً لم أبْل ُ حرب َ الوجودْ

ولم أحتمــــفيــــه ع بئـــاً ، ثقـــيلاً ـــــن الـــذكريات التـــي لا تَبيـــدْ
ـــغاث أيـــاميَ ، الغـــابرات يهـــا الشـــقيٌّ ، وفيهـــا الســـعيدْ
ـر ُ روحـ ــي ضـــياءٌ ، رفيـــقٌ ظللــــــه رائعـــــاتُ الــــورد
ْ ـــــمعُنَي هاتـــــه الكائنـــاتُ ـق َ الأغــاني ، وحـُلْــوَ النشــيد
فص حـــولي أمـــان ، ط ــرابٌ وُ عُمْـــر خَـــليٍّ ، ســـعيد
ك فتخفـــق أعصـــابَ قلبـــي ـزٌّ مثـــلَ اهتـــزاز الـــوتَرْ
يجَـري عليهـــا الهـــوى في حنـــوٍّ َ لُـــدْناً كرطْـــب الزهَـــرْ
تخطـــو أناشـــيدُ قلبـــي ، ســـكرى ّد ، تحـــت ظـــلال القَمَـــرْ
ــــلأُني نشــــوةٌ ، لا تحُـــــدّث ـأنيَ أصـــبحتُ فَـــوق البشرـــ
ٌ بروحـــــي عنــــاقَ الوجـــــود ـما فيــه مـــن أنْفــس أو شـــجر
ـــل يَفـــرٌّ وفجـــر يكـــرٌّ م يُـــوَشي ّ رداء الســـحَرْ

فكرة الفنان

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ ٧/ ١١/ ١٩٣١، ويوضح الشاعر فيها رأيه في الفن ويدعو إلى إعمال المشاعر فيه التي تفتح كوى النفس.

عـــش بالشـــعور وللشـــعور فـــإنما اك كـــونُ عواطـــف وشـــعور
ت ْ عـلى العطـف العميـق ، وإنهـا ف ٌّ لـو شـيدت ْ عـلى التفكـير
ـل ٌّ جامـــدةَ الجـــمال ، كئيبـــةً يكـــل المتهـــدّم ، المهجـــور
ـل ٌّ قاســـيةَ الملامـــح جهمـــةً ـالموت .. ـــرةً بغـــير سرور
ـــب ٌّ يـــرقص ُ وقَهـــا ، متغنّيـــاً اس بـــينَ جـــداول وزهـــور
ّدَ الوجنـــات ســـكرانَ الخُطـــى ـــنْ مـــرح ، وفـــرطِ حبـــور
تكلّلاً بـــالورد ينشـــر ُ للـــورى أوراق «اللـــــذّة » نظـــــور
لاَّ ، ولا الفـــنٌّ الجَميـــل ُ بظـــاهر ن تحـــتَ عمامـــةَ مـــن نـــور
تو ّ شـــحالســـحر يـــنفخ ُ نايَـــه المشـــ ـوبَ بـــينَ خمائـــلٍ وغـــدير

س ُ العــودَ المقــدَّس َ ، واصــفاً ــوت ِ ، للأيــــام ، للـــــديجور
في الحيــاة مــن المسر ّ ــة ، والأســى ـــحر ِ ، واللـــذّ ات ، والتغريـــر
ـاً ، ولا الأمَــل ُ المجــنح ُ منشــدٌ ـا بصـــوت الحــالم المحبـــور
َ الأناشــيدُ التــي تهَ َــب ُ الــورى َ الشــباب ِ ، وغبطــةَ العصــفور

* * *

ـل ْ شــعوركَ في الطبيعــة قائــداً ــو الخبــير ُ بتيههــا المســحور
حـ ِب َ الحيــاة صــغيرةً ومشَــى بهــا ـينَ الجماجــم والــدم المهــدور
ـدا بهــا فــوقَ الشــواهق باســماً متغنِّيـــاً ــن أعصر ـــ ودهـــور
ُ رغــمَ مشــيبه ووقــاره ال َ في الأيــام جـ َــدّ صــغير !
شيـــ فتصرـــعه الريَــاح ُ فينثنـــي رجعـــاً كالطـــائر المكســـور
ـــل يســـأل ُ نفسَ ــه متفلســفاً ـــاً في خفـــة وغـــرور [1]
ا تحُ جِّ بــه الكواكــب ُ خلفَهــا ـن سر ِّ هـــذا العَــالم المســتور
المهشَّـم بالعواصــف ِ يــا لَــهُ ن ســاذج متفلســف ِ مغــرور

* * *

وافــتح فــؤادك للوجــود وخلِّــه ـيم ِّ ، للأمـــواج ِ ، للـــديجور
لمــثلج تنشــره الزوابــع ُ للأســى ـــول ، لـــلآلام للمقـــدور
كــه يقــتحم ُ العواصــفَ هــائماً هـــا المتلبِّـــد المقـــرور
ويخـ أحشــاءَ الوجــود مقــامراً هـــا المتهيِّـــب المحـــذور
حتـــى تعانقَــه الحيـــاةُ ويرتـــوي ن ثغرهـــا المتـــأجِّج المســجور
ن ُ في الــدنيا بقلــب زاخــر ـظ المشـــاعر حـــالم مســـحور
شـــوة صـــوفيَّة قدسـ ِـية هـــي خــير مــا في العــالم المنظـــور

(١) متنطعاً : وردت في الديوان متنطساً .

سر النهوض

نظم الشاعر هذه الأبيات بتاريخ ١٢/ ١١/ ١٩٣١.

يـنهض الشـعب ُ إلا حـين يدفعـه   زم ُ الحيـاة ، إذا مـا اسـتيقظت ْ فيـه
َـب ٌّ يخـترق الغـبراءَ ، منـدفعاً   السـماء ، إذا هبَّـت ْ تناديـه
يْـد ُ يألفُـه الأمـوات ُ ، مـا لبثـوا   ـا الحيـاةُ فيُبْليهـا وتُبْليـه

قلب الأم

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ ١٦/ ١٢/ ١٩٣١.

الطفل ُ الـذي قـد كـانَ كـاللحن ِ الجميـل ْ
ـة البيضـاء تعبـق ُ في غيابـات ِ الأصـيل ْ

ـا الطفـل ُ الـذي قـد كـانَ في هـذا الوجـود ْ
ـاجي هاتـ ِـه ِ الـدنيا بمعسـول ِ النشـيد ْ(١)

لّـم النـاس َ الـبراءة ، الحبّـةَ ، والسرـور ْ
القلـوب ِ بروحـ ِـه ِ العـذب ِ النضـير ْ

ذا قـد أطبقَـت ْ جفنيْـك َ أحـلام ُ المنـون ْ
ر ُ الملائـك ِ حـول َ مضـجع ِك َ الأمـين ْ

ـح ِك َ للسماء عرائس ُ النـور ِ الحبيـب ْ
ـنَ تيجانـاً مذهّبـةً مـنَ الزهـر ِ الغـب ْ

ذا قـد جلّلتـك َ سـكينةُ الأبـد ِ الكبـير ْ
هاتيك َ القلـوب وضـمّـك القـبر ُ الصـغير ْ

ف النــاس ُ الــذينَ إلى المقــابر ِ شــيَّعوك ْ
ـوكَ مـن دنيـاهم ، حتـى كـأنْ لم يعرفـوك ْ

---

(١) حلماً : وردت في الديوان فَرِحاً.

ـم عنـكَ الحيـاةُ وحـربُ هـذي الكائنـاتْ
نَّ الحيـاةَ - ميتَ قُبيْـلَ معرفـةِ الحيـاةْ -
، قرارتُـهُ الـردى ، ونشـيدُ لجَّتِـه شـكاةْ
ـواطئِ ه القلـوبُ تـئنُ داميـةً عـراةْ
ـيش بـه العواصـفُ في العشـيَّة والغـداةْ
سـحُبُ الظـلامِ ، فـلا سـكونٌ ولا إيـاةْ
كَ أمـواجُ البحـيرة لنجـومُ اللامعـهْ
بـل الشـادي وهاتيـكَ المـروجُ الشاسـعهْ
اولُ الـوادي النضـيرِ ، برقصـها وخريرِ هـا
لك الجبـلِ الصـغيرِ ، بعشـبِها وزهورهـا
تى الرفاقُ ... نهم لبثـوا مـدىً يتسـاءلونْ
برةٍ مشبوبةٍ : «منَ اختفـى عنـا الأمـينْ» ؟
ـنَّهم علـمـوا بأنَّـك في الليـالي الداجيـهْ
ـكَ غـيلانُ الظـلامِ إلى الجبـال النائيـهْ
مثلَ الناسِ وانصرفوا إلى اللهـوِ الجميـلْ
ن الخمائل ، والجـداول ، والـروابي ، والسـهولْ
داعةَ وجهـكَ الهـادي ومنظـرَك الوسـيمْ
ونسـوا تغنيـكَ الجبصـوتكَ الحلـوِ الـرخيمْ
ضـوا إلى المـرج البهـيجِ يطـاردون طيـورهُ
زحزحـون صـخورَه ، ويعـابثون زهـورهُ
ونَ من الرمال البـيضِ والحصـبِ النضـيرْ
فـاً ، وأكواخـاً ، تُكلِّلُهـا الحشـائشَ والزهـورْ
ن منَ الربـى بـينَ التضـاحك والحبـورْ
ورد آبـدِ ، تُـزري بـأورادِ القصـورْ
ـا في النهـرِ ، قربانـاً لآلهـةِ السـرورْ

ُ في التيــارِ ، راقصــةً عــلى نَغَــمِ الخريــرْ
ل ّ نسـوك .. يعـودوا يـذكرونَك َ في الحيـاةْ
يدفنُ في ظلامِ المـوتِ حتَّـى الـذكرياتْ
لا فــؤادٌ يخفُــقُ في الوجــودِ إلى لقــاكْ
لــو بــذلَ الحيــاةَ إلى المنيّــةِ ، وافتــداكْ
ا رأى طفـلاً بكـاكَ ، وإنْ رأى شـبحاً دعـاكْ
لصوتِك َ في الوجودِ ، ولاَ يـرى إلا بهـاكْ
لنغمتـكَ الجميلـةِ ، في خريـرِ السـاقيهْ
ـة المزمــارِ ، في وَ الطيــورِ الشــاديهْ
البحـرِ المجلجـلِ ، في هـديرِ العاصـفهْ
ابـاتِ ، في صـوتِ الرعـودِ القاصـفهْ
بـة الحمــلِ الوديــعِ ، وفي أناشـيدِ الرعــاةْ
روجِ الخضرِ ـ والسـفحِ المجلّـلِ بالنبـاتْ
هة الشاكي ، وضوضـاءِ الجمـوعِ الصـاخبهْ
هقةِ البــاكي يؤجّجهــا نــواحُ النادبــهْ
ل ِّ أصــواتِ الوجــود : وبهُــا وكئيبُهــا
يمُهــا ، وعنيفُهــا ، وبغيضُــها وحبيبُهــا
كَ في صــورِ الطبيعــة : لوهـا ودميمهـا
وأليفهــا ومخيفهــا ، وحقيرهــا ، وعظيمهــا[١]
رقّــة الفجــرِ الوديــعِ وفي الليــالي الحالمــهْ
الشـفقِ البـديعِ ، وفي النجـومِ الباسـمهْ
مواجِ البحـيرةِ تحـتَ أضـواءِ النجـومْ
حرِ أزهـارِ الربيـعِ ، وفي تهاويـلِ الغيـومْ

(١) وأليفها ومخيفها : ورددت في الديوان: وحزينها وبهيجها.

ـبرق الخفـوق ، وفي هُـو يٍّ الصـاعقهْ
في ذلَّـة الـوادي ، وفي كـبر الجبـ الشـاهقهْ
د الغاب الكئيب ، وفي الورود العاوية[1]
َالليـلِ الحَـزين ، وفي الكهـوف العاريـهْ
هذا القلبَ ، في ظلماء هاتيكَ اللحـودْ ؟!
ِ قلبُ «مـٍّك» ؛ السكرى بأحزان الوجودْ !!
،َ القلبُ الذي سيعيش ُ كالشاد الضريرْ
كْوى حزن ه الداجي إلى النفَس الأخـيرْ
ـةُ النسـيان تـرحـَم حزنَـهُ ، وتـرى شـقاهْ
كـلا !؟ الأيـامُ تَـبلى في أناملهـا أسـاهْ
.َ ـفَرَت لـه الأقـدارُ إكليـل الجنـونُ
دا شـقياً ضـاحـ كاً تلهـو بمـرآهُ السـنونْ
ـو ذلـكَ بُ الـذي مهـما تغلّبـت الحيـاةْ
َ الـزمنُ المدمـدمُ في شـعاب الكائنـاتْ
الـدنيا ، وغـرَّدَ بلبـلُ الغـاب الجميـلْ
ـبـدُ ذكرياتـ ـكَ ، لا يمـلُّ ولا يميـلْ
تمشيـ فـوقَ تربتـ هـا المسر ةُ والشـبابْ
والليل ، والفجر المجنَّح ، لعواطف والسحابْ
ٌّ ، تنبتُ في مواطنـه الشـقائقُ والـورودْ
وت ، يحفـرُ أيـنما يخطـو المقـابرَ واللحـودْ
ـين فـ حجاجـ هـا اللـذاتُ راقصـةً تميـدْ
سكرى ..لامُ الورى ترنـو إلى الأفـق البعيـدْ
ُص ُ للأسى ، للّهـو ، أشـباحُ الـدهورْ

(١) الورود: جمع ورد وهو الأسد.

ربمـا ضباب المـوت في وادي الـدثور
تـورق ، ثـم تُزهـر ، ثـم ينشرهـا الصـباح
ت ، للشـوك الممزّق ، للجـداول ، للريـاح
ثغـر حـالم يفـترّ في سـهو السـرور
روض باسـم يُصـغي لألحـان الطيـور
تخفُـق ، ثـمّ تـدو ، ثـمّ يطويهـا الـتراب
أطيـار تغـرّد للحيـاة وللشـباب
تمشي في جـوار المـوت أفـراح الحيـاة
الشـحرور مـا بـين الجماجـم والرفـات
رض حالمـة تغنـي بـين أسراب النجـوم
ةَ المـاضي البعيـد وسـورةَ الأزل القـديم !



قصائد عام ١٩٣٢

وعددها ثلاث قصائد:

- حديث المقبرة.
- في ظل وادي الموت.
- الساحرة.

حديث المقبرة

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ ٣/ ٤/ ١٩٣٢.

وهو حوار فلسفي، مداره الحياة والموت، والخلود والكمال.

في ليلة مظلمة، من ليالي الصيف، خرج الشاعر بنفسه من القرية الصغيرة النائمة في سفح الجبل، وفي ذلك السكون الشامل، والظلام المركوم، أخذ يمشي بين أشجار الزيتون المزهرة في مسلك منفرد، ثم اعتلى تلك الربوة الصغيرة، حيث كانت مدافن القرية وحيث ينام الموتى في صمت الدهور.

وبين القبور الخرساء الجاثمة تحت أضواء النجوم، حيث يتحدث كل شيء بجلال الموت وتفاهة الحياة، جلس الشاعر بأقدام متعبة، ونفس ثائرة، وأجفان قد أذبلتها الأحزان، فطافت بنفسه الأحلام والأفكار والذكريات، وتقلبت أمامه صور الموت وأمواج الحياة، وتتابعت أمامه رسوم الأيام الكثيرة، ما نام منها في قلب الأزل وما لم يزل ينمو في أحشاء الأبد الكبير، وجاشت في قلبه هاته العصور والخواطر، وعجت في صدره عجيج الأمواج الثائرة، فألقاها إلى الليل في النشيد التالي:

أتفنى ابتسامات تلك الجفون؟ ... نخبو توهُّجُ تلك الخدود؟
ِ ي وُرَيْدات تلك الشفاه؟ ... وتهوى إلى الترب تلك النهود؟
نهدُّ ذاك القوامُ الرشيق ... ـل صدرٌ، بديعٌ، وجيد
يد تلك الوجوه الصِّباحُ ... رفتنةُ ذاك الجمال الفريد
ـبرٌّ فرْعٌ كجُنْح الظلام ... ـق الغدائر، جعدٌ، مديد
ُصبحُ في ظلمات القبور ... ـاءً، حقيراً، وتُرْباً، زهيد
جاب سحرُ الغرام القويِّ ... ُكرُ الشباب، الغرير، السعيد

* * *

ـوَى سماواتُ هذا الوجود؟ ... ويذهب هذا الفضاء البعيد ؟
نهلك تلك النجومُ القُدامى ؟ ... ويهرم هذا الزمان العهيد
ِ ـ صباحُ الحياة البديعُ ؟ ... يلُ الوجود، الرهيب، العتيد !

مس ٌ تـــوشي ٍّ رداء الغـــام ؟ بـــدر ٌ يبي ـــء ، وغـــيم ٌ يجـــود ؟
ـوء ٌ ، يرصـ ِّـع مـوج َ الغـــدير ؟ ـحـ ْر ٌ ، يطـــر ِّز تلـــك الـــبرود ؟
ـــر ٌ فســيح ٌ ، بعيـــد القـــرار ، ـــج ٌّ ، ويـــدوي دوي َّ الرعـــود ؟
ـح ٌ ، تمـــر ٌّ مـــرور َ المَـــلاك ، تخطــو إلى الغــاب خطْــو َ الوليــد ؟
ِعاصــفة ٌ ، مـــن بنـات الجحـيم ، ـــأنَّ صـــداها زئـــير ُ الأســـود
ـج ٌّ ، فتـــدو ِ ي حنايـــا الجبـــال وتمشي ـ ، فتهــوى صـخور النَّجــود ؟
طـــير ٌ ، تغنّـــي خـــلال الغصـــون وتهتـــف للفجـــر بـــين الـــورود ؟
ـر ٌ ، ينمِّـــق ُ تلـــك الـــتلال َ ـــل ُ م كـــل ّ ضـــوء جديـــد ؟
عبَـــق منــــه أريـــج ُ الغـــرام ح ُ الشـــباب ، الحـ ِ يـي ِّ ، السـعيد ؟

* * *

ـطو عـــلى الكـــل ِّ ليـــل ُ الفنـــاء ـو بهـا المـوت ُ خلـف َ الوجـود ..
ينشرهـــا في الفَـــراغِ المخيـــف ما تنشــر الـــورد ريـــح ٌ شر َ ود
بنضـــب يـــم ُّ الحيـــاة ، الخضـــم ـمـــد روح ُ الربيـــع ، الو َلـــود
لـــثم النـــور ُ سـ ِ ـــحـ ْر َ الخـدود ُ الأرض ُ غَـــض َّ الـــورود ؟

* * *

بـــير ٌ عـــلى الـــنفس هـــذا العفـــاء ! صـعب ٌ عـلى القلـب هـذا الهمـود !
ـــاذا عـــلى القَـــد َر المســـتمر ِّ ـــتمر َ أ النـــاس ُ طعـــم َ الخلـــود
يخ ُ ْفَـــروا بـــالخراب المحـــيط م يُفْجَ عــــوا في الحبيـــب الـــودود
لم يَســـلكوا للخلـــود المرجَّ ــــى بيل َ الـــر َّ دى ، وظـــلام َ اللحـــود
ام َ الشـــباب ُ ، وســـحر ُ الغـــرام ، ـــن ُّ الربيـــع ِ ، ولطـــف ُ الـــورود
وعـــاش الـــورى في ســـلام ، أمـــين يش ، غضـــير ، رخـــي ٍّ ، رغيـــد ؟
كـــن ْ هـــو القـــدر ُ المســـتبدُّ ـــدٌّ لـــه نو ْ حـ ُ نـــا ، كالنّشـــيد !

* * *

وكانت بين القبور روح فيلسوف قديم مجهول فجاءت تزور جسمها الذي أصبح رمة بالية في أحشاء التراب، فأشفقت على الشاعر المسكين من آلامه الروحية وحيرته الظامئة، فأرادت أن تعلمه الحكمة وتسكب في قلبه برد اليقين فخاطبته بهاته الأبيات:

َمـــت َ بـــالعيش خـــوف الفنـــاء ... و دمــت َ حيًّــا سـئمت َ الخلــود
وعشـت عـلى الأرض مثـل الجبـال ... جلـيلاً ، رهيبـاً ، غريبـاً ، وحيـد
لـم ترتشـف مـن ر ُضـاب الحيـاة ... ولم تصـطبح مـن رحيـق الوجـود
ولم تـدر مـا فتنـة الكائنـات ... ومـا سـحر ذاك الربيـع الوليـد
ـا نشـوة الحـب عنـد المحـب ٍّ ... ومـا صرخـة القلـب عنـد الصدود
ولم تفتكـر بالغـد المسـتراب ... ولم تحتفـل بـالمرام البعيـد
ـاذا يُرجِّـى ربيـب الخلـود ... ن الكـون - وهـو المقـيم البعيـد - ؟
ـاذا يـودُّ ، ومـاذا يخـاف ُ ... ن الكـون َ - وهـو المقـيم الأبيـد - ؟
َـل ْ .. فـإنَّ نظـام الحيـاة ... نظـام ، دقيـق ، بـديع ، فريـد
ـما حبَّـب َ العـيش إلاّ الفنـاء ... لا زانَـه غـير ُ خـوف اللحـود
ولـولا شـقاء الحيـاة الألـيم ... ا أدركَ النـاس ُ معنـى السـعود
ن لم ير ُعْـه قطـوب ُ الـدياجير ... ِ يغتـبط ْ بالصـباح الجديـد

* * *

وراق حديث الروح الشاعر العائش بين الهواتف والأشباح ، فقال يحاورها:

إذا لم يكـن مـن لقـاء المنايـا ... ص ٌ لمـن حـل َّ هـذا الوجـود
ـأيُّ غنـاء لهـذي الحيـاة ... وهـذا الصراع ، العنيـف ، الشـديد
ك الجـمال الـذي لا يُمـَل ُّ ... وتلـك الأغـاني ، وذاك النشـيد ؟؟
وهـذا الظـلام ، وذاك الضـياء ... وتلـك النجـوم ، وهـذا الصـعيد
لمـاذا نمـر بـوادي الزمـان ... اعـاً ، ولكننـا لا نعـود
نشرب مـن كـل نبـع ٍ شرابـاً ... ومنـه الرفيـع ، ومنـه الزهيـد
ومنـه اللذيـذ ، ومنـه الكريـه ، ... ومنـه المُشـيد ، ومنـه المُبيـد

مل ع بْئاً من الذكريات وتلك العهود التي لا تعود
ونشهد أَشكال هذي الوجوه وفيها الشقي ، وفيها السعيد
وفيها البديع ، وفيها الشنيع ، وفيها الوديع ، وفيها العنيد
ُصبح منها الولي ، الحميم يصبح منها العدو ، الحَقُود
كل -إذا ما سألنا الحياةَ - ريب لعمري بهذا الوجود
نيناه من عالمَ ، لا نراه رادى ، فما شأْنُ هذي الحُقُود ؟
ا شأنُ هذا العداء العَنيف ؟ وما شأن هذا الإخاء الودود؟

* * *

روح الفيلسوف:

خلقنا لنبلغ شأو الكمال ونصبح أهلاً لمجد الخلود
وتطهر أرواحنا في الحياة بنار الأسى ... [1]
ونكسب من عثرات الطريق ى ، لا تهُد بدأْب الصعود
ومجداً ، يكون لنا في الخلود اليلَ من رائعات الورود

ومر بالمقبرة سرب من الأرواح ، في طريقها إلى العالم المجهول ؛ فطارت معها روح الفيلسوف، وخلفت عالم الشك والكآبة لأبنائه البائسين. وظل الشاعر يردد بينه وبين نفسه:

«خلقنا لنبلغ شأوَ الكمال ونُصبح أهلاً لمجد الخلود»

ولكن أفكاره الثائرة التي لا تهدأ كانت لا تزال تلح عليه بالأسئلة الكثيرة المرهقة فقال يناجي روح الفيلسوف التي حسبها ما زالت قريبة منه:

ولكن إذا ما لبسنا الخلود ونلنا كمال النفوس البعيد
ل لا نَمَل دوام البقاء ؟ هل لا نود كمالاً جديد
كيف يكونن هذا «الكمال»: ماذا تراه ؟ وكيف الحدود؟

(١) هكذا ورد البيت في الديوان وفي غيره.

ـنَّ جمـــالَ «الكـــمال» «طمـــوحٌ» ... ومـــا دام «فكـــراً» يُـــرى مـــن بعيـــد
ـما ســـــحره إنْ غـــداً «واقعـــاً» ... ـــس، وأصـــبح شـــيئاً شـــهيد ؟
وهـــل ينطفـــي في النفـــوس الحنـــين ... وتصـــــبح أشـــــواقاً في خمـــــود
فـــلا تطمـــح الـــنفس فـــوق الكـــمال ... وفـــوق الخلـــود لـــبعض المزيـــد ؟
ـــــزْل شـــــوْقُها في الخلـــــود ... فـــــذاك لعمـــــري شـــــقاء الجـــدود
حربٌ، ضروس، - ما قـد عهـدتُ - ... ـــ، وكسرٌ ـــ، وهـــمٌّ مديـــد
ـإنْ زال عنهـــا فـــذاك الفنـــاء ... كـــان في عرَ صـــَات الخلـــود

* * *

كذلك ناجى الشاعر روح الفيلسوف، ولكنها كانت إذ ذاك بعيدة عنه في عالم بعيد لا يسمع نجواه، وكذلك ضاعت أسئلة الشاعر في ظلمة الليل الذي لا يسمع ولا يجيب.

في ظل وادي الموت

نظم الشاعر قصيدته بتاريخ ٥/ ٤/ ١٩٣٢.

ـحـــنُ نمشي ـــ وحولَنـــا هـــذه الأكـــو ... تمشي ـــ، لكـــنْ لأيّـــة غايـــهْ ..؟
ـنُ نشـــدو مـــع العصـــافير للشـــمسِ ... ، وهـــذا الربيـــعُ يـــنفخُ نايـــهْ .. ؟
ـنُ نتلـــو روايـــةَ الكـــونِ للمـــو ... ، ولكـــنْ مـــاذا ختـــام الروايـــه ..؟
ـذا قلـــتُ للريـــاحِ فقالـــتْ : ... ـمـيرَ الوجـودِ كيـفَ البدايـهْ ؟!

* * *

ـَّـــى الضـــبابُ نفسي ـــ فصـــاحتْ ... ـــلالِ مـــرَّ : لى أيـــنَ أمشي ـــ ..؟
ــتُ : ري مـــع الحيـــاةِ فقالـــتْ : ... اجنينـــاً تـــرى مـــن السـيرِ أمـسِ ..؟
فئـــــتٌّ كالهشـــــيمِ عـــــلى الأر ... ونـاديـتُ : ـنَ يـا قلـبُ رفشي ـ ؟
ــــه، علّنـــي أخـــطُّ ضريحـــي ... ـــكونِ الـــدجى، وأدفـــنُ نفسي ـــ

* * *

ـــه ، فـــالظلامُ حـــولي رهيـــبٌ   ـــبابُ الأســـى مُنـــيخٌ عليّـــا
ـؤوسُ الغـــرامِ أترعَهـــا الفجـــرُ . لكـــنْ تحطّمـــت في يـــديّا !
والشـــبالغريـــرُ ولىَّ إلى المـــا   ، وخـــلى النحيـــبَ في شـــفتيّا
ـــه يـــا فـــؤادُ إنّـــا غريبـــا   نصـــوغُ الحيـــاةَ فنّـــاً شـــجيّاً

* * *

رقصْـ ـــنا مـــعَ الحيـــاة طـــويلاً   ـــدونا مـــعَ الشـــباب ســـنينا
عـــدوْنا مـــع الليـــاليَ حفـــاةً   ـعاب الزمـــان حتَّـــى دُمينـــا[1]
كلنـــا الـــترابَ حتَّـــى مللْنـــا   ـشربنـــا الـــدموعَ حتَّـــى روينـــا
رنـــا الأحـــلامَ والحـــبَّ والآلا   مَ واليـــأس والأســـى حيـــث شـــينا

* * *

ـــمَّ مـــاذا .. ذا أنـــا صرتُ في الـــدنيا بعيـــداً عـــن لهو هـــا وغ ناهـــا
ـــلامِ الفنـــاء ، أدفـــنُ أيّـــا   ـــي ولا أســـتطيعُ حتَّـــى بُكاهـــا !
ورُ الحيـــاة تهـــوي بصـــمت   ـزن ، مضـــجر ، عـــلى قـــدميّا
ـف سـحرُ الحَيـاة . ـا قلبـيَ البّـا   ـي فهيّـــا نجـــرب المـــوت .. هيّـــا !

الساحرة

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ ١٩/ ٧/ ١٩٣٢.

راعهـــا منـــه صـــمتُه ووجومـــه   ـــجاها شـــحوبُه وســـهومُهْ
طلّـــت بوجه هـــا الباســـم الحلـــ   عـــلى خـــدّه بســـحر يهُ يمـــهْ
ـــرَّت كفـــاً عـــلى شـــعر ه العـــا   ـفـــق كأنهّـــا ســـتُنيمهْ
ـــم قالـــتْ كأنهـــا تتغنَّـــى   ـــجيٍّ مـــن الأغـــاني تلومـــه: [2]

(١) في شعاب الزمان: وردت في الديوان في شعاب الحياة.
(٢) هذا البيت محذوف من الديوان.

ـــا الطـــائرُ الكئيـــبُ تغـــرد | شـــدوَ الطيـــور حلـــوٌ رخيمـــهْ
وأجبنـــي - فـــدتك نفسي - مـــاذا ؟ | ـــابٌ ؟ أم ذاك أمـــرٌ رومُـــه ؟
ـــل هـــو الفـــنُّ واكتئابُـــه والفنّـــ | ، جـــمٌّ أحزانـــه وهمومُـــه
بـــداً يحمـــل الوجـــودَ بـــما فيـــه | ـــأن لـــيس للوَجـــوَد زعيمُـــهْ
ـــِّ عـــبءَ الحيـــاة عنـــك وهيّـــا | حيّـــا كالصـــبح طلـــقٌ أديمـــه
فكثـــير عليـــك أنَ تحمـــل الدنـــ | ـــيا وتمشي بوقرهـــا لا تريمـــه
والوجـــود العظـــيم أعـــدَ في المـــا | ضي فـــما أنـــت ربـــه فتقيمـــه
وأمشي في روضـــة الشـــباب طروبـــاً | فحواليْـــك ورده وكرومـــه
ـــلُ للحـــبِّ والحيـــاة أغانيـــ | وخـــلِّ الشـــقاء تـــدمي كلومـــه
واحتضـــني فـــإنّني لـــك حتـــى | يتـــوارى هـــذا الـــدجى ونجومـــه
ـحـــبَّ يُنشـــدُ الشـــعرَ للّيـــلِ | كـــم يُســـكر الظـــلامَ رنمُـــه
واقطـف الـورد مـن خـدودي وجيـ | ـــدي ونهـودي وافعـل بـه مـا ترومـه
للبيـــت لهـــوه النـــاعم الحلـــ | ـــو وللكـــون حربـــه وهمومـــه
رتشـفْ مَـن فمـي الأناشـيدَ سكـ | ـــرى فـالهوى سـاحر الـدلال وسيمه
ـــس َ فيَّ الحيـــاة فـــالعمر قفـــر | ـعـــب إن ذوى وجـــفَّ نعيمـــه
ارْمِ لليـــل والضـــباب بعيـــداً | ـــك العـــابسَ الكثـــير وجومـــه
والهـــوى والشـــباب والمـــرح المعـــ | ـــسول تشـــدو أفنانـــه ونســـيمه
ـــي فـــنٌّ الحيـــاة يـــا شـــاعري الفنـــ | ـــان بـــل لـــبٌّ فنهـــا وصـــميمه
تلـــك يـــا فيلســـوف فلســـفة الكـــو | ن ووحـــي الوجـــود هـــذا قديمـــه
وهـــي إنجـــيلي الجميـــل فصدقـــ | ـــه وإلا فللغـــرام جحيمـــه

* * *

فرماهـــا بنظـــرة غشـــيتها | ســـكرة الحـــب والأســـى وغيومـــه
وتلاهـــا ببســـمة رشـــفتها | منـــه ســـكرانة الشـــباب رؤومـــه
والتقـــت عنـــدها الشـــفاه وغنـــت | ـــلٌ أجفلـــت لـــديها همومـــه

مـــا تريـــد الهمـــوم مـــن عـــالم ضـــا　　ءت مسرــــاته وغنّـــــت نجومـــــه

* * *

ـــة أســــبلَ الغـــرامُ عليهـــــا　　حرَه النـــاعمَ الطريــــرَ نعيمُـــه

وتغنـــى في ظلهـــا الفـــرح الـــلا　　ـــي فجــف الأســى وخــرَّ هشــيمه

ـــرق الفيلســـوفُ فلســـفةَ الأحـــ　　زانِ في بحرهـــا ، فمـــن ذا يلومُـــه

* * *

في المـــــرأة الجميلـــــةِ ســــــحراً　　يـــاً يُـــذْكي الأســـى ويُنيمُـــهْ !

قصائد عام ١٩٣٣

وعددها سبع عشرة قصيدة:

- الجنة الضائعة.
- من أغاني الحياة أو من أغاني الرعاة.
- للتاريخ.
- ذكرى صباح.
- الصباح الجديد.
- إرادة الحياة.
- إلى الشعب.
- متاعب العظمة.
- زوبعة في الظلام.
- السعادة.
- أيتها الحالمة بين العواصف.
- صوت من السماء.
- الرواية الغريبة.
- ألحاني السكرى.
- تحت الغصون.
- الناس.
- نشيد الجبار أو هكذا غنى بروميثيوس.

الجنة الضائعة

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ ٩/ ١/ ١٩٣٣.

ـن عهـــود عذبـــة مـــن عـــدوة الـــوادي النضـــير
: الأســـحار مذهبـــة الأصـــائل والبكـــور
رقَّ مـــن الزهـــور ومـ ـــنْ أغاريـــد الطيـــور
لـــذَّ مـــن ســـحر ـــبا في بســـمة الطفـــل الغريـــر
ـــيتُها ومعـــي الحبيبـــةُ لا رقيـــبَ ولا نـــذيرْ
طفولـــة حولَنـــا تلهـــو مـــع الحـُــبِّ الصـــغير
كانـــت للحيـــاة حـــلاوةُ الـــروض المطـــير
ـارةُ المـــوج الجميـــل، وســـحرُ شـــاطئه المنـــير
ـــةُ العصـــفور بـــينَ جـــداول المـــاء النـــير
لم نعـــرفْ مـــن الـــدنيا ســـوى مـ ـــرح الســـرور
لنحـــل الأنيـــق وقطـــف تيجـــان الزهـــور
ـلّق الجبـــل المكلّـــل بالصـــنوبر والصـــخور
أكـــواخ الطفولـــة تحـــتَ أعشـــاش الطيـــور
مســـقوفة بـــالورد، والأعشـــاب، والـــورق النضـــير
ـــي فتهـــدُمها الريـــاحُ ـــلا نضـــجٌ ولا نثـــور
ودُ نضـــحكُ للمـــروج وللزنـــابق والغـــدير
ـــبُ الأصـــداءَ، وهـــي تـــرفٌ في الـــوادي المنـــير
ـــدُ أغنيـــةَ الســـواقي وهـــيَ تلغـــو بـــالخرير
ـــركض خلـــفَ أسراب الفـــراش المســـتطير
مـــا بـــينَ المـــروج الخضر ـــفي سـ ـــكر الشـــعور
نشـــدو ونـــركالبلابـــل، للحيـــاة وللحبـــور
نشـــرُ للفضـــاء الرحـــب والنهـــر الكبـــير

ـا في فؤاديْنـــا مـــن الأحـــلامِ أو حلـــو الغـــرورْ
ـيدُ في الأفـــق المنـــوِّرِ مـــن أمانينـــا قصـــورْ
مـــن الشـــفَق الجميـــلِ ورونـــق المـــرجِ الخضـــيرْ
ـلَّ مـــن هـــذا الوجـــود وكـــلَ أمجـــاد الـــدهورْ
ـداً ، تـــدلِّلُنا الحيـــاةُ بكـــلِّ أنـــواعِ السرـــورْ
ـث فينـــا مـــن مـــزاح الكـــون مـــا يُغـــوي الوَقـــورْ
ـيرُ ، نُنشـــدُ لهوَنـــا المعبـــودَ في كـــلِّ الأمـــورْ
ـــل نعبـــثُ بالجليـــلِ مـــن الوجـــود وبـــالحقير :
ـائـلِ الأعمـــى ، وبـــالمعتوه ، والشـــيخِ الكبـــيرْ
ـطَّـــة البيْ ، بالشـــاة الوَديعـــة ، بـــالحميرْ
ـب ، بـــالفَنن المنـــوِّرِ ، بالســـنابلِ ، بالســـفيرْ
ـل ، بالصَّـــخرِ المحطَّـــمِ ، بالجـــداول ، بالغـــديرْ
ـوُ والعبـــثُ الـــبريءُ الحلـــوُ مطمحنُـــا الأخـــيرْ
ـــل نقفـــزُ ، أو نُغنِّـــي ، أو نثرثـــرُ أو نـــدورْ
نســـأمُ اللهـــوَ ـــلَ ، ولـــيس يـــدركُنا الفتـــورْ
ـــا نحيـــا بأعصـــاب مـــن المـــرحِ المثـــيرْ
ـــا نمشيـــــ بأقـــدامٍ مجنّحـــة تطـــيرْ
ـكنـــا لـــبَّ هـــذا الكـــون ، والبـــاقي قشـــورْ
ـرُش سُـــبْلَنَا الـــدنيَا بـــأوراق الزهـــورْ
ـر أيـــامُ الحيـــاة بنـــا ، كـــأسراب الطيـــورْ
ـضـــاءَ 'غيـــةً ، مغـــردةً ، مجنّحـــةً بنـــورْ
ـرفُ الأفـــراحُ فـــوقَ رؤوســـنا أنّـــى نســـيرْ

* * *

ـــوارى فجـــري القـــدسيُّ في ليـــلِ الـــدهورْ
ـ ، كـــما يفنـــى النشـــيدُ الحلـــوُ ، في صـــمت الأثـــيرْ

واهُ ! ضــاعتْ عـــليّ ســـعادةُ القلـــب الغريـــرْ
ـــــت ُ في وادي الزمـــان اـــم أدأب ُ في المســـيرْ
أشــــواكَ الحيـــاة بقلبـــي الـــدامي الكســـيرْ
الأباطيـــــلَ الكثـــيرةَ والمــــآثمَ والشرـــــورْ
ادُم الأهــــواء بـــــالأهواء في كـــــلِّ الأمـــــورْ
ـة الحـــقِّ الضـــعيف وعـــزةَ الظلـــم القـــديرْ !
ــــن آدمَ ســــائراً في رحلـــة العمـــر القصـــيرْ
مـــنَ أهـــوال الوجـــود ، وتحـــتَ أعبـــاء الضـــميرْ
اً جبـــلَ الحيــــاة الـــوعر كالشـــيخ الضريـــرْ
ـــي الأكـــف ، ممـــزَّق الأقـــدام ، مغـــبرَّ الشـــعورْ
َ الخطـــوات مـــا بـــينَ المزالـــق والصـــخورْ
ـهُ أشـــباحُ الظـــلام ، وراعـــهُ صـــمتُ القبـــورْ
يُّ إعصـــار الأســـى ،وت في تلـــكَ الوعـــورْ !

* * *

ذا جنيـــت مـــن الحيـــاة ومـــن تجاريـــب الـــدهورْ
رَ الندامـــة والأســـى واليـــأس والـــدمع الغزيـــرْ ؟
ا حصـــادي مـــن حقـــول العـــالم الرحـــب الخطـــيرْ !
ا حصــــادي كلُّـــه في يقظـــة العهـــد الأخـــيرْ !

* * *

ـد كنـــتُ في زمـــن الـــة والســـذاجة والطهـــورْ
ـــا كــــما تحيـــا البلابـــلُ والجـــداولُ والزهـــورْ
ـــلُ ، الـــدنيا تـــدورُ بأهلـ هـــا أو لا تـــدورْ
أحيـــا مُرْهَـــقَ الأعصـــاب مشـــبوبَ الشـــعورْ
جِّ َ الإحســـاس ، أحفـــلُ بـــالعظيم وبـــالحقيرْ
ـــ عـــلى قلبـــي الحيـــاةُ ، ويزحـــفُ الكـــونُ الكبـــيرْ !

هذا مصيري ..
ـا بَني الدنيا ..
ا أشقى المصيرْ !!

السعادة

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ ٢٣/ ١/ ١٩٣٣.

السـعادةَ يـا قلبـي ولـو وُجـ ـدَتْ ... لم يشـتعلْ حُـزْنٌ ولا ألمُ
ـاستحالتْ حيـاةُ النـاسِ أجمعُهـا ... ـتْ هاتـه الأكـوانُ والـنُّظمُ
ـا السـعادة في الـدُّنيا سـوى حُلُـمٍ ... تُضـحِّـي لــه أيَّامهـا الأمـمُ
ـه النـاسَ أوهـامٌ مُعَرْبِـدَةٌ ... ـشَّـتْهُـمُ الأحـلامُ والظُّلَـمُ
كُـلٌّ يُناديـه وينْشُـدُهُ ... النـاسُ مـا نـاموا ولا حَلُمُـوا[1]

* * *

ـذ الحيـاةَ كـما جاءتـك مبتسـماً ... كفِّهـا، الغـارُ أو في كفِّهـا العـدم
عـلى الـوَرد والأشـواك مُتَّئِـداً ... ـك الطيرُ، أو غنَّـت لـك الرُّجُـمُ
كـما تـأمُرُ الـدُّنيا بـلا مَضَـضٍ ... شُـعورَكَ فيهـا، إنهـا صَـنَمُ
ـتـألمّ لم تُـرْحَمْ مضاضـتُهُ ... تجلّـدَ لم تهـزأ بـه القِمَـمُ
ـذي سـعادةُ دُنيانـا، فكـن رجُـلاً ... ـئتَها -دَ الآبـاد- يبتسـم!
ـدتَ قضـاء العـيش في دَعَـة ... لا يُغَشَّـى صَـفْوَها نـدَمُ
ـكْ إلى النـاس دُنيـاهم وضجَّتَهمْ ... ـا بنَـوْا لنظـام العـيْش رَسمُوا
ـك دَوْحـاً مُزْهِـراً نَضِراً ... الغـابِ يَنْمـو ثـم يَنْعَـدِمُ
ـعـل لياليـك أحلامـاً مُغـرِّدةً ... ـاةَ ومـا تُـدوِي بـه حُلُـمُ!

(١) حلم: كان ذا حلم، أي ذا عقل.

من أغاني الحياة

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ ٦/ ٢/ ١٩٣٣، وقد نظمها عندما كان يستشفي بـ «عين دراهم» فوق الطبيعة العذراء الساحرة، والغابات الملتفة الهائلة، والجبال الشاهقة المجللة بالسنديان.

ـــل َ الصـــــبح ُ يغنِّـــــي للحيـــــاة الناعســـــهْ
ـــــى تحلـــــم ُ في ظـــــل ِّ الغصـــــونَ المائســـــهْ
ـــــبا تُـــــرقص أوراق َ الزهـــــور َاليابســـــهْ
ـــادى النـــــور ُ في تلـــــك َ الفجـــــاجِ الدامســـــهْ

* * *

ل َ الصـــــبح ُ جمـــــيلاً يمـــــلأ الأفـــــق َ بهَ ـــــاهْ
ـــــى الزهـــــر ُ والطـــــير ُ وأمـــــواج ُ الميـــــاهْ
ـــد أفـــــاق َ العـــــالم الحـــــي ُّ ، وغنَّـــــى للحيـــــاهْ !
ـــأفيقي يـــــا خـ ـــرافي وهلمـــــي يـــــا شـــــياهْ

* * *

ينـــــي يـــــا شـــــياهي بـــــينَ أسراب الطيـــــورْ
املئـــــي الـــــوادي ثغـــــاءً ومراحـــــاً وحبـــــورْ
ـمعي همـــس َ الســـواقي وانشـــقي عطـــر َ الزهـــورْ
ـــري الـــوادي يُغشِّـــيه الضـــباب ُ المســـتنير ُ
قطفـــي مـــن كـــلأ الأرضِ ومرعاهـــا الجديـــدْ
ـــمعي شـــبابتي تشـــدو بمعســـول النشـــيدْ
ـــم ٌ يصـــعدُ مـــن قلبـــي كأنفـــاسَ الـــورودْ
ـــم َّ يســـمو طـــائراً كالبلبـــلِ الشـــادي الســـعيدْ

* * *

جئنـــا إلى الغـــابِ وغطَّانـــا الشـــجرْ
مي مـــا شـــئتِ مـــن عشـــبٍ وزهـــرٍ وثمـــرْ

ـعتْه الشـــــمس ُ بالضــــوء وغــــذّاه القمـــــر ْ
ى مـــن قطـــرات ِ الطـــل ِّ في وقـــت ِ الســـحر ْ

* * *

ي مـــا شـــئت في الوديـــان أو فـــوق َ الـــتلال ْ
ـــ في ظلِّهـــا مـــا شـــئت إنْ خفـــت كـــلال ْ [1]
ـغي الأعشـــاب َ والأفكـــار َ في صـــمت الظـــلال ْ
ـــمعي الـــريح َ تُغنـــي في شـــماريخ ِ الجبـــال ْ

* * *

غـــاب أزاهـــيراً وأعشـــاباً عـــذاب ْ
ـدُ النحـــل ُ حواليْهـــا أهازيجـــاً طِـــراب ْ
س ْ عطر َهـــا الطـــاهر َ أنفـــاس ُ الـــذئاب ْ
ولا طـــاف َ بهـــا الـــب ُ في بعـــض الصـــحاب ْ
ـــذاً حلـــواً ، وســـحراً وســـلاماً وظـــلال ْ
ـــيماً ســـاحر َ الخطـــوة موفـــور َ الـــدلال ْ
ـــوناً يـــرقص ُ النـــور ُ عليْهـــا والجـــمال ْ
ـراراً أبـــدياً لـــيس َ تمحـــوه الليـــال ْ

* * *

ـلي ِّ يـــا خـــرافي في حمـــى الغـــاب الظليـــل ْ
ـــان الغـــاب ِ طفـــل ٌ لاب ٌ عـــذب ٌ جميـــل ْ
نُ النـــاس شـــيخ ٌ عـــابس ُ الوجـــه ثقيـــل ْ
ـــى في مـــلال ٍ فـــوق َ هاتيـــك َ الســـهول ْ

* * *

ك في الغابـــات مرعـــاك ِ ومســـعاك ِ الجميـــل ْ

(١) ورد البيت في الديوان: واربضي في ظلها الوارف إن خفت الكلال.

شـــــادُ والعـــــزفُ إلى وقـــــت الأصـــــيلْ
الـــتْ ظـــلالُ الكـــلأ الغـــضِّ الضـــئيلْ
هلمِّ ـــي نُرجـــع المســـعى إلـــيِّ النبيـــلْ

أيتها الحالمة بين العواصف

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ ١١/ ٢/ ١٩٣٣.

ت كـالزهرة الجميلـة في الغـاب ـنْ مـا بـينَ شـوك ودود
حينُ تحسـبُ الحسَـكَ الشرِّ يــ الـدودَ مـن صـنوف الـورود
أفهمي النـاس: ما النـاس خَلْـقٌ فسـدٌ فيـود غـيرُ رشـيد
السـعيدُ السـعيدُ مـن عـاش كالليـل ـاً في أهـلِ هـذا الوجـود
ـيهمْ يحيـونَ في ظلمـةِ الإثـم يشيـ في طهـرك المحمـود
ك الـبريء، كـالوردة البيضـاء ـالموجِ في الخضـمِّ البعيـد
ـاني الطيـور، كالشـفق السـاحر لكوكـب البـدِ السـعيد
ـجِ الجبـالِ، يغمرُهـا النـورُ ـمو عـلى غبـارِ الصـعيد

* * *

تحـتَ السـماءِ روحٌ جميـل ـاغهُ اللهُ مـن عبـير الـورود
ـو الأرض كـالقرود، ومـا أضـ طـرَ الـورد بـينَ القـرود
مـن ريشـةِ الإلـه، فـلا تُلـ ـقي بِّ السـما لجهـلِ العبيـد
لم تخُلقـي ليقربَـك النـا ولكـن لتُعبـدي مـن بعيـد!!

للتاريخ

نظم الشاعر هذه الأبيات بتاريخ ١٦/ ٢/ ١٩٣٣.

ـؤس لابـن الشـعب يأكـل قلبـه المجـد، والإثـراءُ للأغـراب

لشعب معصوب الجفون ، مقسَّم   كالشاة ، بين الذئب والقصاب
الحق مقطوعُ اللسان مكبَّل   ظلم يمرح مُذْهَب الجلباب
قليلٌ من حياة مُرَّة   في دولة الأنصاب والألقاب

صوت من السماء

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ ٨/ ٣/ ١٩٣٣م ويبين الشاعر رأيه فيها بأن الفجر لا يولد في الطبيعة إلا من الظلام.

الليل ناديتُ الكواكب ساخطاً   أجِّجَ الآلام والآراب:
«قلُ يملكه جبابرة الدجى   والروض يسكنه بنو الأرباب»
«والنهر، للغول المقدسة التي   لا ترتوي . والغاب للحطّاب»
«عرائس الغاب الجميل ، هزيلةٌ   لمآى لكل جَنّي ، وكل شراب»
«ا هذه الدنيا الكريهةُ ؟ ويلَها !   ءَت عليها لعنة الأحقاب ! »
«نُ مُصْغ ، يا كواكبُ ، خاشعٌ   طال انتظاري ، فانطقي بجواب! »

* * *

معتُ صوتاً ساحراً ، متموِّجاً   وق المروج الفيح ، والأعشاب
يف أجنحة ترفرف في الفضا   مدى يَرِنُّ على سكون الغاب: »
«جرُ يولدُ ، مُتهَلِّلاً   ون ، بين دُجنَّة وضباب»

ذكرى صباح

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ ٩/ ٣/ ١٩٣٣.

دَّس الله ذكره من صباح   احر ، في ظلال غاب جميل
كان فيه النسيم ، يرقص سكراناً   على الورد ، والنبات البليل
باب الجبال ، ينساب في رفق   ديع ، على مروج السهول

اني الرعــاة ، تخفــق في الأغــوار ـ السـهل ، والربـا ، والتلـول
ب الفضــاء ، تعبــق بالألحــان العطـر ، والضـياء الجميـل
لاك الجميـل ، مــا بــين ريحــان ـب ، وسـنديان ، ظَليـل
يتغنَّــى مــع العصــافير ، في الغــاب ويرنـو إلى الضـباب الكسـول
وشــعور المــلاك تــرقص بالأزهــار والضـوء ، والنسـيم ، والعليـل

* * *

ساحر ، بـه حلـم الغــاب فواهـا لحلْمـه المعسـول !
مثــل رؤيــا تلــوح للشــاعر الفنَّــان في نشـوة الخيـال الجليـل
ـت سـحره في أنــاة ـان ، ولـذة ، وذهـول
مناديــت ، حيـنما طفـح السـحر رجـاء قلبـي المبتـول
ــا شــعور تميــد في الغــاب بــالر يحـان ، والنـور ، والنسـيم البليـل
بهاتـه الخُصـل المُرْخـاة ـة الـدَّلال المُلـول
بلي يــا سلاســل الحــب أفكــا وأحـلام قلبـي الضـلِّيل
، بكــل مــا فيــك مــن عطــر ـحر مقـدَّس ، مجهـول
كبِّلينـي ، فـإنما يُصـبح الفنَّــان ـرّاً ، في مثـل هـذي الكبـول

* * *

ليت شـعري ! ين أمواج ـك السـو ـات ليلـك المسـدول
م ، مُـذَهَّب التــاج ، ميْـت ـاد ، مُصـفَّد ، مغلـول
ـور مـن الأمــاني تَـذوي ـحوب ، وخيبـة ، وخمـول
ـت لا تعلمـين .. والليــل لا يعلــم ـم في ظلامـه مـن قتيـل
أرجوحَـةُ النسـيم فمـيلي ـيم السـعيد كـل مميـل
ـي للــورود والظِّــل ، والأضــواء يـك ، الجميـل ، النبيـل
ي الشــمس والســماء تُسـوِّي ك تاجــاً ، مــن الضـياء الجميـل
زهــر الغصــون يُغَشّــ ـك بـأوراق وَرده المطلـول

* * *

ـعاع الجميـل أنـت ، وللأنسا ، والزهـر ، فـالعَبي ، وأطـيلي
عـي للشـقي أشـواقَه الظمْـأى ـام ذَ هَنْ ـه المعلـول
عـروس الجبـال ، يـا وردةَ الآ ن ، يـا فتنـةَ الوجـود الجليـل
نـي كنـت زهـرةً ، تتثنَّـى طيَـات شذَـعْرِك المَصقول !
شـاً ، أحـوم حولـك مسـحوراً غريقـاً ، في نشـوتي ، وذهـولي !
ـصونـاً ، أحنـو عليـك بـأوراقي ـوَّ المُدَلَّـه ، المتبـول !
، أضـم صـدرَك في رِفْـق ، ـدْرِيَ ، الخفـوق ، النحيـل
آه ! ـعِ دُ الجـمال ، ويُشْـقِي ـوب شـعْرِيَّة ، وعقـول ...

الرواية الغريبة

نظم الشاعر هذه الأبيات بتاريخ ١٧/ ٣/ ١٩٣٣.

ـحكنا عـلى المـاضي البعيـد وفي غـد ستجعا الأيـام أضـحوكةَ الآتي
ـك هـي الـدنيا روايـة ساحرٍ ، غريـب الفـن مبـدع آيـات
مثِّلهـا الأحيـاء في مسرح الأسـى ضـباب الهَـمِّ تمثيـلَ أمـوات
مـن خلـف الضـباب فصـولهَا ضـحك منهـا مـن يمثِّـل مـا يـأتي
ـل يـؤدي دوره ... هـو ضـاحك الغـير مضحوك على دور ه العـاتي !

الصباح الجديد

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ ٩/ ٤/ ١٩٣٣، وتعتبر واحة من الأمل والتفاؤل في مفازة الحزن الكبير، بث خلال أبياتها فرحه وعبر عن إيمانه بالحياة وجدواها.

ـكني يـا جـراحْ ـاسـكتي يـا شـجونْ
ـات عهـدُ النـواحْ زمـانُ الجنـونْ

ـل ّ الصباحْ ـن وراءِ القرونْ

***

، فجاجِ الهوى ـد دفنتُ الألمْ [1]

ـرتُ الدموعْ ـاحِ العدمْ

تخـذتُ الحياة ـزفاً للنغمْ

نّـى عليهِ رحابِ الزمانْ

***

وأذبت الأسى جمال الوجودْ

ـدحوت الفؤادْ احةً للنشيدْ

لضـِّ ـيا والظلال والشذى والورود

لهوى والشبابْ ـالمنى والحنانْ

ـكني يا جراحْ ـاسكتي يا شجونْ

ـات عهدُ النواحْ زمانُ الجنونْ

ـلّ الصباحْ ـن وراء القرونْ

***

فؤادي الرحيبْ ـعبدٌ للجمـاْ

شـيدته الحياة ـالرؤى والخيالْ

ـوتُ الصلاةْ خشوعِ الظلالْ

رقـتُ البخورْ ضـأتُ الشموعْ

***

سـحرَ الحياةْ لـدٌ لا يزولْ

عـلامَ الشكاةْ ـن ظلامٍ يحولْ

ـم يأتي الصباحْ ـرّ الفصولْ

(١) الهوى: وردت في الديوان الردى.

ـــــوفَ يــــأتي ربيـــعْ ... ضى ّ ـــــــبيـــعْ

* * *

ـــكني يـــا جـــراحْ ... ٍاســـكتي يـــا شـــجونْ

ـــات َ عهـــدُ النـــواحْ ... زمـــانُ الجنـــونْ

ـــل ّ الصـــباحْ ... ـــن وراء القـــرونْ

* * *

ـــن وراء الظـــلامْ ... ـــدير الميـــاهْ

ـــد دعـــاني الصـــباحْ ... ربيـــعُ الحيـــاهْ

ـبـــا لـــهُ مـــن دعـــاء ... ـــز ّ قلبـــي صـــداهْ

ٍ يعـــدْ لي بقـــاء ... ـــوق َ هـــذي البقـــاعْ

«ـــــوداعُ الـــــوداعْ ... ـــا جبـــال َ الهمـــومُ»

«ـــا ضـــباب َ الأســـى ... ـــا فجـــاج َ الجحـــيمْ»

«قـــد جـــرى زورقـــي ... الخضـــمِّ العظـــيمْ»

«نُشرـــت ُ القـــلاعْ ... ـــالوداعُ الـــوداعْ !!»

ألحاني السكرى

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ ١٥/ ٩/ ١٩٣٣.

قـــد ســـكرنا بحبِّنـــا واكتفينـــا ... مـديرَ الكـؤوس فـاصرفْ كؤوسـك

ـــكب ِ الخمـــرَ للعصـــافير والنحـــ ... ـــل ِّ الثـــرى يضـــمُّ عروسَـــكْ

* * *

مـــا لنـــا والكـــؤوس نطلـــب منهـــا ... ـــوةً والغـــرام ســـحرٌ وســـكرُ ؟!

نـــا منـــك َ فـــالربيعُ لنـــا ســـا ... ـــذا الفضـــاءُ كـــأسٌ وخمـــرُ !

* * *

ـن نحيا كـالطير في الأفـق الـ ـي وكالنحل فوق غَـض الزهور
رى غـير فتنة العـالم الحـي ـلام قلبهـا المسـحور !

* * *

ـن نلهو تحت الظـلام كطفليـ ـن سعيدين في غـرور الطفولـه
وعلى الصـخرة الجميلـة في الـواد ي وبـين المخـاوف المجهولـه

* * *

ـن نغـدو بـين المـروج ونمسيـ ونغنّـي مـع النسـيم المغنـي
ـاجي روح الطبيعـة في الكـو ونُصـغي لقلبهـا المتغنِّـي

* * *

حـن مثـل الربيـع نمشي عـلى أر مـن الزهـر والـرؤى والخيـال
ـا يـرقص الغـرام ويلهـو ويغنّـي في نشـوة ودلال

* * *

ـن نحيـا في جنَّة مـن جنـان السحـ ـر في عـالم بعيـد ... ـد
ـن في عشـنا المـورّد ، نتلـو ر الحـب للشـباب السـعيد !

* * *

ـد تركنـا الوجـود للنـاس فليقضـ ـوا الحيـاة كيـف أرادوا
وذهبنـا بلبِّـه ، وهـو روح تركنـا القشـور ، وهـي جمـاد

* * *

قـد سـكرنا بحبنـا واكتفينـا ـح الكـأس فـاذهبوا يـا سـقاةُ
حـن نحيـا فـلا نريـد مزيـداً ـبُنا مـا منحتنـا يـا حيـاةُ

* * *

حسـبُنا زهونـا الـذي نتنشـى ـبُنا كأسـنا التـي نترشـف
أن في ثغرنـا رحيقـاً سماويـ ـاً وفي قلبنـا ربيعـاً مفـوف ... !

* * *

ـا الـــدهرُ أيهـٌّـــا الـــزمن الجـا　　لى غـــير وجهـــة وقـــرارِ
الكـــونُ أيهـٌّـــا الفلـــكُ الـــدوَّ　　، بـــالفجر، والـــدجى والنهـــارِ

* * *

المـــوتُ أيهـٌّـــا القَـــدَرُ الأعـــ　　ـمى !ـوا حيث أنـتمُ أوْ فسـيروا
ودعونـــا هنـــا تغنِّـــي لنـــا الأحـــ　　ـمُ والحـــبُّ والوجـــودُ الكبـــيرُ

* * *

وإذا مـــــا أبيـــــتم فاحملونـــــا　　ولهيـــب الغـــرام في شـــفتيْنا
ـــورُ الحيـــاةِ تعبـــقُ بالعطـــ　　ـرِ وبالســـحرِ والصـــبا في يـــديْنا

إرادة الحياة

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ ١٦/ ٩/ ١٩٣٣.

الشـــعبُ يومـــاً أرادَ الحيـــاة　　لا بـــدَّ أن يســـتجيبَ القـــدَرْ !!
لا بـــدَّ لليـــلِ أن يـــنجلي　　ـــدَّ للقيـــد أن ينكسرْ ـــــ !!
ومـــن لم يعانقْـــه شـــوق الحيـــاة　　ـــــر في جوِّهَـــا وانـــدثرْ
فويـــل لمـــن لم تشـــقه الحيـــاة　　ـــن صـــفعة العـــدم المنتصرْ ـــــ
كـــذلك قالـــت لي الكائنـــات　　ـــدَّثني روحُهـــا المســـترِ ْ

* * *

ـمت الـــريح بـــينَ الفِجـــاجِ　　ـ الجبـــالِ وتحـــتَ الشـــجرْ :
«ـــا طمحـــتُ إلى غايـــة　　ـتُ المنـــى وخلعـــتُ الحـــذرْ !
ـــوَّفْ وعـــورَ الشـــعابِ　　ـبَّـــةَ اللهـــب المســـتعرْ [1]
ـــن لا يحُـــبُّ صـــعودَ الجبـــالَ　　ـش ْ الـــدَّهرِ بَـين الحفـــرْ» !
جَّـــت بقلبـــي دمـــاءُ الشـــباب　　ـــجَّت بصـــدري ريـــاحٌ أخـــرْ

---

(١) أتخوف: جاءت في الديوان: أتجنب.

طرقت أصغي لقصف الرعود ... عزف الرياح، ووقع المطر
ت لي الأرض لما تساءلت يا أمّ هل تكرهين البشر؟! :
«رك في الناس أهل الطموح ... ن يستلذّ ركوب الخطر!
وألعن من لا يماشي الزمان ... بالعيش عيش الحجر!
و الكون حي يحب الحياة ... ر الميّت المندثر!
ق يحضن ميت الطيور ... ل يلثم ميت الزهر!
ولولا أمومة قلبي الرؤوم ... ضمت الميت، تلك الحفر!
فويل لمن ... قه الحيا ... ن لعنة العدم المنتصر»!

* * *

وفي ليلة من ليالي الخريف ... ة بالأسى والضجر
كرت بها من ضياء النجوم ... بت للحزن حتى سكر!!
سألت الدجى هل تعيد الحياة ... لمن أذبلته ربيع العمر؟
لم تتكلم شفاه الظلام ... ولم تترنّم عذارى السحر
ال لي الغاب في رقة ... ة مثل خفق الوتر:
«يء الشتاء شتاء الضباب ... تاء الثلوج شتاء المطر
طفئ السحر، سحر الغصون ... سحر الزهور، وسحر الثمر
حر السماء الشجي الوديع ... حر المروج الشهي العطر
وتهوي الغصون وأوراقها ... ار عهد حبيب نضر
و بها الريح في كل واد ... دفنها السيل أنّى عبر
يفنى الجميع كحلم بديع ... ألّق في مهجة واندثر
ى البذور التي حمّلت ... يرة عمر جميل غبر
ذكرى فصول، ورؤيا حياة ... باح دنيا تلاشت زمر
معانقة وهي تحت الضباب ... ت الثلوج وتحت المدر
ف الحياة الذي لا يملّ ... وقلب الربيع الشذي الخضر
حالمة بأغاني الطيور ... ر الزهور، وطعم الثمر

يمشي الزمانُ ، فتنمو صروفٌ ذوي صروفٌ ، وتحيا أخَرْ
وتصبح أحلامها يقظةً موحةً بـرداء السّحَرْ
سائلُ : نَ ضبابُ الصباح حرُ المساء ، وضوءُ القمرْ
سرابُ ذاك الفراشِ الأنيق ل يغنّي ، وغيمٌ يَمُرْ ؟
وأين الأشعة والكائنات وأين الحياة التي أنتظر
ُ إلى النورِ فوقَ الغصون ت إلى الظلِّ تحتَ الشجرْ
ت إلى النبَعِ بينَ المروجِ ، ويرقصُ فوقَ الزَهرْ
ظمئت إلى نغمات الطيور وهمس النسيم ولحن المطر
ت إلى الكون ..نَ الوجود ى أرى العالمَ المنتظرْ ؟!
هو الكون خلفَ سبات الجمود ق اليقظات الكُبرَ !
وما هو إلاّ كخفق الجنا حتى نما شوقُها وانتصرْ !
صدّعت الأرض من فوقها أبصرت الكون عذب الصورْ !
وجاء الربيع بأنغامه حلامه وصباه العطر
وقبّلها قبلاً في الشفاه دُ الشّبابَ الذي قد غبرْ
ال لها قد منحتُ الحياة ، من نسلِكِ المدَّخَرْ
وباركك النور فاستقبلي شباب الحياة وخصب العمر
ن تعبد النورَ أحلامُه ه النورُ أنّى ظهرْ !
ك الفضاء إليك الضياء يك الثرى الحالم المزدهرْ !
ك الجمال الذي لا يبيد إليك الوجود الرحيب النضر
دي كما شئت فوق الحقول و الثمار ، وغضِّ الزهَرْ
ناجي النسيم وناجي الغيومَ ناجي النجومَ ، وناجي القمر
وناجي الحياة وأشواقها وفتنة هذا الوجود الأغر

* * *

ـّ الدجى عن جمالٍ عميق ـبٌّ الخيال ويذكي الفكر
دُّ على الكون سحرٍ غريبٍ فه ساحر مقتدِرْ

وضـاءت شـموع النجـوم الوضـاء — وضـاع البخـور ، بخـور الزهـر
ورفـرف روح غريـب الجـمال — جنحـة مـن ضـياء القمـر
ن نشـيدُ الحيـاة المقـدَّ — ، هيكـل حـالم قـد سُحِـر
علـنَ في الكـون أن الطمـوحَ — ـب الحيـاة وروحُ الظفَـرْ
طَمحَتْ للحيـاة النفـوس — فـلا بـد أن يسـتجيب القـدر !!

تحت الغصون

نظم الشاعر قصيدته بتاريخ ٢١/ ٩/ ١٩٣٣.

ا في خمائلِ الغـاب ، تحتَ الـزان — والسـنديان والزيتـون
، أشـهى مـن الحيـاة وأبهـى — ن جمـال الطبيعـة الميمـون
ـبابَ في جسـمك الغَـضّ — جيـدكَ البـديعِ الثمـين !
ـمالَ في طرفـك السـاهي — ـرك الجميـل الحـزين !
ـذَّ الحيـاةَ حـين تُغنـينَ — ـغي لصـوتـك المحـزون
روحَـك الجميلـةَ عطـراً — ـائعاً في حـلاوة التلحـين !
ـنَّيْـتُ منـذ حـين بصـوت — ـعم ، حـالم ، شـجيٍّ حنـون
ـماً كالحيـاة عـذْباً عميقـاً — حنـان ، ورقـة ، حنـين
ذا الكـونُ قطعـةٌ مـن نشـيد — ـويٌّ ، مـنغَّم ، مـوزون
نْ كنـت تُنشـدين ؟ فقالـتْ : — «ـياء » نسـجيِّ الحـزين
ـباب المـورَّد المـتلاشي — ـالات حـالم مفتـون
، المطـلِّ ، للشَّـفق السـاجي — ـحر الأسـى ، وسـحر السـكون
ـعبـير الـذي يرفـرفُ في الأفـق — ـى ، مثـلَ المنـى في سـكون
لأغـاني التـي يردِّدهـا الراعـي — ـار ه الصـغير الأمـين
ـربيـع الـذي يـؤجِّج في الـدنيا — ـاةَ الهـوى وروحَ الحنـين
ـب الوجـودَ بالسـحرِ والأحـلامِ — ـر والشـذى واللحـون

حيـــاة التـــي تغنِّـــي حـــالِيً ... لى السـهل ، والربـى ، والحـزون
ـــابيعِ ، للعصـــافير ، للظـــلِّ ، ... ذا الثـرى ، لتلـك الغصـون
ـــيمِ الـــذي يُضـــمِّخُ أحلامـــي ... ـــر الأقـــاح والليمـــون
ال الـــذي يفـــيض على الـــدنيا ... ـــواق قلبـــي المشـــجون
مَـــان الـــذي يوشِّـــح أيَّـــامي ... ـــوء المنى ، وظـــلِّ الشـــجون
، السـكرانِ ، للأمـلِ المعبـودِ ... ـــأس ، للأســـى ، للمنـــون

* * *

ـدتُ ، ثـــمَّ قلـــتُ : «وقلبـــي» ... يغنِّيـه ؟ مـن يجيـبُ شـجوني؟[1]
ـت : «الحـبُّ» ثـم غنَّـت لقلبـي ... ـــبَلاً عبقريّـــةَ التلحـــين
ـــبلاً ، علمـــتْ فـــؤادي الأغـــاني ... ـــارتْ لـــه ظـــلامَ الســـنين
لاً ، تُـــرقصُ الســـعادة والحـــبَّ ... لى لحنهـــا العميـــقِ الرصـــينِ

* * *

نـــا ، فقلـــتُ كالحـــالم المســـحور : ... قـــولي ، تكلمـــي ، خبرينـــي
ي دنيـــا مســـحورة ؟ أيُّ رؤيـــا ... عتني في ضـــوء هـــذي العيـــون ؟
ـرٌ مـــن ملائـــك المـــلأ الأعـــلى ... ـــونَ في حنـــوٍّ حنـــونَ
ـــبايا رواقـــصُ ... تراشـــقنَ ... ـــر التفـــاح والياســـمين
ء ، مـــورَّد ، حـــالم ، ســـاه ... ـــتْ بـــه عـــذارى الفنـــون
ـــيمٍ تـــؤج تحـــتَ فـــراديسَ ... ـــأحلام شـــاعرٍ مجنـــونِ !
ـــرٍ مـــؤجَّجٍ ، ولهيـــب ... ـر ؟ أيُّ نشـــوة وجنـــون ؟
ـــر رشـــفت ؟ بـــل أيُّ نـــار ؟ ... ـــفاه ، بديعـــة التكـــوين
تهـــا الحيـــاةُ في لهـــب الســـحرِ ، ... ـ الهـــوى ، وظـــلِّ الشـــجون
إثـــمٍ مقـــدَّس قـــد لبســـنا ... ـــردَه في مســـائنا الميمـــون ؟
يـــفُ بســـمةٍ ســـاحرٍ ، عـــذب ... ـــلى ثغرهـــا ، قـــويِّ الفتـــون

---

(١) كلمة يجيب ، في الديوان: يبيد.

جابـتْ ... وكلهـا فتنـة تُغـوي — ـري بالحـبِّ بـل بـالجنون :
داً أنـتَ حـالمٌ .. ـأل الليـلَ — ـدَ الظـلامِ علـمُ اليقـينِ

* * *

كتنا ، وغـرّد الحـبُّ في الغـابَ — ـغى حتـى حفيـفُ الغصـونِ
ـى الليـلُ والربيـعُ حواليْنـا — السـحرَ ، والـرؤى ، والسـكونَ
جـمال والحـبِّ ، شـ ـعْرِ يّاً — ـيداً عـلى فجـاجِ السـنينَ
ـهُ يزخـرُ الزمـانُ ويجـري — ـامتاً في مسـيله المحـزونَ
ـرٌ الآلامُ ، والحـزنُ ، والمـوتُ — ـداً عـن ظلِّـه المـأمونَ
بـداً سـاحراً ، مبـاخره الزهـرُ — ـلى الصـخرِ ، والثـرى ، والغصـونَ
ـلٌ ـر يضـوع منـه أريـجٌ — بخـور الربيـع ، جـمٌّ الفتـونَ
نجـوم السـماء فيـه شـموعٌ — ـدتها للحـبِّ روحُ القـرونَ
ـت نسـمة توسـوسُ للغـابَ — ـدو في عمـقِ ذاك السـكونَ
غـى السـحرُ والغـرامُ بقلبـي — وسـّلت ... ضـارعاً .. بجفـونيَ :
ـري يـا شـقيقةَ الـروحِ ثغـري — ب الحيـاةِ بـلْ قبلينـي !
َ الحيـاة ، والكـوثر المنشـود — ـرَك الشـهيُّ الحـزينَ
كـأسٌ سـحريةٌ لرحيـق الخلـد — ـد صـاغها إلـهُ الفنـونَ
بلينـي ، وأسـكري ثغـرَي الصـادي — وقلبـي ، وفتنتـي ، وجنـوني
لذّنـي أسـتطيعُ أن أتغنَّـى — ـمال الـدجى بـوحي بـون
آه ! ـا أجمـلَ الظـلامَ ! وأقـوى — ـهُ في فـؤاديَ المفتـون ! [1]
ظـري الليـل فهـو حـُلـّة الأحـلام — يمشيـ عـلى الـذرى والحـزون
واسـمعي الغـاب ، فهـو قيثـارة الكـون — تغنـي لحبنـا الميمـون
إن سـحر الضـباب والليـل والغـاب — يـدُ المـدى ، قـويٌّ الفتـون
وجمـال الظـلام يعبـق بـالأحلام — لحـبّ .. فابسـمي ، والثمينـي

(١) في الديوان زيادات وتعديلات كثيرة.

....

آه مـــا أعـــذب الغـــرام ! وأحـــلى   نَّـــةَ اللـــثم في خشـــوع الســـكون

* * *

... وسكراناً هنـاك ... في عـالم الأحـلام   تحـت السـماء ، تحـت الغصـون ..

وتـــوارى الوجـــود عنـــا بـــما فيـــه ..   وغبنـــا في عـــالم مفتـــون ..

ونســـينا الحيـــاة ، والمـوت ، والسـكون   ـــا فيـــه مـــن مُنـــى ومَنـــون

إلى الشعب

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ ١٥/ ١٠/ ١٩٣٣.

ب قلبُك الخافقُ الحسّاس ؟   ـــن الطمـــوحُ ، والأحـــلامُ ؟

ا شعبُ ، روحُك الشاعرُ الفنّانُ ؟   بـــن ، الخيـــال والإلهـــامُ ؟

يا شعب ، فنُّك ، الساحرُ الخلاّقُ ؟   بـــن الرســـومُ والأنغـــام ؟

ـــمِّ الحيـــاة يـــدوي حوالَيْـــكَ   ـــأين المُغـــامِر ، المقـــدام

أيـــن عـــزم الحيـــاة ؟ لا شيء إلاّ   ، والصـمتُ ، والأسى ، والظلام

ـــرٌ مَيِّـــتٌ ، ـــبٌ خَـــواءٌ   دمٌ ، لا تثـــيره الآلام

حيـــاةٌ ، تنـــامُ في ظلمـــة الـــوادي   وتنمـــو مـــن فوقهـــا الأوهـــام

ّ عـــيش هـــذا، وأيُّ حيـــاة ؟!   (أخَـفُّ منـه الحِمـامُ) (١)

* * *

شـت حولَـك الفصـول وغَنَّتْـكَ   ـــم تبـــتهج ، ولم تـــترنَّمْ

رَت فوقك العواصـفُ والأنـواءُ   ـــى أو شَـــكَت أن تـــتحطّم

ـت بـكَ الوحـوشُ وناشـتك   ـــم تضـــطرب ، ولم تتـــألمْ

يـا إلهـي ! ما تحـسُّ ؟ أمـا تشـدو ؟   ـــا تشـــتكي ؟ أمـــا تـــتكلّمْ ؟

---

(١) عجز هذا البيت للمتنبي ، وصدره ذلّ من يغبط الذليل بعيش.

ـــرُ الزَّمــان أيامَــك المــوْتَى ـض عُمْـــر كَ المتهـــدِّمْ
ــتَ لا مَيِّـــتَ فلى ، ولا حـــيٌّ يــ ، بــل كــائنٌ ، لـيس يُفْهَــمْ
ـدا يرمـــق الفـــراغَ بطـــرف لا يـــرى العـــوالم ، مُظْلـــمْ
حْرٍ دهــاكَ ، هـل أنـتَ مسـحورٌ ــقيٌّ ؟ أو مـــاردٌ ، يـــتهكَّمْ ؟

* * *

! ـل أنــت في الشـعوب عجــوزٌ ، ـــوفٌ ، محُطَّـــمٌ في إهابـــه
،َ شـوقُ الشـباب في قلبـه الـذاوي ، عـــزمُ الحيـــاة في أعصـــابهْ
مضى ينشــد الســلامَ .. ، بعيــداً ... في «قبــور الزمـــان» بلــفَ هضـــابه
هناكَ ، اصطفى البقــاءَ مع الأمـوات ، في «قـــبر أمســـه» ــيرَ آبـــهْ ...
ارتضى القــبرَ مســكناً ، تتلاشـى ــه أيـــامُ عُمْـــر لُمتشـــابهْ
ــى الحيــاةَ والــزَّمَنَ الــدَّاوي كـــان مـــنْ قـــديم ر غابـــهْ
ـالزَم القــبرَ ... ــو بيــتٌ ، شـبيهٌ ـكَ في صـــمت قلبـــه ، وخرابـــه
.بـد «ـس » ـر صـُـوَرَ المـاضي ُنْيا العجـــوز ذكـــرى شـــبابهْ ...

* * *

ذا مَـــرَّ الحيـــاةُ حوالَيْـــكَ ـيلاً ، كـــالزهر غضـــاً صـــباها
تتغنّـــى الحيـــاة بالشـــوق والعـــزم ـــي قلـــبَ الجهـــاد غَناهـــا
ربيـــعُ الجميـــلُ يـــرقص فـــوق ـرد ، والعشـــب ، مُنْشـــداً ، تيَّاهـــا
ى النـــاسُ خلفهـــا ، يتَمَلّـــوْنَ ـــالَ الوجـــــود في مَرْآهـــا
َرْ السِّحْرَ ! ـكُ القدّيسُ ، لحيـــاةَ يُغْـــــوي بهِ َاهـــا
ـعُ الفَنَّــانُ شــاعرُها المفتـــونُ ـــري بحبهـــا وهواهـــا
َّ الجمـالَ في رمَـــم المـــوتى ...! بعيـــداً عـــن ســـحرها وصـــداها
ــــزَّل بســـحر أيامـــك الأولى ــــلِّ الحيـــاةَ تخطـــو خطاهـــا

* * *

إذا هبّـــت الطيـــورُ مـــع الفجـــر ، تُغنِّـــي بـــين المـــروج الجميلـــة
ـــي الحيـــاةَ ، والعـــالمَ الحـــيَّ ، ــوت المحبَّـــة ، المعســـولهْ

ُ الجميلُ رَفْرَفَ في الروض ، ... ـاجي زهورَهُ المطلولهْ
قَ الوجودُ للعمل المُجْد ي ... للسَّعي ، والمعاني لجليلهْ
مشى الناس في الشِّعاب ، وفي الغاب ... ـوق المسالك المجهولهْ
دون الجمالَ ، والنُّورَ ، والأفراحَ ... لمجدَ ، والحياةَ النبيلهْ
غضض الطرفَ في الظلام ! اذ رْ ... نَة النُّور ! ـبِ رؤْيَا مَهولَهْ
ح ُ الحياةِ لا يُوقِظُ المَوْتَى ... ـيرحمُ الجفونَ الكليلهْ

* * *

ء يُعاطِف العالمَ الحيَّ ، ... ـذكي حياته ، ويُفيدُهْ
ذي لا يجُاوِب الكونَ بالإحساس ... بْءٌ على الوجود ، وُجودُهْ
ّ شيء يُسايِرُ الزمنَ الماشي ... ـزم ، حتى الترابُ ، ودودُهْ
ـل ّ شيء -لاّكَ- ـيٌّ ، عطوفٌ ... ُ الكونَ شدَوْقُهُ ، ونَشيدُهْ
ـاذا تعيش في الكون يا صاحِ ! ... ـا فيكَ من جنىً يستفيدُهْ
ـَ يا شيخُ للحياة بأهْلِ ... ـت داءٌ يُبيدُها وتُبيدُهْ
ـت قَفْرٌ جهنَّميٌّ لَعينٌ ، ... ـمٌ ، قاحلٌ ، مَريعٌ جمودُهْ
لا ف ٌّ الحياة فيه ، فلا طيرٌ ... ـي ، ولا سحابٌ يجَوُدُهُ

* * *

ـت يا كاهنَ الظلام حياةٌ ... ـبد الموتَ ، ! ـت روحٌ شقيٌّ
ـٌ بالحياة والنُّور ... ، لا يُصغي ... ـكون قلبُه الحَجَر يٌّ
قلبٌ ، لا شوقَ فيه ولا عزمَ ... ـهذا داءُ ـاة الدَّوِيٌّ
ـَ دنيا ، يُظَلِّلُها أفُقُ الماضي ... ـل ُ الكآبةَ الأبديٌّ
ـات فيها الزمانُ ، والكونُ إلاّ ... غابرُ ، القديمُ ، القَصيٌّ
ـقيٌّ الشقيٌّ في الأرض قلبٌ ... ـهُ مَيِّتٌ ، وماضيه حيٌّ
لا شيءَ في الوجودِ ، فغادِهُ ... ـوت فَهْوَ عنك غَنِيٌّ

الناس

نظم الشاعر الأبيات بتاريخ ٨/ ١٢/ ١٩٣٣.

ـا قـدّس المثـل الأعـلى وجمّلـه ـين النـاس إلا أنّـه حلـمُ
لـو مشـى فـيهم حيـاً لحطّمـهُ مٌ، وقَـالوا بخبـث :ـه صـنمُ
ـد النـاس ُ إلاّ كـلّ منعـدم منـع ، ولمـن نابـاهم العـدمُ
ـى العبـاقرةُ الأفـذاذُ حـبُّهم ى الشِـقاءَ وتلقـى مجـدَها الـرممُ
ن ُ لا يُنصـفون الحـيَّ بيـنَهمُ تّـى إذا مـا تـوارى عـنهمُ نـدموا
ـل ُ للنـاسِ مـن أهـوائهم أبـداً ـ الزمـانُ وريـحُ الشرِّ ـ تحتـدمُ

متاعب العظمة

نظم الشاعر هذين البيتين بتاريخ ١١/ ١٢/ ١٩٣٣، وهما في الحكمة.

إذا صـغرت نفـس الفتـى كـان شـوقه ـغيراً ، فلـم يتعـب ، ولم يتجشّـمِ
ومـن كـان جبّـار المطـامع لم يـزل لاقـي مـن الـدنيا ضراوة قشـعَمِ

نشيد الجبار

أو: هكذا غنى بروميثيوس

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ ١٥/ ١٢/ ١٩٣٣، وفي القصيدة يعلن الشاعر ثورته وعصيانه وفيها يظهر الشاعر متمرداً.

ش ُ رغـمَ الـداء والأعـداء ، فـوقَ القـمّـة الشـمّاءِ
ـنو إلى الشـمسِ المضـيئة هازئـاً ـحب ، والأمطَـار ، والأنـواءِ
ـمـق الظـلَّ الكئيـبَ ولا أرى قـرار الهـوّةَ السـوداءِ
ـسـيرُ ، دنيـا المشـاعرِ حالمـاً داً ، وتلـكَ سـعادة الشـعراءِ
ـغي لموسـيقى الحيـاةِ ووحيِـها ـبُ روحَ الكـونِ في إنشـائي

ـيخُ للصـوتِ الإلهـي الـذي ... ـي بقلبـي ميِّـتَ الأصـداءِ

* * *

ـولُ للقَـدَرِ الـذي لا ينثني ... حـربِ آمـالي بكـلِّ بـلاءِ :
«ـئُ اللهبَ المؤجَّجَ في دمي ... ـحُ الأسـى ، وعواصـفُ الأرزاءِ
اهـدمْ فـؤادي ما استطعت فإنه ... مثـلَ الصـخرة الصـمّاءِ
يعـرفُ الشكوى الذليلةَ والبكا ... عـةَ الأطفـالِ والضـعفاءِ
ـيشُ جبـاراً يحـدِّق دائـماً ... بـالفجر .. بالفجرِ الجميـلِ النـائي
وامـلأ طريقـي بالمخـاوف والـدجى ... وزوابـعِ الأشـواك والحصـباءِ
ـعليـه الرعـبَ وانثـرْ فوقَـهُ ... الـرّدى وصـواعقَ البأسـاءِ
أظلّ أمَشيـرغـمَ ذلـك عازفـاً ... قيثـارتي مـترنِّماً بغنـائي
شيـبـروح حـالمٍ ، متـوهِّجٍ ... مـة الآلام والأدواءِ
نـورُ في قلـبي وبـينَ جـوانحي ... لامَ أخشـى السـيرَ في الظلـماءِ ؟
ي أنـا النـايُ الـذي لا تنتهـي ... ـه مـا دامَ في الأحيـاءِ
ـا الخضـمُّ الرحـبُ ، لـيس تزيـده ... حيـاةً سـطوةُ الأنـواءِ

* * *

ـا إذا خمـدت حيـاتي وانقضـى ... وأخرَسَـت المنيّـةُ نـائي
وخبـابُ الكـون في قلبـي الـذي ... مثـلَ الشـعلة الحمـراءِ
ـا السـعيدُ بـأنني متحـوِّلٌ ... ـن عـالمِ الآثـامِ والبغضـاءِ
ـَ في فجـرِ الجـمالِ السرمـد ... أرتـوي مـن منهـلِ الأضـواءِ

* * *

ـولُ للجمـعِ الـذين تجشّـموا ... ـدمي وودُّوا لـو يخـرُّ بنـائي
ـوا عـلى الأشـواك ظـلي هامـداً ... خيلـوا أني قضـيتُ ذمـائي
ـدوا يشـبُّون اللهيـبَ بكـلِّ مـا ... وجـدوا .. ليشـووا فوقَـه أشـلائي
مضـوا يمـدُّون الخـوانَ ليـأكلوا ... لحمـي ويرتشـفوا عليـه دمـائي
أقـولُ لهـمْ ووجهـي مشرق ... على شفـاهي بسـمةُ اسـتهزاء :

« المعاولَ لاَ ـدٌّ مناكبي ... النارُ لا تأتي على أعضائي
ـى ولو أمسيتُ جسماً ميِّتاً ... لعصف الزعزعِ النكباء [1]
موا إلى النارِ الحشائشَ والعبوا ... شرَ الأطفال تحتَ سمائي
ا تمرَّدت العواصفُ وانتشى ... قلبُ القبَّة الزرقاء
ورأيتموني طاراً مترنِّماً ... العواصف في الفضاء النائي
فارموا على ظلي الحجارةَ واحتفوا ... فَ الرياحِ الهوج والأنواء
وهناك في أمن البيوت تطارحوا ... الحديثَ وميِّت الآراء
ترنَّموا ما شئتمُ بشتائمي ... تجاهروا ما شئتمُ بعدائي
ـا أنا فأجيبكمْ من فوق كم ... شمسُ والشفق الجميل إزائي:
«جاشَ بالوحيِ المقدَّس قلبه ... ـل بحجارةِ الفلتاءِ »!!

زوبعة في الظلام

نظم الشاعر القصيدة بتاريخ ٢٤/ ١٢/ ١٩٣٣.

ـو كانت الأيامُ في قبضتي ... تُها للريحِ مثل الرمالْ
قلتُ : «يا ريحُ بها فاذهبي ... بدِّديها في سحيق الجبالْ
ل في فجاجِ الموتِ في عالم ... رقصُ النورُ به والظلالْ »

* * *

ـو كان هذا الكونُ في قبضتي ... يتهُ في النارِ : نار الجحيمْ
ما هذه الدنيا وهذا الورى ... ـك الأفقُ وتلكَ النجومْ
ـارُ أولى ببعيد الأسى ... ح الموتِ وعُشٌّ لهمومْ

* * *

يا أيها الماضي الذي قد قضى ... ـمّه الموتُ وليلُ الأبدْ

(١) هذا البيت غير موجود في الديوان.

أيهـــا الآتي الـــذي لم يلـــدْ ... حـــاضرَ الناس الـــذي لم يـــزلْ

لا تحُـــــدْ في ظلمـــــةٍ هـــــذه ... ســـــخافةُ دنيـــاكم هـــذه

قصائد عام ١٩٣٤

وعددها تسع قصائد:

- الإيمان بالحياة، أو الاعتراف.
- إلى طغاة العالم.
- الغاب.
- الدنيا الميتة.
- قال قلبي للإله.
- قلب الشاعر.
- حرم الأمومة.
- شكوى ضائعة.
- فلسفة الثعبان المقدس.

الإيمان بالحياة

أو: الاعتراف

نظم الشاعر قصيدته بتاريخ ١٧/ ٢/ ١٩٣٤، نشرت في مجلة أبولو بعنوان (الإيمان بالحياة)، لكن عنوانها في الديوان (الاعتراف).

مـا كنـت أحسـب بعـد موتـك يـا أبي … – ومشـاعري عميـاء بـالأحزان –
ِّ سـأظمأ للحيـاة ، واحتسي … ـن نهْرهـا المتـوهِّج النشـوان
ـودُ للـدنيا بقلـب خـافق … حـبِّ ، والأفـراح ، والألحـان
ولكـل مـا في الكـون مـنْ صـور المنـى … وغرائـب الأهـواء والأشـجان
حتـى تحركـت السـنون ، وأقبلـت … فـتن الحيـاة بسـحرها الفتَّـان
ـإذا أنـا مـا زلـت طفـلاً ، مولَعـاً … بتعقّـب الأضـواء والألـوان
ذا التشـاؤم بالحيـاة ورفضُـها … رب مـن البهتـان والهـذيان
ن ابـن آدمَ في قـرارة نفسـه … ـدُ الحيـاة الصـادقُ الإيمـان

قلب الشاعر

نظم الشاعر قصيدته بتاريخ ١٦/ ٣/ ١٩٣٤.

ـل مـا هـبَّ ومـا دبَّ ومـا … امَ أو حـامَ عـلى هـذا الوجـودْ[1]
ـن طيـور وزهـور وشـذى … ـابيعَ وأغصـان تميـدْ
ـار وكهـوف وذرى … بـراكين ووديـانٍ وبيـدْ
ـياء وظـلال ودجـى … ـول وغيـوم ورعـودْ
ـوجٍ وضـبابٍ عـابرٍ … صـيرٍ وأمطـارٍ تجـودْ
وـاليمَ وديـنٍ ورؤى … ـيسَ وصـمتٍ ونشـيدْ
ـلّهـا تحيـا بقلبـي حـرةً … ـةَ السـحرِ كأطفـالِ الخلـودْ

---

(١) في الديوان نام بدلاً من قام

نــا في قلبــيَ الرحــبِ العميــق ن ُ المــوتُ وأطيــافُ الوجــودْ
ا هنــا تعصــفُ أهــوالُ الــدجى ا هنــا تخفــقُ أحــلامُ الــورودْ
هنــا تهتــفُ أصــداءُ الفنــون هــا هنــــزفُ ألحــانُ الخلــودْ
هــا هنــا تمشيــ الأمــاني والهــوى أســى ؛ في موكــب فخــمِ النشــيدْ
ــا هنــا الفجــرُ الــذي لا ينتهــي نــا الليــلُ الــذيَ لــيسَ يبيــدْ !
ــا ألــفُ خ ضـ َــمٍّ ثــائر الثــورة مجهــول الحــدودْ
ــا هنــــا في كَــــلِّ آن تمَّحــــيّ مَــورُ الــدنيا وتبــدو مَــن جديــد !

إلى طغاة العالم

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ ٨/ ٤/ ١٩٣٤، ويتوقع فيها الشاعر أن العاصفة سوف تجهز على الظالمين ليبزغ فجر الحياة الجديد:

لا أيهــــا الظــــالم المســــتبِد بيـــب الظـــلام ، عـــدوّ الحيـــاهْ
ـــخرتَ بأنّـــات شـــعب ضـــعيف كفـــك مخضـــوبة مـــن دمـــاهْ
سرتَ و ّه س ـــحْ رَ الوجـــود بـــذر شـــوك الأســـى في رُبـــاهُ

* * *

َيـــدَكَ !؟ يخـــدعنْك الربيـــعُ صــحوُ الفضــاء ، وضــوء الصــباح
ــي الأفُــق الرحــب هــولُ الظــلام قصــفُ الرعــود ، وعصــف الريــاح
حـــذار ! حـــت الرمـــاد اللهيـــبُ مـــن يبـــذر الشـــوك يجـــنِ الجـــراح

* * *

تأمـــل ! الـــك أنّـــى حصـــدتَ س َ الـــورى ، وزهـــورَ الأمـــلْ
ّـيــت بالـــدم قلـــبَ الـــتراب ْ بتَـــه الـــدمعَ ، حتـــى ثمـــل
جرفكَ الســيلُ ، ســيلُ الــدماء لُـــك العاصـــفُ المشـــتعِل

الغاب

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ ٢٣/ ٧/ ١٩٣٤.

ن ٌ ، بَنَتْه لي َ الحياةُ من الشذى ،   والظل ، والأضواء ، والأنغام
ٌ ، من السحر الجميل ، مُشَيّدٌ   حب ٍّ ، والأحلام ، والإلهام
ب سحرٌ ، رائعٌ مُتجدِّدٌ   اق على الأيام والأعوام
ى ً كأجنحة الملائك ، غامض ٌ   اه يُرفرف في سكون سام
داولٌ ، تشدو بمعسول الغ نا   سير ُ حالمةً ، بغير نظام
رفٌ نَسَجَ الزمانُ بساطَها   ن يابس الأوراق والأكمام
عليها الدّوْح ُ ، في جَبر َ وته   ظل ٍّ ، والأغصان والأنسام
الغاب ، في تلك المخارف ، والرُّباء   على التِّلاع الخُضر ، والآجام
ن مشاء ر َ ، حلوة ، ولة   ى ، وم نْ ف كَر ، ومن أوهام
ت ْ ، كأسراب الطيور ، ورفرفتً   حولي ، وذابت كالدخان ، أمامي
م ْ أصدَخْتُ إلى أناشيد الأسى   دّ الآلام والأسقام
وإلى الرياح النائحات كأنها   لغاب تبكي مَيِّت الأيام
الشباب ، مُغَنِّاً ، مُتر َنِّماً   وْلي بألحان الغرام الظامي
عت ُ للطير ْ ، المغرِّد في الفضا   السِّنديان ، الشامخ ، المتَسامي
أناشيد الرعاة ، مُرفّةً   اب ، شاديةً كسر ب يَمام
ى الصدى ، المـ مراح ، يهتف راقصاً   بين الفجاج الفيح والآكام
حتى غَي كناي ، مُترْع   ل من الألحان والأنغام
دوتُ باللحن الغريب مجُنَّحاً   بَة الأحلام والآلام
الغاب ، دنيا للخيال ، وللرُّؤى ،   شعر ، والتفكير ، والأحلام
ض مضيتُ أوّل َ مَرَّة   غاب ، أرزحُ تحت عبء سقامي
دخَلتُدي ، وحوْلي موكبٌ   زِ جٌ ، من الأحلام الأوهام
يْتُ تحت ظِلاله مُتَهَيِّباً   ل ، في صَمْت ، وفي استسلام

نـــو إلى الأدْواح ، في جبروتهــا حالهــا عَمَـــدَ الســماء ، أمـــامي
ا سـ ـحْرُ الحيـاة ، فأوْرَقَـتْ ـــتْ في جَنَّـــة الأحـــلامِ
للصَّـمْت المفكـر ، هاتِ فـاً م سـمعي بغرائـب الأنغـام
نـا في نَشْـوَة شـعريَّة .ـــة بـالوحي والإلهـام
ـاعري في يقظـة مسـحورة ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟[1]
ـنَى كيقظـة آدَمَ لمَّـا سرى جسـمه رُوحُ الحيـاة النـامي
.ـجَـيقى الوجـود ، وعانقـتْ أحلامَـه ، في رقّـة وسـلام
ى الفـراديس ، الأنيقـةَ ، تنثـي ـترْف الأزهـار والأكـام
أى الملائـك ، كالأشـعَّة في الفضـا ـاب سَـابحةً ، بغـير نظـام
س رُوحَ الكـون تخفـق حولـه الظِّـل ، والأضـواء ، والأنسـام
وائنـات ، تحوطـه بحنانهـا ـهـا ، الرحـب ، العميـق ، الطـامي
ـى تمـلأ بالحيـاة كـيانُـه ـسـعى وراء مواكـب الأيـام
صُـبْح غـائم ، مُتحجِّـب ـة مـن زَعْـزَع وغَـام
ـنفَّس الـدنيا ضـباباً ، هـائماً تـدفّعاً في أفْقـه الُمترامـي
والرّيحُ تخفـق في الفضـاء ، وفي الثرى ـلى الجبـال الشـمّ ، والآكـام
ُ فيـه الغـاب مَوْهُـونَ القُـوَى ـاذل الخُطُـوات والأقـدام
ـتُ تحـت السـنديانة ، واجمـاً أرنـو إلى الأفُـق الكئيـب ، أمـامي
ـأرى المبـانيَ في الضـباب ، كأنهـا ـرٌ ، بـأرض الشـكّ والإبهـام
المَ ، مـا زال يُولَـدُ في فَضـاء ن ، بـين غياهـب وسـدام
الفجـاجَ الدامسـات ، خلالَـهُ ـمشَـاهدَ الوديـان والآجـام
ـا شُـعَبُ الجحـيم ، رهيبـةً فـةً في غُبْشـة وظَـلام
ٌ ، مـن الفـنّ المُـرَوّع ، أعجـزت ـْي القـرين وريشَـةَ الرسـام
ـمْ مسـاء ، حـالم متوشّـح ظـل ، والضـوء الحـزين الـدامي

(١) غير موجود في الأصل والمسودات.

سرتُ في غـابي ، كفكـر ، هـائمٍ　　　نشـوة الأحـلام والإلهـام
ر ي ، وأفكـاري ، وكُـلٌّ مشـاعري　　　منشـورةٌ للنُّـور والأنسـام
ُ يزخـر بالأشـ ـعّة والشـذَى　　　ِض ُ بالأعشـاب والأكـمام
ـابُ سـاجٍ ، والحيـاةُ مصيخةٌ　　　ـق ُ ، والشـفقُ الجميـلُ ، أمـامي
ِس ُ أحلامـي تُـداعبُ عُودَهـا　　　نّ قلبـي بالصدَّى وعـ ظـامي
ح ٌ أنـا ، مسـحورةٌ ، في عـالمَ　　　ـوق الزمـان الزاخـر الـدَّوّام

* * *

في الغـاب ، في الغـاب الحبيـب ، وإنَّـه　　　مُ الطبيعـة والجـمال السـامي
ـر ْتُ في نـار الجـمال مشـاعري　　　ـتُ في دنيـا الخيـال سَـلامي
سيتُ دنيـا النـاس ، فهـي سـخافةٌ　　　ـكْرَى مـن الأوهـام والآثـام !
، ُ مـن عَطْـف الوجـود وحُبِّـه　　　الـ ـه قبسـاً ، أضـاءَ ظلامـي
ِأيـتُ ألـوانَ الحيـاة نضـيرةً　　　ـارة الزَّهَـر الجميـلِ النـامي
، ُ سـ حَرَ الكـون أسمى عنصـراً　　　ـلّ مـن حَـزَني ومـن آلامـي
مبْـتُ – مسـحوراً لمشـاعر ، حالمـاً　　　شـوانَ بالقلـب الكئيـب الـدامي:
«دُ الحـيُّ المقـدّسُ هاهنـا !　　　ـا كـاهنَ الأحـزان والآلام»
«خلعْ مُسـوحَ الحـزن ـت ظـلاله　　　ـبسْ رداءَ الشـعر والأحـلام»
«عْ صَـلاتَكَ للجـمال ، عميقـةً　　　مشـبوبةً بحـرارة الإلهـام»
«صـدحْ بألحـان الحيـاة ، جميلـةً　　　ـمال هـذا العـالمَ البسَّـام»
«ٔ مع العـ طْـر المرفـرف في الفضـا　　　قـصْ مـع الأضـواء والأنسـام»
«ومـع الينـابيع الطلي والصدَّى ،　　　........................» (١)
وْتَ أفكـاري الحزينـةَ للـدجى　　　نثرتهُـا لعواصـف الأيـام
ـيتُ أشـدُو للأشـعَّة سـاحراً　　　مـن صـوت أحـزاني ، وبطـش سـقامي
هتفـتُ : «وحَ الجـمال تَـدَفَّقِ ي　　　ـالنَّهرِ في فِـكـري ، وفي أحلامـي»

(١) هكذا وجدت البيت في الديوان.

«وتغلغلي كالنور، في روحي التي لَــت مـن الأحـزان والآلام»
« الشعورُ الحيُّ يزخر دافقاً كالنار، في روح الوجود النامي»
« أَحلام الطبيعة ، فاجعلي عُمُر ي نشيداً، ساحر الأنغام»
« يَضُوعُ مع الأشعَّة والرؤى في معبد الحق الجليل السامي»

حرم الأمومة

نظم الشاعر هذه الأبيات بتاريخ ٣/ ٨/ ١٩٣٤.

لأم تلثم طفلها ، وتضمُّه م سماويٌّ الجمال مقدّسُ
تتألّه الأفكار وهي جواره ود طاهرةً هناك الأنفسُ
رمُ الحياة يظهرها وحنانها فوقه حرمٌ أجلُّ وأقدس ؟
ت يا حرمَ الأمة والصبا م فيك تكتمل الحياةُ وتقدُس

شكوى ضائعة

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ ٥/ ٨/ ١٩٣٤، وهي من روائع الشابي فيها يهجر القدر الذي يقرنه بالوحش الخفي.

يا ليل! تصنع النفسُ التي سكنت ا الوجودَ، ومن أعدائها القدر ؟
ترضى وتسكت ؟ هذا غير محتمل ! إذاً، فهل ترفض الدنيا، وتنتحر ؟
ونٌ لَعَمْري، كلُّه جَزَعٌ رأيٌ مريضٌ ، كلُّه خَوَر !
إنما الموت ضربٌ من حبائله يُفلت الخَلقُ ما عاشوا، فما النظر ؟
و اللغْزُ ، عَماهُ وعَقَّدَهُ الخليقة، وحشٌ ، فاتكٌ ذر
بَّلَ القدرُ الضاري فرائسَه ما استطاعوا له دفعاً، ولا حَزَروا
خاطَ أعينَهم، كي لا تشاهده ينٌ، فتعلم ما يأتي وما يذر
اطهم بفنون من حبائله ما لهم أبداً من بطشه وزر

لا الموت يُنقذهم من هول صولته ولا الحياةُ .ساوى الناسُ والحجر !
المساكينُ ، وارتاعوا ، وأعْجَزَهم يحذروه ، وهل يجدُيهم الحذر
يعيشون في دنيا مشيَّدة من الخطوب ، وكون كله خطر ؟
أعمى ، مُدْلَجٌ ، تَعِبٌ ، الظلام ، ولا عزمٌ ولا بَصر ؟
قد أيقنوا أنه لا شيء يُنقذهم فاستسلموا لسكون الرعب ، وانتظروا ..
ولو رأوه لسارت كي تحاربه من الورى زُمَرٌ ، في إثرها زمر
ثارت الجنّ ، والأملاك ناقمةً ، والبرّ ، والأفلاكُ ، والعُصرُ
نه قوَّةٌ تمُلي إرادتها اً ، فعنوا لها قهراً ، ونأتمر
يقة ، مُرَّةٌ ، يل ، مُبْغَضَةٌ ، لكنْ إليها الورْدُ والصَّدَرُ

* * *

سدَ الليلُ ، حتى قلت: «رَتْ ك النجومُ ، ومات الجنّ والبشر»
عاد للصّمت .. ، يُصغي في كآبته - كالفيلسوف - إلى الدنيا ، ويفتكر ..
هَ القدرُ الجبَّارُ ُخريةً بالكائنات .احَكْ أيهّا القدر !
شي إلى العدمِ المحتوم ، باكيةً ئف الخلق والأشكالُ والصور
فوقَ الأسى والموتُ ، مبتسمٌ نو إلى الكون ، يُبْنَى ، ثمَّ يندثر

الدنيا الميتة

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ ١٠/٨/ ١٩٣٤، وفيها هجاء للناس الفاقدي الإنسانية والكرامة، كما فيها حكمة.

إني أرى .. أرى جموعاً جمَّة لكنّها تحيا بلا ألْباب
يدوي حوالَيْها الزمان ، كأنما يدوي حوالي جندل وتراب
وإذا استجابوا للزمان تناكروا وتراشقوا بالشوك والأحصاب
وْا على روح الأخوَّة بينهم جهلاً وعاشوا عيشةَ الأغراب
ت بهم غولُ التعاسة والفنا ام ع السَّلاَّب والغلاَّب

، يحُ ر ّكها المطـام عُ ، واللهى ... صـغائرُ الأحقـاد والآراب
ى نفوساً ، من دُخان ، جامد ... ـت ، كأشباح ، وراء ضباب
تَى ، نَسُوا شوقَ الحاة وعزمَهَا ... ر ّكَوا كتحـر ّك الأنصاب
مْ لهَبُ الوجود ، فما بَقُوا ... كمحترق من الأخشاب
ـ يقتحمُ الحياةَ ، ولا حـ جى ... ـمو سُمُوَّ الطائر الجوّاب
التراب المَيْت في حَزْنَ الثرى ... ـمو مشاعرُهم مع الأعشاب
تموت خاملةً ، هْر بائس ... بنمو ويذبُل في ظلام الغاب
تحُدّقُ في التراب .. ولا ترَى ... ـورَ السماء .. فروحُها كتراب .. !
ـاعر الموهوبُ يهُر ق فنّه ... هدراً على الأقدام والأعتاب
بش في كون ، عقيم ، ميّت ... قد شيّدته غباوة الأحقاب
ـالمُ الذّ يُنْفق عُمْرَه ... فهم ألفاظ ، ودرس كتاب
ـبا على ر مم القديم المجتوى ... ـدود في حمَم الرماد الخابي
الشعب بينهما قطيعٌ ضائع ... دنياه دنيا مأكل وشراب

* * *

ويـل للحسّاس في دنياهم ... ـاذا يلاقي من أسى وعذاب

فلسفة الثعبان المقدس

نظم الشاعر هذه القصيدة بتاريخ ٢٠/ ٩/ ١٩٣٤، وتمثل القصيدة فلسفة الثعبان المقدس وهي فلسفة القوة المثقفة في كل مكان. وكما تحدث الثعبان في القطعة التالية إلى الشحرور بلغة الفلسفة المتصوفة، حينما حاول أن يزين له الهلاك الذي أوقعه فيه، فسماه «تضحية» وجعله السبيل الوحيد للخلود المقدس ...

كذلك تتحدث اليوم سياسة الغرب إلى الشعوب الضعيفة بلغة الشعر والأحلام حيثما تحاول أن تسوغ طريقتها في ابتلاعها والعمل لقتل ميزاتها القومية فتسميها : «سياسة الإدماج» وتتكلم عنها كالسبيل الوحيد الذي لا معدى عنه لهاته الشعوب إذا أرادت نيل

حقوقها في هذا العالم ، وبلوغ الكمال الإنساني المنشود، ولكن الفناء حقيقة شنيعة، مبغضة، لا ينقص من فظاعتها وكرهها كل ما في التصوف والفلسفة والشعر من خيال وأحلام.

ان الربيعُ الحيُّ روحاً ، حالماً … ـ ً الشباب ، معطَّرَ الجلباب
يمشي على الدنيا ، بفكرة شعر … طوفها ، في موكب خلاّب
أفْقُ يملأه الحنانُ ، كأنه … ـبُ الوجود المنتجِ الوهّاب
كون من طُهْرِ الحياة كأنما … ـوَ معبدٌ ، والغابُ كالمحراب
الشاعر الشحرورُ يرقص ، منشداً … ـمس ، فوقَ الوردِ والأعشاب
عْرَ السعادة والسلام ، ونفسُه … رَى بسـ ـحْرِ العالمَ الخلاّب
رآه ثعبانُ الجبال ، فغمه … ـه من مَـرَحِ ، وفَيْضِ شباب
ـ ً ، مُضْـ ـطَغِناً ، كأنَّه … ـوطُ القضاء ، ولعنةُ الأرباب
تَ الشقيُّ ، فصاح في هول الفضا … ـتاً للصائل المُنْتاب
ـدَفَّقَ المسكينُ يصرخ ثائراً : … «ـاذا جنيتُ أنا فحق عقابي !»
«ئيءَ ، إلا أنني متغزلٌ … كائنات ، مغرّدٌ في غابي»
«لقى من الدنيا حناناً طاهراً … بثُها نجوى المحبِّ الصابي»
«ـدٌّ هذا في الوجود جريمةً ؟! … ـن العدالةُ يا رفاقَ شبابي؟»
«لا [أين؟] فالشرعُ المقدَّسُ هاهنا … ـُ القويِّ وفكرةُ الغلاّب ! »
«ةُ الضعفاء جُـرْمٌ ... ، ما له … ـد القويِّ سوى أشدّ عقاب ! »
«تشهد الدنيا التي غَنَّيْتُهَا … ـلمَ الشباب ، وروعة الإعجاب»
«السلامَ حقيقةٌ ، مكذوبةٌ … ـعدلَ فلسفةُ اللهيب الخابي»
«عدلَ لا إنْ تعادلت القُوَى … ـادَمَ الإرهابُ بالإرهاب»
ـمَ الثعبانُ بسمةَ هازئ … ـمْت ، وفَرْطِ كذاب :
«أيها الغـ ـرُّ المثرثر ، إنَّني … ـْثي لثورة جهلك التلاّب»
«ـرٌّ يعذره الحكيمُ إذا طغى … ـلُ الصِّبا في قلبه الوثّاب»

«ﮩ ْ عواطفــكَ الجــوامحَ ، إنهـ ّــا ... ، ْ بُلبِّـــكَ ، واســتمعْ لخطــابي»
« إلـــهُ ، طالمَــا عَبَــدَ الــورى ... ــلي ّ ، وخـــافوا لعنَتــي وعقــابي»
«قـــدَّموا لي بالضـــحايا مـــنهمُ ... ـر حين ، شـــأنَ العابـــد الأوّ اب»
«ســعادةُ الـــنفس التقيَّـــة أنهـــا ... ِمـــاً تكـــونُ ضـــحيَّة الأربـــاب»
«ســير في رُوح الألوهـــة بضـــعة ، ... ـيَّةً ، خلَصــتْ مــن الأوشــاب»
«لا يسرّ ـــكَ أنْ تكـــونَ ضـــحيَّتي ... .ُـــل ّ في لحمـــي وفي أعصـــابي»
«كـونَ عزمــاً في دمــي ، وتوهّجــاً ... ـاظرَيّ ، وحـ ـــدَّةً في نــــابي»
«ربَ في رُوحـ ـي التــي لا تنتهــي ... صـيرَ بَس ألـوهتي وشـبابي ..؟ »
«ردتُ لـــك الخلـــودَ مؤلهـّــاً ... ، روحــيَ البــاقي عــلى الأحقــاب .. »
«ـرْ ، لتـــدركَ مـــا أريــدُ ، وإنّـــه ... أسـمى مـن العـيش القصـير النـابي»
«ه الشـحرورُ ، في غُصَـص الـرَّدى ... لمـوتُ يخنقــه : «بــكَ جــوابي : »
«أيَ للحقّ الضـ ، ولا صـدىً ، ... رّ أيُ ، رأيُ القـــاهر الغـــلاّب»
«ـلْ مشــيئتكَ التــي قــد شــئتَها ... حـمْ جلالَـكَ مـن سـماع خطـابي.. »

* * *

ـــذاك تتخـــذ المظـــالمُ منطقـــاً ... ـذْباً لتخفـــي ســـوْءَةَ الآراب

قال قلبي للإله

نشرت في مجلة العالم الأدبي التونسية ١٩٣٣ وهي في الديوان بلا تاريخ، والقصيدة تعبير عن كفاح الشاعر وثورته وتمرده، وقد وقع الشابي تجربته هذه على إيقاع الصور التجسيدية.

جبـــال الهمـــوم ، أنْبـــتّ أغصــــاني ... ـــتْ بـــين الصـــخور بجَهْـــد
ــاني الضـــبابُ ..فأورقـــتُ ... أزهـــرتُ للعواصـــف ، وحـــدي
نايلـــتُ الظـــلام ، وعطّـــرتُ ... فضـــاء الأســـى بأنفـــاس وردي

الحيـاة ، والشـوق غَنَّيْـتُ .. ، ـــم تفهـــم الأعاصــير قصـــدي
للوهـَـاد أفنـاني الخُضر ، للّــت في الـــثَّلج تحفـر لحـــدي
ومضـت بالشـذى فقلـت: «ســتبني ـروج السـماء بـالعطْر مجـْـدي»
زَلْــتُ بــالربيع ، وبـــالفجر فـماذا سـتفعل الـريح بعـدي ؟



قصائد غير محددة زمنياً

هذه القصائد لم أتمكن من معرفة تاريخ نظمها ولكنها وجدت منشورة في الجرائد ، ومثبتة في الديوان وفي غيره، وعددها ثنتا عشرة قصيدة.

زئير العاصفة

نشرت أول مرة عام ١٩٢٧ ولكنها وردت في الديوان بلا تاريخ.

تسـائلني : «سـكتّ ، ولم أُهِـبْ ـومي ، وديجـورُ المصـائب مظلـم»
«ـيل الرزايـا جـارفٌ ، متَـدفّعٌ ـوبٌ ، ووجه الـدهر أربـدُ ، أقْـتَم؟»

* * *

ـتّ ، وقـد كانـت قنـاتيَ غضّـةً ـُصـيخ إلى همـس النسـيم ، وتحلُـم
ـتُ ، وقـد أصـغتْ إلى الـريح مـرّةً جـاش بهـا إعصـاره المتهـزّم
ـُ وقـد جـاش القـريض بخـاطري جـاش صـخّابُ الأواذيّ ، أسحم :

* * *

«المجـد معصـوبَ الجبـين مجُـدّلاً حَسَـك الآلام ، يغمـره الـدم»
«ـد كـان وضّـاح الأسـارير ، باسـماً ـبّ إلى الجُـلى ، ولا يتـبرّم»

* * *

«يـا أيهـا الظلـم المصعِّر خـدّه رويـدك ! إن الـدهر يبنـى ويهـدم»
«ـيثأر للعـزّ المحطّـم تاجـه إذا جـاش الـرّدى فهُـمُ هُـمُ»
«ـ يـروْن الـذُّلّ عـاراً وسُـبّة يرهبـون المـوتَ ، والمـوتُ مقـدم»
«ـل تعـتلي إلا نفـوسٌ أبيّـةٌ تصـلالَ الهـوانِ ، وتحطِـم»

إياك

ـاكَ والتّحـديق مِـنْ ـلِ البراقـع لِلْحَـوَرْ
ـاول الأعنـاق نحـو جمـال رَبّـات الخَفَـرْ
لحـبّ في طغيانـه ـيْلِ إمّـا ينهمـرْ
ـد حَسَـوْتُ زُعافَـه ـبرْتُ منـه المُسْـتَترْ

كهرباء الغرام

كَـاءُ الغـــرام في الأعـــين النُّجْـــلِ ، وتيَّارُهَـــا بســـلك الجفـــون
ـل اللَّحْـــظَ للقُلـــوب كنـــور ـإذا مَسّـــها فَنَـــارُ المنـــون
ـإذا مـــا انجـــلى نقـــابُ الأمـــانيِّ ـار صَـــبّا ، مُـــدَلهًّا ، ذا فتـــون
ع السِّـــنّ حُرْقَـــة وابتهـــالاً ـير الحبـــورُ ليـــلَ شـــجون

صيحة الحب

ـمة هَبَّـــتْ عـــلى ضـــوء القمـــر ـتْ في نـــاي أحـــزان الخَلَـــدْ
ـاق صـدري ، مـن جرَاهـا ، واستعرْ أراق الوجـــدَ آســـاد الجلـــدْ
ـ لي بالصـبر ، والصّـبرُ انـدثرْ ـت أقـدام الجَـوَى ، لمَّـا اتَّقَـدْ
كيـف لي ... والحـبّ لا يبقـي عـلى ـد القلـب ، بأشـواق نيـامْ
كيـف لي ... والحـبّ قـد زاد إلى قَـات الحـزن أنّـات السَّـقَام

* * *

! تُلْحـدُ أوهـامُ الصّـبا لحـبّ ، مـن قلـب بَشر
! ـم تُبكـي أفـانينُ الرّبَـى صـب بابتسـامات الزّهَـرْ
آه ! ـم تخـدع ألحـاظُ الظِّبَـا ـل ، بسـواد وحَـوَرْ
! آهُ ! وهـل تنفعنـي إنَّـما «آه» ـات الصَّـدَى
بَـا فتـاتي ! ـل تُلبِّـي دعـوةً تْ مـن غَـوْر أعـماق الفـؤاد ؟
ـت والحـبّ ، وَهْنـا ، خلسـة ـون الـدّهْر ، في ليـل الحـدَادْ
بتهَا الـرّوحُ ، لـيلاً ، نَغْمَـة جـلال الكـون، في صمت العبادْ
يـاة الحـبّ ، لَبِّـي دعـوتي بعثـي روحـك للـرّوح الحـزينْ
تخـافي ، فالـدّجَى يرجـو التـي عَتْـهُ الحـبْ في كـأس السـكون
ـروس الحـبِّ ، هَيّـا واخلعـي ـن جفـوني الـدَّام يات الأرقـا
ذكـري أصـوات قلبـي ، واسـمعي مهجتـي اليـاءَ أنغـامَ اللِّقَـا

ۏ دعينـــــي في عـــــذابي ، واسرعـــــي ... حــذري أن تسـمعي صـوت الشـّـقَا
ـا فتـــاتي ذكِّـــر ي اللَّيْـــل بـــما ... ـهُ الـــر ّ وح ُ في صـــدر الظَّــلامْ
ســألي أمــلاكَ حـُبِّــي في الســما ... ن خشــوعي ، وابتســامي للسـَّـقَامْ
ـمعت ُ اللَّيْــل َ يمشي هـَام سـاً ... ـوع الكـــون أنَّـــات الشـّـعُورْ
ـدوءُ اللَّيــل يســعى حـَارسـاً ... ءُ الحـُــب ّ ، في صـَـدر الأثـيـرْ
ـــؤادي إذْ تـــولاّه الأسـَـــى ... ـي الآثـــار في ظـــل ّ الصـــدورْ
ـم عْت ُ اللَّيــل ، واللَّيــل اختفـى ... ـضباب الفجــر ، كـالطير الأصـَــمْ
ـكب الحـُـــب ّ بِ أَلحـــان الوفـــا ... ـاً بالـــدمع ، مِــــنْ جفـــن الألمْ

وعود الغواني

ـي بارتشـــاف الضر ّ َ ـــب ... جـَنَـى ثغـــر جميـــل أشـْـنَب
ـلى َّ طَلْعُـــه ُم ـــن ظُلَــمٍ ... ب ُ اللُّــــب ّ بـــنظم الحـَبَــب
ـإذا القـــول ُ سَراب ٌ لامــــع ... ـــد كَـــبر ْق خـُلَّـــب
ْ بـــع قـــاعٌ صـَفْصـَـــف ... ـــر ، إلاّ بِـــــرَث ّ الطَّنَـــب

ليلة عند الحبيب

ـــورٌ لـــذات الحـُجُـــب ... ـن صـُــو ّبت عـــن كَثَـــب
ـب ، هيفـــاء ، بَـــض ّ ، طفلـــة ... ـةً منهـــا جميـــع ُ العـَجَـــب
خطـــرت تمشي بـــروض زاهـــر ... ـة الخيـــل بـوَحْـــل السـّبســـب
ـن نحـــوي بطـــرْف فـــاترٍ ... ـفث السـِّـــبجفـــن أهـــدب
ـال صـَـــو َّبتْها ، جمـّـــــةً ... ـو قلبـــي الهـــائم المضـــطرب
ـل اللَّيـــل َ بفـــرع فـــاحـم ... ـاع مـــن جـَنْحـَيْـــه نشر ُ الزونـــب
ـت ُ أنســـى ليلـــة حالكـــة ... ـت ْ زرقاؤهـَــا بالســـحب

ـــت ْ ثـــوب َ ظـــلام دامـــس ـكون هائـــل ذي ر َ هَـــــب
ـلـــةً قـــد خضـــتُهَـا ، منفـــرداً في ديـــاجي جـــوف ذاك الغَيهـــب
ـــار بي م ُ هْـــري َ فيهـــا عَنَقـــاً نـــــاً ســـــيره ذو خ َ بَـــــب
ـــاً بي ، م ُ ـــتْه ِماً ، أو م ُنْجـــداً ــاً نحـــر الفضـــا بالحَصَـــب
ـــوْت ُ النّـــار َ في صـــدر الحمـــى ـــدها تخفـــق بـــين الحُجُـــب
ـلت ُ الحـــي ّ ، والسّـــترُ الـــدجى َت ُ الخِـــدْر َ والليـــل صـــبي
ُ السّـــتر ْ َ ، فـــافترّ الـــدّج َى ـــال ســـاحر محْتَجـــب
فقضـــيْنا ليلـــة ، جـــادت بهـــا ةُ الـــدّهْر ، الضـــنين القَلَـــب
ظ ـــل ّ الحـــب ّ ، والليـــل الـــذي ـــمَّنا في كَفِّـــــه ، يســـخرُ بي
هكَـــذا ... حتّـــى إذا روّعنـــا ـب ُ الصـــ ّـــح ، كـــذنَب العقـــرب
قَوهيـــــب ُ الألم المـــــرّ في م َـــــدْمَعِ هَا المُنْسَـــــك ب
ـــل طَـــل ٍّ ، فـــوق ورد ، ويلتـــي ! َـــر َى طَلْعـــة ذاك الـــذّنَب
ــم ّ قالـــت : يـــا حبيبـــي ! ر ْ عـــلى ـلاء الرّحمـــان ، في المُنقلـــب
َعْنَـــا ، وكـــل ّ قلبُـــــه في جحـــيم مـــؤلم ، تهـــب

ليت شعري

ـ ْ ثـــوب َ ســـكون اللّيـــل أنّـــات ُ كَلِـــيم ْ
طيَّـــات ســـجاف الغاســـق ، الـــدّاجي البَهـــيم ْ
كَـــت ْ منّـــي شـــعوراً ـان َ مـــن قبـــل ُ رمـــيم ْ
ـــت ُ مكـــان َ الصـــوت ، في ذاك الأديـــم ْ
ــإذا بـــالأرض م ُلقَـــى ـــل ٌ نـ ضـ ْـــو كَلُـــوم ْ
رَ تْـــترّ ب ُ والعَـــين ْ ُ عـــلى الخَـــدّ ســـجوم ْ
ـــت ُ م َليّـــاً جهَـــه تحـــت الغيـــوم ْ
ـــإذا المُلْقَـــى بـــوادي ـــي جـ ِسـ ْـم ُ العلـــوم ْ !

ـــا بنـــي الأوطـــان هُبُّـــوا ـــد طـــال الوُجُـــومْ "
انهضـــوا نهضـــةَ جبَّـــا بعـــزمٍ مســـتقيمْ
ـــتُ أبغـــي نهضـــة العـــاجز يتلُوهـــا الحُـــومْ
ـــتَ شـــعري ! ـــل ســـحابُ ـــل تَـــذْرُوهُ العقـــيمْ ؟
ـــترى الأعـــينُ بَـــدْرَ العلـــم ـــد شَـــقّ الغيـــومْ ؟
ـــتَ شـــعري ! ـــا بـــلادي ـــل تصـــافيك العلـــومْ ؟

في سكون الليل

ـــا اللّيْـــل الكئيـــبْ !
ـــا اللَّيـــل الغريـــبْ !

راء الهَوْل ، من خلف اب الظلُماتْ الايـاك تـراءت لي أحـزانُ الحَيَـاة
نـو فألْف يـكَ كَجَبَّـار حطـيمْ جَلَّلَكَ الحزنُ ، وأضناك الوُجـومْ
ـتْ بأعْشار كَ أحـلام غضـابْ امتاً، تصغي لأنَّات الأسى، والانتحابْ
ابضـاً كـالهول في إحـدى زوايـا الهاويـه ساكباً في راحة الفجـر ، الـدُّموع الداميـه
سَماّكَ ، يا ليلُ بني الحـزن ، بهيم ـت بـها تحويـه مـن شَـجْوٍ ، رحـيمْ
ـــا الـــذي خلـــف الغيـــومْ ... ؟
ـــا الـــذي خلـــف النجـــومْ ... ؟

ي يكْتُمُـهُ الـدهر ، ويخْفيـه الغَـدُ ؟ ما الذي يحجبه يم الحياة ..رْبَـدُ ؟
ذي خلفك يَا لَيْلُ ! أمْ سـلامْ ؟ لذي خلفك ؟ يا لَيْلُ ! ر ؟ أم ظلامْ
يبدو الفجرُ بَسَّاماً ، كَعذراء الخلُـودْ أنشودَةَ الحبّ ، على سمع الوجـودْ ؟
من وراء الأفْـق ، جَبّـاراً عنيـدْ الأيّـام بالشرّ ـ، وبـالهول المُريـدْ ؟
سيبدو الفجرُ ، يا ليلُ ! ذا جاء الغـدُ ـاه إذا رَفّ اللَّهيـبُ الأسْـودُ ؟
ـــا القلـــبُ الـــدّهَاقْ
ـــجون لا تطـــاقْ

ُّـا المحزونُ يا شاعر الدهر الكئيب نَّـما أنشودة الدّهر نواح ، ونيبْ
ـل ُ لـ نَسْـعَى نحو هاتيك الفلاةْ يث تقضي بسكون ، زاهرات ناضراتْ
مـا بـين أزاهير الفلاة الواجمـ ـه اً أيْأَسه ُحـُـزْنُ الحياة السّـاهمه
ْب ، الذي اخْضل ّ بأنداء الغَـما َمْ ط ّ : «ي في سباتي وعلى الدنيا السّلامْ »

إلى البلبل

.ّ ـا البلبل يا شاعر أحلام الربيع
ـي إنّ على صوتك أنداءَ الدموعْ
ي فهو يريني أملَ القلب الصريعْ
ئـهَ الفكر يناجي حيرة الفكر الشريدْ
خشوع وسكون وحنينْ
تكلَّمْ
ض الطل ّ ففي الطل ّ حياة حائره
دَتهْ ا عن فؤادٍ يل كف ّ جائره
ـر ّ دْ إنّ للوردة عيناً فاتره
ـتْهَا راحةُ الليل فقد هَب ّ الصباح
ـما أنتَ حَياة ساحره
ترنَّمْ
ـل التَّغريدَ شعريّاً على سمع الزهورْ
ترك الرقّة تهفو حول أوراد الغديرْ
روس النهر قد هَبَّتْ يناغيها الخريرْ
بَّتْ نسمةُ الفجر الشعاعَ المستطيرْ
ـل هفَّاف الغيوم السابحه
في ضحاها

نّ ألحـــــــــان الظـــــــلام أثـــــــرة المكتئبــــــــه
ــواري بســـــكون خلـــــف تلـــــك الأسْ ـــــح ـبَه
ـــئ مَ الـــــوردُ أنـــــين اللّوعـــــة المنتحبـــــه
ــد اللّحـــــنَ رخــــيماً يطــــرب ُ الكــــونَ رنيمُ ـــه
ادفـــــــن الحسرــــــــة في اللّحْ ــــــالرحيــــــبْ

ورؤاهـــــــــــــــا

كَ يـــا بلبـــل ُ مـــا في الشـــعر مـــن وحـــي تعـــوبْ
فيـــك مـــا في الفجـــر مـــن رقّـــة لآلاء طــــروب
ك مـــا في الكـــون مـــن فـــنْ ومـــن ســـحر خَ لُــوبْ
فيـــك مـــا في الزهـــرة مـــن شـــعر الـــدموع
فيـــــك مـــــا في الدمعـــــة المنحـــــدره

مـــــن معـــــاني

ُـــث الشـــعرَ ففـــي شـــعرك روح خالـــده
لّـــما هَـــتْ عـــلى تلـــك الزهـــور الراقـــده
ـــت في صـــدرها نـــبض َ الحيـــاة الهاجـــده
ــــتفاقت تتغنّــــى بأغـــــان ســـــاجيه
عـــلى أجفانهـــا ســـحر نضـــيرْ

ـــــــــــــان

، يـــا طــير ُ تَوَجَّسْ ـــت ُ أغاريـــد الحَيـــاه
ُ ل صَ ـــوْت ضَ ـــل ّ عـــن قلبـــي صـــداه
غـــدَا ينشـــده ، لكنّـــه خـــاب وتَـــاه
فتهـــا ْ َ ــــمَ الغلّـــة ِ ، مشـــبوباً صـــداه
أغاريـــد الحَيَـــاة الضـــائعة

ولُغاهـــــــــــا

في صـــدركَ أوتـــار الســـماء الساجِ عه

وبأعماقـــــــك أحـــــــــلام الحيـــــــــاة الرائعـــــــــه
وبآفاقـــــــك فجــــــــراً مـــــــن حيـــــــاة راتعـــــــه
في ريـــــــاض الظهــــــر في تلـــــــك المغـــــاني الخالـــــده
أجفانـــــــــك أضـــــــــواء عـــــــــذاب
ـــــن سـَـــــماَ ها
ـــت ـَــن ســـاحر قـــد جسّـــم الـــدهرُ صـــداه
غــــدا يهتـــف صـــدّاحاً بأنغـــام هـــواه
اً في نَضر ـــــة الأزهـــــار أطيـــــافَ مُنَـــــاه
ـــاكناً مـــن قلبـــه الطّـــافح بـــالوحي لحُونـــه
في فـــــــؤاد الــــــــوردة المســـــــتمعه
خيمـــــــــــه
ـــنْ نَشـــيد القلـــب في ظـــلّ الحيَـــاة الشـــاعره
ـــن دمـــوع الحـــبّ مـــن ســـحر الأمـــاني النـــاضره
ـــن لظـــى اللّوعـــة في تلـــك الأغـــاني الحـــائرة
بـــون الخُـــرُد العـــين ضـــياء ضـــاحكا
ـــاغكَ الـــدهرُ ملاكـــاً ســـاحرا
برنيمـــــــــــه
قلـــبُ الشـــاعر المـــترع بالحـــبّ النمـــيرْ
ـــاءه موطنُـــه الضّـــنْكُ ومـــأواه الحقـــيرْ
ـــا والشـــوقُ يُدْنيـــه إلى النـــور النضـــيرْ
ـــمّ ـــى بـــين أفنـــان الغـــيَاض العازفـــة
ـــاعراً ينشـــطر الـــوحيُ الجَميـــلْ
مـــــن حياتـــــه
ـــوْتُكَ المشـــبوبُ مـــن نـــار الحيـــاة الخالـــده
جائشـــاً بالنّغمـــة الســـكرى الطـــروب الشـــارده

ـــــث ُ الآمـــــال َ بـــــالنفس اليـــــؤوس الخامــــــده
ــــثلما تنبعــــث البســــمةُ مــــن جفــــن الحَيَــــاةْ
حيــــــنما يســـــتيقظ الفجــــــلجَميــــــلْ
ـــــــن ســــباته

دموع الألم

رـــات تهُيجهـــا الــــذكرياتُ ـــوع تُفيضـــها الشَّـــهَقَاتُ
وشـــجون تثـــير في القلـــب آلاَ مـــاً تغنِّـــي بصـــوتها الأنَّـــات
ْ لقلـــب إذا تنهَّـــد حُزنـــاً ـــدّ عنـــه الشـــجونُ والغصّـــات ؟
ـــنْ لـــنفسٍ إذا اســـتحرّ أســـاها جمـــدت في علومهـــا العـــبرات ؟
ضّ ـــها الزمـــانُ بـــرُزْء ـــذّبَتْهَا بصـــوتها الـــذكريات
ـــض ّ الحيـــاة إنْ سَـــاوَرَتهَا ن هُـــوّات يأســـها الحسرـــات
أمـــل ضـــائع وقلـــب عنيـــد ـــهُ الخطـــوبُ والصّـــعَقَات
ـــا نـــدبتُ الحيـــاة إلاّ وســـمعي ؤُهُم ـــن نشـــيجها شـــهقاتُ
كلَّـــما طافـــت يـــاة حَـــوَا َـــوَتْ مـــن جفونهـــا العـــبرات
كرهـــتُ الحيـــاة إلاّ لأنّ النَّـــاس في راحـــة الـــردى حَصَـــوات
جَبَّـــارة تـــدوسُ بَنِيهَـــا ـــي وهُـــمْ لَـــدَيهْا رُفـــات
ير َ أنيّ رأيتُهـــا وهـــي تبكـــي فأفاقـــت بمهجتـــي الزفـــرات
ـــي شـــجونها فتعـــذّبتُ وطـــارت نبطتـــي الهَفَـــوات
ـجَتْنِي دمُوعُهـــا فتألَّـــتُ وغاضـــت بمهجتـــي البســـمات
ُ في حَوْمَـــة الـــدّهور بـــآرا ـــي ومـــا تَسرُّ ـــالحَيَـــاة
ـــداً إنْ قَضـــيتُ غـــارت شـــجوني طـــواني لـــدى القبـــور السّـــبات
ـــيتُ الشـــقاءَ والـــدمعَ واليـــأَ ونامـــت بمهجتـــي الحركـــات
وقضىـــ فيســـكينتي طـــائرُ الحـــز ن وأغفـــت بصـــدره النـــدبات

ـذا يُلْجِ ـم المنون فؤادي ـب الحقائق الخالدات

الأديب

إن الأديب كزهرة نفّاحة تعنو إليها الصادحات وتسجد
ـل بلبل ما بين أنسام المنى ـاه صدّاح الصدى يتغرّد
تُشجيه ذكرى مجد شعب باذخ ملأ الفضاء تلهباً لا يخمد
فينوح منتحباً على ما لم يعد ادّكاراً مؤلماً يتجدّد
يقوده الوهم الجميل للجنّة الأحلام منها ينتقي وينضد
فيصوغ من درر الخيال قلائداً منها السعادة في الورى تتخلّد
إلى ملذّات الغرام ووهمه صبو أمانيه فلا يتردّد
ث للسير المغرّد سرّه ولذلك النهر الذي لا يهجد
هزّ بالكفّ اليراعة أسلبت معاً هو السحر الحلال الأيّد
أو جاس أطراف النجوم بلمحة رجعت وفيها خاطر يتوقّد
ويطوف ما بين الزهور كأنّه ملك حواليه الكواعب تحشد
وبمرشف الأزهار يسقي الراح من أيدي النسيم فينتشي ويعربد
إن رام تقبيل الثغور بدا له غر الأقاح مبللاً يتودّد
أو رام نجوى فالبلابل جمّة ين الرياض مدى الزمان تغرّد
و شاقه سحر العيون فإنّ في لك السهول جئاذراً لا تُكمد

أنسيم يهب

قصيد لأبي القاسم الشابي ، رداً عن تهنئة شعرية تلقاها بمناسبة (زفافه) (١٩٣١) من أحد أبناء عمومته (الشيخ عامر بن محمد الصالح الشابي).

الحمد لله وحده

ـــــــيمٌ يهـــــبّ في الأســـــحار ــــــين تغريــــد بلبـــــل وهَـــــزار
أم أناشــــــيد معبــــــد رتّلتهـــــا كالنســــيمات غانيـــات الجـــواري
أم أريــــج الزهــــور أم نغمـــــة الأطيـــــار أم غنّــــة النهـــير الجـــاري
أم تهانيـــــك صـــاغها فكــــرك الســـامي فكانــــت خريــــدة الأشـــعار
يــا ســليل العــلا ، وتــرب المعــالي وســـمير العلـــوم ، رب الفخـــار
ــــت مَـــــن تســـجدُ البلاغـــة والمجـــد عـــلى بابـــه بـــلا اســـتكبار
ـيــــه العلــــوم أوجههــــا الغــــرّ وتجنيــــه مــــا بهــــا مـــن ثـــمار
إن يكــــن أســــبغ الزمــــان عــــلى فوديــــك مــــن شــــيبه جــــلال الوقـــار
بجنبيــــك لا تــــزال مــــن الهمّـــــة والمجـــد جـــذوة مـــن نـــار
بســــط الله في الحيــــاة إلــــيكم عمــــراً طيبـــاً بغـــير تبـــار
وأراك الله (!) ـــا شـــئت في أنجالــــك الغـــرّ مـــن عـــلا وفخـــار
فهـــم صـــحبتي وإخـــوان نفسيـــ في ظلامـــي وفي بيـــاض نهـــاري
ماتــــه بنــــت وقتهـــا فتقبّلْهـــا فـــما في قبولهـــا مـــن عـــار
ولـــتعش في الحيـــاة مغتـــبط الـــنفس قـــوي النهـــي يـــد الادهـــار[1]
والســـلام عليـــك مـــن ابـــن أخيـــك بلقاسـم بـن محمـد بـن بلقاسـم الشـابي



(١) أي أبداً .

المصادر والمراجع

١. أبو القاسم الشابي، الخيال الشعري عند العرب، الشركة القومية للتوزيع، تونس ١٩٦١.
٢. أبو القاسم محمد كرو، كفاح الشابي، دمشق، ط٤، ١٩٨٩.
٣. أبو القاسم محمد كرو، دراسات عن الشابي، الدار العربية، ليبيا ١٩٨٤.
٤. أبو القاسم محمد كرو، الشابي حياته وشعره، دار مكتبة الحياة، بيروت.
٥. أحمد قبش، تاريخ العرب الحديث، دار الجيل بيروت.
٦. د. أميل أ. كبا، مداخلة وتحقيق، ديوان أبي القاسم الشابي، مجلد ٢، دار الجيل، ط١، ١٩٩٧.
٧. إيليا الحاوي، أبو القاسم الشابي شاعر الحياة والموت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٢.
٨. حلمي محمد عبدالهادي، مع الشابي في ديوانه، دار الفكر، ط١، ١٩٨٧.
٩. رجاء النقاش، أبو القاسم الشابي شاعر الحب والثورة، المؤسسة العربية بيروت، ١٩٧٥.
١٠. ريتا علي، أبو القاسم الشابي، المؤسسة العربية، ط١، ١٩٨٣.
١١. عبداللطيف شرارة، الشابي دراسة تحليلية، دار بيروت، ١٩٧٣.
١٢. د. عز الدين إسماعيل، دراسة وتقديم، ديوان أبو القاسم الشابي، دار العودة، بيروت ١٩٧٢.
١٣. د. عمر فروخ، الشابي شاعر الحب والحياة، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٨٠.
١٤. مدحت سعد الجبار، الصورة الشعرية عند الشابي، الدار العربية ليبيا، ١٩٨٤.
١٥. محمد الأمين الشابي، أغاني الحياة، ديوان أبو القاسم الشابي، دار مصر للطباعة، ١٩٥٥.
١٦. محمد عبدالغني المصري، دراسات أدبية في الشعر العربي الحديث، دار الفرقان، ١٩٨٤.
١٧. د. محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار نهضة مصر، القاهرة.
١٨. نازك الملائكة، قضايا الشعر المعاصر، دار العلم للملايين، بيروت ط٤، ١٩٧٤.
١٩. د. يوسف بكار، بناء القصيدة العربية، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٧٩.
٢٠. يوسف عطا الطريفي، شعراء العرب، المغرب والأندلس، دار الأهلية، الأردن ٢٠٠٧.

فهرس

القسم الثاني: قصائد الشابي وروائعه